اليقظة والصلاة

نقله عن اليونانية
الأب
منيف حمصي

١٩٩١

جميع الحقوق محفوظة
طبعة أولى
١٩٩١

ـ الفهرس ـ

ـ الاهداء ٧
ـ كلمة الراهب ثيوكليتس ١١
ـ كلمة الراهب يوحنا (المؤلف) ١٢
ـ كلمة المعرّب ١٥

القسم الأول[1]

١ ـ القلب ٢١
٢ ـ النفس ٣٠
٣ ـ الذهن (النوس) ٣٨
٤ ـ الاهواء ٤٤
٥ ـ الأفكار ٥٧
٦ ـ الهدوء ٦٨
٧ ـ ذكر الموت ٧٩
٨ ـ الخيال والتخيّل ٨٤
٩ ـ الأبوة الروحية ٩٩
١٠ ـ صلاة الرب يسوع ١١١

(١) القسم الأول من وضع المعرّب.

القسم الثاني

١ - الفصل الأول:	اليقظة في الكتاب المقدس	١٢٩
٢ - الفصل الثاني:	اليقظة في العبادة الإلهية	١٣٧
٣ - الفصل الثالث:	اليقظة أساس الحياة الروحية	١٤٢
٤ - الفصل الرابع:	الصلاة القلبية وخلاصنا	١٤٧
٥ - الفصل الخامس:	سوط المسيح	١٥١
٦ - الفصل السادس:	يسوع الكل في الكل	١٥٤
٧ - الفصل السابع:	كم وكيف ينبغي أن تصلي	١٥٧
٨ - الفصل الثامن:	الصلاة القلبية والتطويبات	١٦٤
٩ - الفصل التاسع:	ثمار الصلاة القلبية	١٧٩
١٠ - الفصل العاشر:	الصلاة القلبية والعشق الإلهي	١٨٢
١١ - الفصل الحادي عشر:	اليقظة والصلاة بحسب ايسيخيوس الكاهن	١٨٥
١٢ - الفصل الثاني عشر:	للبار نيكيفوروس المتوحّد	٢٠١
١٣ - الفصل الثالث عشر:	للقديس غريغوريوس بالاماس	٢١٣
١٤ - الفصل الرابع عشر:	للقديس نيقوديم الآثوسي.	٢١٧

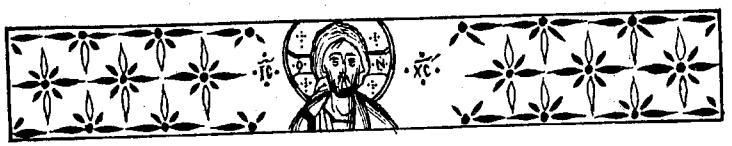

الاهداء إلى:

- أبي الروحي قدس الأب الياس مرقص وأخوته في دير الحرف.
- زوجتي الحبيبة نجاح التي بفضلها ومحبتها وتضحياتها ولد هذا الكتاب.
- ابني الحبيب اليان، وابنتي الحبيبة دوريس اللذين احتملا بُعدي كي يولد الكتاب.
- أخي الغالي كمال، أختي الغالية سهام، أختي الغالية نهاد وعائلاتهم.

سائلاً لهم بركات الرب
وشفاعة واضعه

الأب
منيف حمصي

اليقظة والصلاة

«تشبه الأتعاب الجسدية ـ بدون طهارة الذهن ـ امرأة عاقراً، وثديين انقطع لبنهما. لذا فهي لا تقوى على الدنو من معرفة الله».

القديس
اسحاق السرياني

كلمة الراهب ثيوكليتس:

الله خلق النفوس على صورته ومثاله. وبالتالي يريدها أن تنتمي إليه. إنه يريد الإنسان بالكلية. ولما كان الله مثال الصورة ونموذجها، فمن الطبيعي أن لا تباين الصورة مثالها ونموذجها. ليس هذا فحسب، بل أن كون الصورة وجوداً حراً روحياً مسؤولاً، فهذا يوجب عليها أن تُجسّد سمات مثالها، فترتقي إليه. وعبارة «**على مثاله**»، تُفهم على أنها تجسيد للفضائل الإلهية بفعل نعمة الروح القدس، وهذا هو التأله.

الإنسان المخلوق على صورة الله، مدعو أن يبقى على هذه الصورة، وأن ينمو بإطّراد، كي يبلغ إلى المثال انطلاقاً، من هذا العالم. إلّا أنه بسبب نسيان الهدف الأول، يتلوّث بكثرة الأهواء (المنحرفة). ومن شأن الجهل الناتج عن هذا النسيان، أن يُفقده رؤية المثال، فيطوف في ظلمة الغباوة خاضعاً للشيطان.

لكن ثمة طريقاً به يستطيع المرء صون علاقته بالله مثاله، فيجاهد سعياً إليه: انها **اليقظة** التي يعلّمنا الكتاب الكثير عنها. باليقظة استطاع القديسون صون الصورة وبلوغ المثال، وذلك بمقدار ما تستطيع الطبيعة الإنسانية أن تستوعب وتتقبّل.

وممارسة اليقظة الداخلية المرتبطة عضوياً وصميمياً بالصلاة القلبية - كما عاشها القديسون وخبروها -، يصوّرها هذا الكتاب الذي هو من وضع الأخ الراهب يوحنا، والذي لمنفعة الكثيرين من الأخوة المستقيمي الرأي، تعب وكدّ ليقدّمه باقة من خبرات القديسين الروحية.

الراهب
ثيوكليتس
جبل آثوس

كلمة الكاهن الراهب يوحنا:

اليقظة في لغة الكنيسة الأرثوذكسية، هي الانتباه، الرقابة الدقيقة على حركات الذهن والقلب. إنها باختصار، ضبط الفكر (Logismos)[1].

وتشتق لفظة «اليقظة» اليونانية من فعل (nifo) الذي يعني: (أتيقظ، أسهر). وتحتاج إلى صلاة كي تثمر، لا سيما إلى الصلاة القلبية. عندما نتكلم عن الصلاة، فإننا نعني على وجه الدقة، ذلك الكنز الثمين الموجود في الحياة الأرثوذكسية وتقليدها المستيكيين. اليقظة لا تُفهم بدون صلاة قلبية. والصلاة أيضاً لا يمكن أن تفهم بدون يقظة. الاثنان صنوان ـ متلازمان، في عملية تنقية القلب من الاهواء، ـ في الحرب اللامنظورة ضد الشياطين والافكار السمجة.

اليقظة والصلاة ليسا حكراً على جماعة الرهبان، رغم أن الرهبان يستعملونها أكثر من سواهم بداعي ظروف حياتهم التقوية الهادئة. ولا بد لكل مسيحي، من هذه التنقية، كي يتأله. بدون هذا، فإن كل عمل لا يجدي حسب قول الرب. اليقظة والصلاة ضمانة. إنهما الدرب المضمون الذي اختبرته الكنيسة منذ أن كانت. وهذا الدرب يقود إلى الكمال الانجيلي.

اليقظة والصلاة هما من أهم أركان البنية الروحية. ومن شأنهما أن يؤلّفا الاطار الاستراتيجي لفن الحرب الروحية للمسيحيين. كل القديسين المجاهدين عاشوا وجاهدوا بيقظة واحدة، لا كلل فيها، مصحوبة بحراسة

(١) راجع الفكر (logismos)

روحية دائمة، وسهر. جميع القديسين، الأنبياء، الرسل، الشهداء، الأبرار، المدافعين والآباء، كانوا يقظين في العمل (praxis)، والتأمل (Theoria)، وقد تركوا لنا تراثاً خطياً مفعماً بالنعمة والنور، ذا ثمرٍ عذبٍ ينبع من الحياة في الروح.

كذلك في الفيلوكاليا ثمة نصوص متينة دافئة تصلح أن تكون غذاء لليقظة والصلاة القلبية، سواء كمقاطع، أو كنصوص كاملة. وقد اخترنا منها مقتطفات لهذا الكتاب.

أن الفيلوكاليا هي موسوعة تتناول الحياة المسيحية. فيها يركّز الآباء الصحاة على اليقظة والصلاة. كتاب (سائح روسي على دروب الرب)[1]، صار الغذاء الأول لعشاق الصلاة القلبية، (محبّيها)، الذين ذاقوا أفراحها.

جميل هو استدعاء اسم يسوع[2]. لقد نزل منذ عهد قريب إلى المكتبات كتاب رائع تحت عنوان (لاهوت الصلاة القلبية)[3] مع مقدمة فيلوكالية بديعة. وتبعه كتاب آخر رائع: (الرياضة القلبية)[4].

يبقى أن الغاية من هذا الكتاب هي منفعة المؤمنين. وسوف يُسهم على صغر حجمه في انتشار الصلاة القلبية في كل الكنيسة، لا سيما في وقتنا الحاضر، حيث يشتد العطش إلى الحياة الميستيكية الأرثوذكسية بين الأرثوذكسيين وسواهم. ورجاؤنا الثابت أن يسير عمل كهذا، جنباً إلى جنب، مع الحياة الاسرارية، فيُعين على تجديد الرعاة والمرعيين بالمسيح، في أيامنا الصعبة والعصيبة.

ان ما تحويه صفحات هذا الكتاب، ليس عائداً إلى واضعه، فهو

(١) ترجمة المطران بندلايمون كارانيكولا ـ الطبعة الثالثة ـ أثينا ـ ١٩٦٦.
ملاحظة: الجدير ذكره أن كتاب (سائح روسي على دروب الرب) طبعته منشورات النور.
(٢) ليف جيله ـ ترجمة السيد فوسكا ـ اثينا ـ ١٩٧٠ (the Jesus prayer)
(٣) الراهب ثيوكليتس ديونيسياتي (جبل آثوس ـ سالونيك ١٩٧٥).
(٤) الشيخ كليمنضس ـ كاتوناكيا ـ جبل آثوس ١٩٧٦.

مأخوذ من المائدة المقدسة، مائدة الآباء القديسين الاطهار، الذين تركوا لنا كتاباتهم لأننا أبناؤهم. وهو على كل حال، ثروة خام لم تَمسَّها يد بعد.

لذا فإن كل أخٍ قارئ، - راهباً كان أم علمانياً - يروم أن يسلك درب إيليا التشبيتي، ويلتهب حتى يصبح سابقاً ثانياً لمجيء المسيح، عليه أن يمتطي عربة اليقظة والصلاة[1] كي يرتقي إلى السماء مع النبي الغيور ايليا.

اختم بقولٍ للبار ايسيخيوس الكاهن: «الراهب الحقيقي هو من بلغ اليقظة»[2].

وأخيراً، أظن أن البار ايسيخيوس سيغفر لنا إذا عمّمنا حقيقة كبيرة يؤكدها الكتاب المقدس، وقد ترسّخت في تقليد كنيستنا الشريف: «المسيحي الحقيقي هو من بلغ اليقظة. واليقظ الحقيقي هو من كان في القلب مسيحياً»[3].

الكاهن الراهب
يوحنا

(١) الشيخ كليمنضس - كاتوناكيا - جبل آثوس، ١٩٧٦
(٢) فيلوكاليا، المجلد الثاني - ص ٢٨٢.
(٣) فيلوكاليا، المجلد الأول - ص ١٦٦.
ملاحظة: ايسيخيوس هذا كان رئيساً في دير سيناء في القرن ٧ - ٨. وهو غير ايسيخيوس الكاهن الأورشليمي.

كلمة المعرّب:

الكتاب الذي بين يديك - أخي القارئ - وصلني يوماً من الأب الناسك اسحاق عطا الله الآثوسي الذي عرفته منذ طفولتي في البلمند (١٩٦٥)، لكن صلتي به توطدت في اليونان قبل ثلاث عشرة سنة. اهداني هذا الناسك الجليل مجموعة من الكتب النفيسة تذخر بها مكتبتي: «أقوال الآباء الشيوخ» عرّبته ايفاء مني للوعد، وقد طبع في (النور) بالتعاون مع البلمند. كذلك أهداني «المئويات الأربع في المحبة» للقديس مكسيموس المعترف، وقد انتهيت من تعريبه من سنوات، إلّا إني أعمل الآن بعد اشراف الأخ اسبيرو جبور عليه، من أجل مقدمة تفي به. كذلك أهداني كتاباً ثالثاً: «ما بين السماء والأرض» وهو بحق درّة آثوسية. وكنت عرفت قبل سنوات من المثلث الرحمات البطريرك الياس معوض نفسه - مطراني في الأساس - إنه قد أنجز ترجمته. لكن مع كبير الأسف، فالعمل هذا، ضاع برحيل معرّبه عن هذه الفانية.

الكتاب، نسكي دافئ. انه أصيل المضمون، آثوسي الطابع، مسيحي الفحوى. أمسكت به في بادئ الأمر وطالعته مرات ومرات للوقوف على فحواه وهيكليته، فشدّني على قصر باعي وضحالة خبرتي. لغته عامية ولا شك. صاحبه انسان بسيط لم يتلبّك فكره وتعبيره بالحزلقات والتعقيد. وهكذا فالكتاب يبدو في الظاهر وكأنه للعامة دون سواهم. إلّا أن الظاهر لا يقوم على كنه فقير، أو لب تافه. فمضمون الكتاب عصارة تراث. فيه وجه روحانية تتسم بفرادة. وعليه فهو للعامة كما للصفوة. فرادته في فحواه، رغم بساطة صاحبه. لدى الشروع بتعريبه، صادفتني بعض صعاب تتعلق ببعض ألفاظه التي لم أجد لها أثراً في قواميسي، فاستعنت ببعض الأحباء على فكها للوصول إلى معناها ضمن سياقها. ولما

انتهيت منه، عرضته على زوجتي نجاح، فراقها وأعجبت بلونه وفحواه. فقرأناه مرات ومرات كي نكسبه حلة تجعله بعيداً عن دقائق الترجمة وصعوباتها فيبدو وقد ولد بالعربية لا باليونانية. وهذا أوجب اعادة نسخه أكثر من خمس مرات. ثم عمدت إلى تدعيم الكتاب بالشواهد الكتابية التي أغلبها غير موجود في النص اليوناني. بعدها عرضته على بعض الأخوة للاستئناس برأيهم والأخذ بملاحظاتهم، فالكمال لله.

يقع الكتاب في أربعة عشر فصلاً يعالج فيها صاحبه اثنين من أدق مواضيع الأدب النسكي (اليقظة والصلاة)، فيجول بك في عالم الطقوس تارة، وفي الكتاب[1] طوراً. يسلط الضوء على جوانب من الكتاب[1]، تجد نفسك مشدوداً إليها، فالكتاب الإلهي حياة للروحانيين. ثم يعمد إلى الاقتباس من خدمة القداس الإلهي يفجّر بعض معانيه على نحو يجعلك تدرك محبته لها، ويحثّك عن غير سابق تصميم، على محبتها.

إنه كتاب للرعاة والمرعيين معاً. إنه كتاب النفس وقد ارتوى من كتب الطقس المختلفة. ففيه من التريودي ما يحببك به، ومن البنديكستاري ما يشدّك إليه. رصّعه الراهب ثيوكليتس بكلمة بديعة موجزة وتطفّلتُ بعده بأخرى، عساني جعلتها لمجد الله وللضرورة.

الكتاب باقة. إنه صفحات فيلوكالية كما أسماها صاحبه. هو من عيون الأدب النسكي. وصفحاته تجمع، على نحو فريد، بين الائتلاف والتمايز، بين التباين والانسجام عند الآباء القديسين الذين انتموا في اطار الدنيا، إلى مشارب شتى وكانوا أصحاب مواهب مختلفة لفحها الروح القدس الواحد.

يتناول الكتاب فكراً أصيلاً يعالج هموماً معاصرة كالصلاة. وعصرنا غريب عن روح الصلاة، يجهلها ويمجّها ولا يتذوقها. شبابنا يعانون لدى خوض غمارها. والكتاب يأتي علاجاً لمن أدركوا المرض. عندما تطالعه

(١) الكتاب المقدس.

تتساءل عن مصادره ومراجعه والمدارس التي اعتمدها. فليس هو في منهجه اسكندرانياً تأويلياً allegorical، ولا انطاكياً حرفياً - تاريخياً litero-historical، ولا صلة له بأية وجودية معاصرة كيركيجاردية كانت أم سارترية. فعند كل ركن منه ترى الراهب يوخنا يحيلك إلى منابع الفيلوكاليا يغب منها ويغب دون أن يرتوي. وقد تسأل يا أخي، ما هي الفيلوكاليا؟ فإليك شيئاً من جواب على سؤالك.

ما هي الفيلوكاليا؟

الفيلوكاليا هي مجموعة أقوال الآباء القديسين. إنها باقة زهور من جنائن الروح القدس تنهض النفس من كبوتها وسباتها وغفلتها، لتطلقها في رحاب الروح القدوس. الفيلوكاليا تساعد على التدرب الروحي والرياضات النسكية وعيش وصايا المسيح. فحواها يسمى فن الفنون وعلم العلوم. إنها كتابات الآباء الذين بالمرقاة إلى الثيوريا دوّنوا لنا أسمى ما بلغوا إليه في الخبرة والحياة مع الله. الأدب الفيلوكالي يمثّل لنا الرياضات النسكية، والحنين إلى القداسة. فيه كلام كثير عن صلاة الرب يسوع، وكيفية تطبيقها. وكل ذلك يرمي إلى معرفة الذات. ومعرفة الذات باب واسع يحتاج فيه الإنسان إلى معرفة زوايا الذات المختلفة (Ego)، فيزيل العراقيل الشخصية منها والخارجية، ليجني أفضل السبل إلى النجاح. السكينة (hesychia) عنصر لا بد منه لبلوغ ما نتكلم عنه.

أما أسس الفيلوكاليا الأرثوذكسية فهي: الكتاب المقدس والتقليد الشريف والأعمال الابائية المدوّنة والشفهية على السواء.

الفيلوكاليا الشرقية جمعها في القرن الثامن عشر مكاريوس الكورنثي (١٨٠٥ - ١٧٣١) والقديس نيقوديم الآثوسي (١٧٤٨ - ١٨٠٩). وقد طبعت بادئ الأمر في البندقية سنة ١٧٨٢. ثم ما لبثت أن نقلت إلى اللغات السلافية تحت اسم (Dobrotolubiye) على يد بيسيوس فليتشكوفسكي (paissy velichkovsky) راهب روسي زار جبل آثوس في

القرن الثامن عشر وعمل لاحقاً في منطقة مولدافيا، وكان لمساهمته شأن كبير وقيمة هامة بالنسبة لنهضة الرهبنة وممارسة صلاة الرب يسوع في روسيا. ترجم الفيلوكاليا إلى الروسية المطران ثيوفان الحبيس (١٨٩٤).

إن كتابات الآباء القديسين الملهمين من الروح القدس تصور لنا الصعوبات الروحية وتقدم الحلول لها بقوة الله. كان الآباء وما يزالون نوراً لنا، يعيننا في سلوك الدرب الإلهي وسط هذا العالم المتعب.

في الكتاب ألفاظ عسيرة، مجهولة مدلولاتها ومعانيها، أو قل ببساطة إنها غامضة: «النفس»، «القلب»، «الذهن»، «الأفكار»، وسواها... وقد وجدت من الضرورة العمل على كشفها وتبيانها ليسهل الوقوف على كنه الكتاب. وهكذا كان القسم الأول نوراً يوضح عبارات النص اليوناني (القسم الثاني). وكنت أرجو التوسّع في شرح قائمة أطول من الألفاظ العسيرة نتلمّس وجودها مداورة في النص كالجسد، الشيطان، الأحلام، الراهب، الدير، الرعية، العالم، وسواها، لما لها من أهمية في تنوير جنبات الكتب وطيّاته. إلّا أني عدلت لئلا يطول الكتاب.

لا يسعني إلّا أن أسأل العافية والبركات السماوية للحبيبين نبيل نقولا وانطوان داوود، لدورهما في اطلاق هذا العمل والمساهمة في انجازه. أخيراً أسأل الرب أن يجود علينا بثمار الكتاب بشفاعة واضعه وصلواته أمين.

الأب
منيف حمصي

القسم الاول

القلب Heart, cardia

لا بد ـ قبل الدخول في هذا الموضوع الشائك ـ من القول أن لفظة (قلب)، تتصل في التعبير المعاصر، بالحياة العاطفية. الناس ألفوا استعمال العبارة في حدود المدلول العاطفي الضيق الذي يكاد أن ينحصر في المعنى الجنسي sexual connotation. ولست هنا في مجال الكلام عن أسباب الاستعمال الرخيص المجتزأ لهذه اللفظة، كما ولست في مجال يسمح لي بالتوسّع في سيكولوجية المفهوم المعاصر للقلب، وذلك كي لا أخرج عن النطاق الذي يرسمه الكتاب.

ما هو القلب؟ في العبرية، القلب هو باطن الإنسان. إنه جوهره وماهيته. القلب هو جملة المشاعر الإنسانية والأحاسيس الوجدانية (٢ صموئيل ١٥ : ١٣)، (مزمور ٢١ : ٣)، (اشعيا ٦٥ : ١٤). القلب اناء الأفكار والذكريات. الله حبانا قلباً يفكر (سيراخ ١٧ : ٦). إن عبارة «أعطني قلبك» شائعة جداً في الأدب النسكي. إنّها من مستلزمات السير في درب المسيح (أمثال ٢٣ : ٢٦). قلب الإنسان مركز شخصيته. إنه مجال الناموس غير المكتوب (رومية ٢ : ١٥). في القلب يتم عمل الله لخلاصنا. السلوك الظاهري كثيراً ما يميط اللثام عن نوايا القلب (سيراخ ٢٣ : ٢٥). الأفعال والأقوال يمكنها أن يعرّيا القلب. ولكن رغم ذلك فيمكن للقلب ـ إذا شاء صاحبه ـ أن يحتفظ بسرّيته وخصوصيته (أمثال ٢٦ : ٢٣)، (سيراخ ١٢ : ١٦). وكل هذا لأن الإنسان يتمتع بازدواجية مخيفة هي شر يستنكره الكتاب الإلهي ويمجّه (مزمور ٢٨ : ٣)، (سيراخ ٢٧ : ٢٤).

كثيراً ما يواجه المرء نداء الله بازدواجية ماكرة رعناء. كثيراً ما نتصنّع خطب ود الرب عن طريق عبادة خارجية شكلية (عاموص ٥ : ٢١). كثيراً

ما نخادع بفمنا وشفتينا (مزمور ٧٨). ومع هذا فأحكامنا تنظر إلى الظاهر أبداً، أما الرب فينظر إلى القلب على الدوام (١ صموئيل ١٦ : ٧). الله فاحص القلوب والكلى (ارميا ١٧ : ١٠)، (سيراخ ٤٢ : ١٨). الله يفضح الكذب ولا يهادن (اشعيا ٢٩ : ١٣). الانسان بدنوه إلى الله، يرهن ذاته (ارميا ٣٠ : ٢١).

وعليه، فالتديّن الحق يقوم على امتلاك قلب جديد متعطش إلى حب الله من كل القدرة (تثنية ٤ : ٩). لقد أدرك اسرائيل حقيقةً انه لا بد من اعداد القلب لله (١ صموئيل ٧ : ٣). إلا أن كل تاريخ اسرائيل يشهد على التقصير في ذلك (ارميا ٥ : ٢٣). فالناس قلوبهم غير مختونة (لاويين ٢٦ : ٤١). لذا فالعودة إلى الرب تقتضي كسر القلب وانسحاقه (مزمور ٥٠)، وطلب قلب طاهر بدل القلب البالي (مزمور ٥٠). الله وحده يقدر أن يجدّدنا ويخاطب قلوبنا (هوشع ٢ : ١٦). هو وحده يقدر أن يختن قلبنا. (تثنية ٣٠ : ٦) وذلك كي نتمكن من حبه كل الحب (ارميا ٣١ : ٣٣). ان تغيير القلب مرهون بالله (ارميا ٣٢ : ٣٩)، (حزقيال ١٨ : ٣١).

وكل هذا لأن القلب هو مصدر الشرور أيضاً (متى ١٥ : ١٩). يوحنا الإلهي لا يتكلم عن القلب إلّا ليرفع عنه ثقل القلب والهم والخوف (يوحنا ١٤ : ٢٧). والمسيح يعدنا بقلب يكون نبع حياة (يوحنا ٤ : ١٤). يسوع المسيح هو قلبنا (يوحنا ١٧ : ٢٣).

القلب في الأدب النسكي، وفي الكتاب المقدس، هو القلب اللحمي، مضخة الدم إلى كل أرجاء الجسم. إلّا أنه مركز الوجود اللحمي والروحي بآن[1]. القلب المتخشع والمتواضع لا يرذله الله (مزمور ٥٠). القلب اللحمي ذو وظيفتين: بيولوجية وروحية. القلب هو اطار اعلان القداسة (١ بطرس ٣ : ١٥).

في القلب، في نطاقه، تتفجّر قوى الروح القدس. فيه تستقر وترتاح

(١) Hausherr, hesychasm, a study of spirituality page: 85.

النعمة غير المخلوقة. ومع هذا فالقلب الذي يحوي الله، يبقى دون من فيه. الله لا يحويه الكون برمته (١ يو ٣ : ٢٠). نعمة الله تحل في القلب عند المعمودية. الروحي يعتلن في اللحمي ويقدسه (٢ كور ٣ : ٢ - ٤)، (افسس ٣ : ١٧)، فالقلب هو مستودع كل كنوز الحكمة والمعرفة (فيلوكاليا ٣ - ص ١٩٧). القلب اناء الرحمة وميدان النور الإلهي (٢ كور ٤ : ٦). لكن رغم عظمة مكانته، يبقى عرضة للتلف والفساد. انه عرضة للقساوة (رومية ٢ : ٥)، (عبر ٣ : ٨)، (مرقص ٦ : ٥٢).

وعليه، فخلاص الإنسان ليس أمراً يغطّينا من الخارج، إنه تحوّل عميق في أعماق الكيان. إنه ان نلبس المسيح كما تقول الترتيلة (أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم. . .) (١ كور ٢ : ١٦). وما دام الخلاص تحوّلاً داخلياً، عندئذ فهو يقوم على اكتشاف القلب، مستقر الله الذي يحوّلنا. هذا ما يؤكده القديس مرقص الناسك عندما يفسر عبارة (ملكوت الله في داخلكم) (لوقا ١٧ : ٢١). في القلب يكمن ملكوت المسيح. وهكذا، فاكتشاف القلب، هو المعيار الذي به نتعرف على ملكوت المسيح. الحياة في المسيح تجري في جداول القلب، ومنه تبث في كل أرجاء الكيان. إن سجن القلب هو لحمايته من أن يكون مستقر ابليس، بدل أن يكون اطار الملكوت. بهذا المعنى لا يميّز الآباء بين سجن القلب وحفظ الذهن (النوس).

عند القديس ذياذوخوس فوتيق، تبدأ حياة النعمة مع المعمودية، (مئة مقالة في المعرفة - ص ١٦٩). هو نفسه يقول في موضع آخر بأن النعمة تسكن في أعماق النفس (مئة مقالة. . . ص ١٧٤). ويطيل الكلام فيتحدث عن ابليس والنعمة في القلب، قبل المعمودية وبعدها (الكتاب نفسه - ص ١٠٦٧). قبل المعمودية يكون الشيطان في أعماق النفس، بينما بعدها يصير الشيطان في موقع خارجي، فالنفس هي مستقر الله، وهو خالقها.

عندما تنزع النفس إلى الشرور، تتغلّف النعمة بالأهواء، ولا يتحرر

منها، إلا بالجهاد والنسك (الكتاب نفسه - ص ١٨٩). عند القديس ذياذوخوس بداية الولادة الروحية مرهونة باقتبال سر المعمودية.

القديس ثيولبتس مطران فيلادلفيا، يعلّمنا أن اكتشاف القلب يتم عبر نهج هدوئي (hesychastic method) (فيلوكاليا ٤ - ص ٦). والنهج الهدوئي واجب في مسيرة الخلاص. هذا ما نراه مع كل الآباء القديسين. هذا مبدأ ابائي في الأدب النسكي، وهذا ما تؤكده الترتيلة: (ليس ملكوت الله طعاماً أو شراباً بل براً ونسكاً...). من شأن كل هذا أن يقودنا إلى أمر بالغ الأهمية وهو أن اكتشاف القلب هو اعتلان الشخص. الشخصانية المسيحية تقوم على اكتشاف القلب. فالشخص هو تحقيق الصورة. وبلوغ المثال ليس هو عملياً، إلا اكتشاف الشخص فينا.

الخلق على الصورة، يعني المثال بالقوة. والمثال هو صيرورة الصورة بالفعل. كل الناس أشخاص، لا مجرد أفراد. إلا أن الفرق بين هذا وذاك، يكمن في اكتشاف الشخص الدفين، أو جهله وتجاهله. الشخص هو انسان القلب الداخلي (١ بطرس ٣: ٤). ويتعذر تحديد الشخص، كما ويتعذر في النهاية تحديد القلب. الشخص يولد بالنعمة. يولد من فوق. ليس هو من نتاج جدلية المادة ونواميس الدنيا (من لم يولد من الماء والروح...) (يوحنا ٣: ٥). القلب أيضاً يولد من فوق. لا وصول إلى الشخص بدون فعل نعمة الله. وهذا يسمى ولادة، اكتشاف، تحوّل، تجلي... الخ. أين هو هذا القلب؟ انه في القلب العضوي (organic). هذا يؤكده القديس بالاماس عندما يفسر[1] (متى ١٥: ١٩).

بولس الرسول أيضاً يجعل رسالة المسيح في القلب (٢ كور ٣: ٢). متى يُكتشف القلب؟ يُكتشف عندما يعود الذهن (النوس) من ضلاله. هذه خبرة ابائية عرفها الذين انشغلوا وينشغلون بصلاة الرب يسوع. لهذه الصلاة فعل عجيب يساعد على اكتشاف كنوز الروح القدس. القديس نيقوديم الآثوسي يتكلم عن ذلك بتفصيل في كتابه: (كتاب الارشاد -

(١) القديس غريغوريوس بالاماس - المجلّد الثاني .E.Γ.E - ص ١٢٤ - ١٢٦.

ص ١٠٩ - ١١٣) ويستعين بالكتاب المقدس كي يدعم موقفه (أعمال ٥: ٣)، (يوحنا ١٣: ٢)، (متى ١٥: ١٩)، (غلاطية ٦: ٦)، (رومية ٥: ٥). القلب مستودع الاهواء، كما هو اناء النعمة الإلهية. لكن هذا لا يعني أن الله والشيطان يتعايشان (coexist). وهكذا فالمعركة الكبرى تجري على جلبة القلب. هناك تعتلن نصرة المسيح وتقهقر ابليس. القلب هو المركز الروحي[1] والشهواني[2] والعضوي[3]. وعلامة اكتشاف القلب هي التهابه بالروح، وتفجّر الأشواق الإلهية فيه (لوقا ٢٤: ٣٢)، (يوحنا ٤: ١٤). العهد الجديد يُحفر فينا بنقاوة القلب. القلب سماء تنسكب فينا، فتهبنا عربون الروح (٢ كور ١: ٢٢). القلب نطاق انبلاج النور الإلهي (٢ كور ٤: ٦). فيه نقتني بنوّتنا لله (غلاطية ٤: ٦). انه عين ترصد أسرار الله (افسس ١: ١٧ - ١٨)، واطار تذوّق السلام الإلهي (كولوسي ٣: ١٥). انه قيثارة الروح، يعزف عليه وبه ألحان الله (فيلوكاليا ٤ - ص ٢٩٦).

في القلب يدوّن الله تعاليمه (tenets) ونواميسه. انه لوحة الوصايا الإلهية. معرفة الله مستحيلة خارج القلب (رومية ٢: ١٥). القديسون حووا الله في قلوبهم، فعرفوا ناموس المسيح، وصاروا في ذهن المسيح، والمسيح صار ذهنهم (١ كور ٢: ١٦) (مكسيموس المعترف، فيلوكاليا ٢ - ص ٨٥ - ٨٦).

اللاهوتيون هم أناس يكتب المسيح على لوحة قلوبهم. هذه هي الرؤية الأرثوذكسية للعقائد (بطرس الدمشقي - فيلوكاليا ٣ - ص ٦٨). فالعقيدة هي إعلان حياة يسوع مدوّنة بصيغة مثبتة (dogma). انها كشف حياة الله بعد أن يكشفها هو لنا. اللاهوتي هو وعاء الروح القدس ومستودع المعرفة السماوية.

(١) الروحي: metaphysical
(٢) الشهواني: paraphysical
(٣) عضوي organo-biological

مرض القلب:

هل يمرض القلب؟ كيف؟

يمرض القلب عندما يهمل ناموس المسيح ويتمسك بأحكام ابليس. عند القديس نيقوديم الآثوسي تعبير- قد يكون من صنعه - يصف به ذلك: القلب يمرض عندما يصبح الانسان (حاملاً للشيطان)[1] بدل أن يكون خريستوفوروس[2]. يدخل الشيطان إلى القلب ويعشش فيه. بعد ذلك تبدأ الظلمة وصريف الأسنان.

يهوذا الاسخريوطي عرف هذه الحالة (يوحنا ١٣ : ٢). كيف يصير القلب في الضلال؟ عندما يهمل الحياة التي من فوق، متمسكاً بالتي أسفل. التوبة تكون بالمسيرة المعاكسة (٢ كور ٣ : ١٥). القلب بقساوته يصبح مطية ابليس، فيهلك الإنسان (رومية ٢ : ٥). الناس سيدانون لقساوة قلوبهم. الله يمج غليظي القلوب (عبرانيين ٣ : ٨). والرب صادف قساوة قلوب كثيرين (مرقص ٦ : ٥٢)، (مرقص ٨ : ١٧)، (مرقص ٣ : ٥).

مرض القلب يبدأ بنجاسته. عند القديس نيكيتا ستيثاتوس نجد أن مرض القلب ليس بالتعرض للأفكار السمجة وحسب، بل بالنفخة أيضاً (الكبرياء). المرض يبدأ بالكبرياء. الكبرياء أساس السقطة. القلب يمرض عندما يعبد الخلائق محجماً عن عبادة الله. المرض يبدأ بانتفاء استقامة القلب (أعمال ٨ : ٢١).

والقلب مدعو إلى البساطة التي هي غياب الدهاء والخبث والشر من القلب، مشفوعة بمحبة المسيح من كل القلب (الارشمندريت صوفرونيوس، القديس سلوان - ص ٥٣). القلب يمرض عندما تستهويه الملذات (hedonistic). ومرض القلب يستشري، ليطال الإنسان كله

(١) Diaboloforefs
(٢) حامل المسيح.

جسماً ونفساً معاً psycho - somatic. لا بد للقلب أن يتعافى، كما تعافى جسد لعازر من نتانته بقوة المسيح. لا بد للمريض أن يشفى ويتعافى. كيف؟

شفاء القلب:

إن أسمى الغايات هي معرفة الله. إنها أرقى المعارف وأدقها. لا ضلال في معرفة الله Theognosia. سائر المعارف تقوم على امكانية الضلال والانحراف. أما معرفة الله فتعصم عن الخطأ والضلال.

إن معرفة الله تقوم على العمل والثيوريا كما نسمع في تراتيل الكنيسة. والرب يغبّط ذوي القلوب النقية (متى ٥ : ٨). ما هي أدوية الشفاء؟ الدواء الأول هو التوبة. التوبة هي عودة الكيان إلى الاحضان الأبوية. إنها أن نحيا بمقتضى الصورة الإلهية، لنصبح على مثالها. وتنمو التوبة بالانسحاق (contrition). داود الإلهي يقول: «القلب المنسحق والمتواضع لا يرذله الله (مزمور ٥٠). ويقوم الانسحاق على أصعدة كثيرة: جسداً ونفساً وروحاً. انه حياة في العمل والثيوريا (. . . . . فبلغت بالعمل المرقاة إلى الثيوريا أيها اللاهج بالله . . .). ويقوم الانسحاق على السهر sobriety والصلاة والصبر كما يعلمنا القديس مرقص الناسك (فيلوكاليا ١ ص ٦٧).

القديس فيلوثيوس السينائي يرى أن انسحاق القلب غير ممكن بدون الاقلاع عن الفكر الدنيوي والتسلح بذكر الموت وبذكر اسم الرب يسوع. وهذا يكون بالتأمل في هشاشة الذنوب والخطايا، بالتدريب على ذلك منذ الطفولة (فيلوكاليا ٢ - ص ٢٧٧). انسان الشهوات لا يعرف الانسحاق، وهو غريب عن التوبة. ويبلغ الوصف الابائي للانسحاق مرحلة رفيعة، عندما يقترن بالدموع (راجع كتاب ميرا لوت بوردين - سر عطية الدموع - منشورات النور). انسحاق القلب لا يحصل بدون المسيح. لا انسحاق بدون مخافة الله. يجب أن يتوجّع القلب كي يرتشف الانسحاق الإلهي. لا

غنى عن توجّع القلب في مسيرتنا إلى الخلاص. الإنسان المعاصر يتربى على معايشة الشهوات واستحلابها، لهذا فهو يمج التوبة ولا يقوى على احتمال شروطها، وهذا طبيعي فملكوت الله يؤخذ عنوة، يغتصب (متى ١١: ١٢). وكتاب الأعمال يؤكد ذلك: (أعمال ١١: ٢٢).

القديس ثيوفان الحبيس يؤكد أن لا خلاص للإنسان بدون نزول الذهن من الدماغ إلى القلب (الرياضة القلبية - ص ٨٧). تكلمنا سريعاً عن دور الدموع. ترى ما هي قيمتها؟

المسيحي انسان يبكي: (اسحق السرياني - النسكيات). الدموع معمودية تلي المعمودية[1]. لا غنى عن الأولى لتحيا الثانية. الدموع علامة وعي الإنسان لهشاشته. الدموع تغسل عيون النفس (الأب ارسانيوس). القديس سمعان اللاهوتي الجديد هو لاهوتي الدموع. الدموع عنده علامة على سكن الأبدية فينا. الدموع رفيق الدرب. فكما أن الطفل يأتي إلى العالم وهو يبكي، هكذا المسيحي، لا بد أن يبكي كي يدخل عالم الله ويطأ رحابه. الدموع هي السبيل إلى الفرح الحقيقي (متى ٥: ٤). الدموع تغسل النفس من ادرانها (فيلوكاليا ٤ - ص ٢٥٥). الروح لا ينزل إلينا إلا بعد دموع (اسحق السرياني). غاية الدموع هي التطهّر من الاهواء بتنقيتها وتجليها transfiguration. لا دموع بدون نيران الروح القدس (لوقا ١٢: ٤٩). (لوقا ٢٤: ٣٢)، (١ كور ٤: ٥)، (٢ بطرس ١: ١٩) (عبرانيين ١٢: ٢٩). الشيطان يتبدّد أمام الباكين بالروح (يوحنا السلمي). الصلاة النقية هي وليدة الدموع. انطونيوس الكبير يطالب أولاده أن لا يخمدوا نار الروح، إذ لا نور بدون نار. القديس ذياذوخوس يتبحّر في الكلام عن حرارة القلب.

تبدأ الحرارة الروحية بحرارة في الجسد. لا نهضة روحية خارج الجسد. المسيحية ليست ديانة طوباوية utopian. انها واقعية كواقعية

(١) metabaptismal

الوجود. الحرارة المعنية هي من فعل الروح القدس (ثيوفان الحبيس). الحرارة الحقيقية مجانية. انها هدية الله لمن أكلهم العشق الإلهي. ما هي ثمار هذه الحرارة؟ السلام (لوقا ٢٠: ٢٠ - ٢١)، (سلامي أعطيكم ليس كما يعطي العالم سلاماً) (يوحنا ١٤: ٢٧). من ثمارها أيضاً: الحرية من بطش الأهواء، هدوء الجسد، انسجام بين الجسدي والروحي. تنقية القلب وشفاؤه بفعل حرارة الروح، فيعاين الله (متى ٥: ٨)، (يعقوب ٤: ٨)، (١ بطرس ١: ٢٢). الصوم، الامساك، السهر، وكل الأتعاب الجسدية الأخرى، لا معنى لها بدون هذه الحرارة، فالنسك الجسدي تمهيد للنسك القلبي. وبدون الثاني، لا يبدأ الأول. بين النسكين جدلية دقيقة ورائعة. نحن نجهل متى يكون النسك جسدياً ومتى يكون قلبياً. الأمر أشبه بالبيضة والدجاجة، فكل منهما يولّد الآخر. ترى كيف يكون القلب النقي؟ القلب النقي لا يعكر صفوه هوى، فهو عالق بالأبدية، وفيها يتأمل (القديس سمعان اللاهوتي الجديد). القلب النقي مغلق أمام الرجاسة وكل نجاسة. كيف نبلغ النقاوة القلبية؟ يقول القديس غريغوريوس بالاماس: قوة النفس هي في الأفكار logismos، وجوهرها في القلب. فلا نقاوة إلا تلك التي تغمر كل قوى النفس. انها النقاوة في العمل والثيوريا معاً (فيلوكاليا ٤ - ص ١٣٣). قوة الصلاة لا يستهان بفعلها على توليد النقاوة (فيلوكاليا ١ - ص ١٤٥). ما هي نتائج النقاوة؟ انها عديدة: ١ - الهدوء القلبي (hesychia of the heart) (كولوسي ٣: ١٥). ٢ - حياة مسيحية رصينة في العمل والقول والثيوريا. ان شفاء القلب هو الخلاص بعينه.

النفس

ما هي النفس؟ إنها واحد من أدق المواضيع وأصعبها في الكتاب المقدّس وفي الأدب المسيحي. انها (نفش) في العبرية، و(بسيخي) في اليونانية، و(أنيما) في اللاتينية. هي مرادف للنَفَس والتنفس ومرادفة للحياة. إذ «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه» (مرقص ٨). أية فائدة نجني إذا ربحنا الكل وخسرنا حياتنا؟

لقد ظن القدماء ان النفس متموضعة (Localized)، فأدى بهم اعتقادهم إلى اعتبار الجسد سجناً لها، وان خلاصها يقوم على التحرر منه، وبالتالي فهي لا تنعتق إلّا بموت الجسد. وهذا يعني ان الجسد ثانوي بالنسبة إليها، وهي غير ركيزية بالنسبة إليه، فموت الجسد واجب لحياتها وانعتاقها. الجسد سجن النفس قول افلاطوني لا قيمة له مسيحياً على الاطلاق. انه تعليم غير مقبول. مقولة افلاطون هذه، هي هرطقة من الوجهة المسيحية. فالمسيح يسوع جاء بالجسد. المسيحية ديانة التجسّد. الصوم، صوم في الجسد. من زاوية افلاطون ليس للجسد دور في نهضة النفس، سوى أن يموت. والقديس غريغوريوس بالاماس يعلّمنا في كلامه عن الصوم، ان جهد الجسد ينعكس حياة في النفس. الجسد يخدم النفس. لماذا نصوم في الجسد عندما لا يكون له دور في حياة النفس؟ ان الصوم في الجسد عندما لا يتوخى شفاء النفس هو ضرب من الانتحار ودعوة إلى موت بطيء يتوقف بنهاية الصوم.

ليست النفس القطاع الجسدي من الانسان، فهي لا تموت بتوقّف حركة الجسد، ولا تنتهي بموته (انجيل لعازر والغني لوقا ١٦). النفس لا تنحصر بحدود القطاع الروحي (spiritual section)، والاّ كيف يحيا

الجسد؟ ان حياة الجسد علامة على وجودها فيه[1]. النفس هي الانسان بكليته (رومية ١٣ : ١). الجسدي والنفسي لا ينفصلان. فلو كان بين النفس والجسد استقلالية، لمات الجسد. الجسد بالنفس يحيا، والنفس بالجسد تعبّر عن وجودها وذاتيتها. الانسان نفس وجسد (متى ٢ : ٢٠). الفصل بين الجسد والنفس امر عسير ومستحيل. فمقاربة النفس للجسد، ليست كمقاربة الزيت للماء في كوب صغير. الاندماج بين النفس والجسد لا يُسبر غوره ويستحيل الدخول إلى كنهه بشرياً (٢ صموئيل ١ : ٩).

النفس حياة الانسان (تك ٣٥ : ١٨). بهذا المعنى نفهم قول الملاك ليوسف خطيب مريم: «. . . . . قم وخذ الصبي وأمه واذهب إلى أرض اسرائيل فقد مات طالبو نفس الصبي. . . .» (متى ٢ : ٢٠). بالموت تفيض النفس وتطير (ارميا ١٥ : ٩). انها تنسكب (أشعيا ٥٣ : ١٢). بالقيامة ترجع (١ ملوك ١٧ : ٢١). يستحيل فصل النفس عن الجسد وفصل النفس عن الدم (مزمور ٧٢ : ١٤). النفس في الدم (لاويين ١٧ : ١٠ - ١١)، دون أن يعني هذا انها موضعة. انها الدم الانساني ذاته (لاويين ١٧ : ١٤) و(تثنية ١٢ : ٢٣). وسنعود إلى هذه المسألة في كلامنا على الدم والنفس. في انجيل يوحنا يقول الرب: «انا الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف. . . .» (يوحنا ١٠ : ١١). يسوع، الراعي الصالح، يبذل نفسه كلها عن خرافه كلهم وبكليتهم. ويقول ايضاً الرسول بولس في رسالته إلى أهل رومية: «سلموا لي على بريسكلا وأكيلا اللذين عرّضا نفسيهما للموت من اجلي. . .» (رو ١٦ : ٤). في الكتاب المقدس ينتقل معنى النفس من (حي) إلى (حياة) كما يدل الاستخدام المتوازي للفظتين: «لا تسلّم إلى الوحش نفساً معترفة لك، ولا تنسى حياة بائسيك. . .» (مزمور ٧٤ : ١٩). كذلك يمكن ان تترجم إلى (حياة بحياة) (خروج ٢١ : ٢٣).

وعليه، فالنفس في الكتاب الالهي، هي جوهر مباين للجسد وقائم

(١) ٢ صموئيل ١ : ٩، اعمال ٢٠ : ١٠.

بمعزل عنه، رغم وجودها فيه. والرب يعبّر عن هذا صراحة بقوله: «لا تخافوا الذين يقتلون الجسد بل الذي يهلك النفس والجسد في جهنم» (متى ١٠: ٢٨). نلاحظ هنا ان كثيرين يقدرون ان يقتلوا الجسد، أمّا النفس فواحد فقط يقدر ان ينهي وجودها. والرب وحده فقط يقدر ان يميّز بين ما هو نفس وما هو جسد (متى ١٠: ٢٨). النفس كيان يمرض (١ سا ٥: ٢٣). لكن رغم هذا فليس في الكون ما يقوى عليها. فهي تبقى حتى بعد موت الجسد (رؤ ٦: ٩). إنها خالدة لكن بالنعمة لا بالطبيعة. وخلودها هدية من الله.

تعتبر النفس مبدأ الحياة، فيخشى الناس فقدانها (يشوع ٩: ٢٤)، (أعمال ٢٧: ٢٢)، فيرغبون في انقاذها من براثن المنون (١ صموئيل ١٩: ١١)، (مزمور ٦: ٥). الناس يرغبون في هنائها وديمومتها (لوقا ٢١: ١٩)، فيهلعون عندما يهددها الموت (رومية ١١: ٣)، (١ ملوك ١٩: ١٠)، (متى: ٢/ ٢٠)، (خروج ٤: ١٩). والحق ان اهتمامنا بنفوسنا، ينبغي الاّ يبلغ حد الغلو والتفريط (متى ٦: ٢٥)، فلا بد لنا من الوجهة الروحية، ان نجاذف بها (فيليبي ٢: ٣٠)، فنسكبها حباً من اجل احباء الرب (١ سالونيك ٢: ٨). علينا أن نبذل ذواتنا لنحيا (يوحنا ١٣: ٣٧)، (يوحنا ٣: ١٦).

العلاّمة اوريجنس تكلّم عن الوجود المسبق للنفس Pre existence. فاعتبر المجمع المسكوني الخامس في مادته رقم ١١ ان كل من يحمل تعليم اوريجنس في الوجود المسبق للنفس، هو مبسل (محروم). وفي الواقع ينقسم العلماء في نسبة اوريجنس أو إضافة ذكر اسمه في المادة ١١. ورغم هذا فهناك خمسة عشر ابساًلا اخذت ضد اوريجنس في المجمع المذكور. للاستزادة راجع أعمال المجمع المسكوني الخامس - ص ٤٧٣ من كتاب مجموعة الشرع الكنسي. لقد تطرأ الاباء القديسون لا سيما انسطاسيوس السينائي إلى هذه المسألة فاعتبر باختصار أن وجود النفس ملازم لوجود الجسد، فلا هي قبله، ولا هو قبلها.

النفس هي مبدأ الحياة، والروح هي ينبوع الحياة. وكلمة الله هي

التي تميز النفس والروح في أعماق الإنسان (عبرانيين ٤: ١٢). النفس يمكن أن تموت، أمّا الروح فلا يمكن أن تموت (أيوب ٣٤: ١٥)، (عدد ٢٣: ١٠).

النفس والدم

الإنسان في المسيحيّة من لحم ودم (سيراخ ١٤: ١٨)، (متى ١٦: ١٧)، (يوحنا ١: ١٣). المسيحية ديانة التجسد (عبرانيين ٢: ١٤).

للدم أهميّة كبرى في الطقوس القديمة، فهو يقدر ان يكفّر عن النفس (لاويين ١٧: ١١). اليهوديّة بدورها تجعل للدم طابعاً قدسياً، فتوازي بينه وبين الحياة (لاويين ١٧: ١١)، (تثنية ١٢: ٢٣). الأدب العبري اعتاد أن يربط بين النفس والدم، فالفصل بينهما صعب وعسير على حد قول كاتب المزامير (٧١: ١٤)، وكاتب اللاويين (لاو ١٧: ١٠). ويزيد سفر التثنية على ذلك فيقول بأن النفس في الدم (تثنية ١٧: ١١). الاّ انه في (١٧: ١٠) يفرّق بين الأمرين.

ان هذه الذهنية والنظرة إلى مفهوم النفس والدم، قد تكون هي في الغالب وراء الامور التالية:

١ - تحريم القتل
٢ - الامتناع عن الدم
٣ - استعمال الدم في العبادة

فالله سيحاسب كل من يقتل انساناً (تك ٩: ٥)، (خروج ٢٠: ١٣). في العهد القديم يصرخ دم الضحية مطالباً بالثأر (تك ٤: ١٠)، (٢ صموئيل ٢١: ١). العهد القديم من خلال ذهنية كتّابه، يقرن بين الدم والحياة. هكذا هي الرؤيا اليهودية (لاويين ٣: ١٧). ونلاحظ في أعمال الرسل أن تأثير العهد القديم ما زال قائماً حتى ذلك الحين وذلك لضرورة تدعو إليها البشارة. إلا اننا مع بطرس (١ بطرس ١: ١٩)

نلاحظ أن العهد الجديد يضع حداً لكل أدوار الدم في الطقوس فيجعل النظرة على نحو آخر. يسوع يعطي للدم الزكي كرامة بدءاً من دم هابيل... (متى ٢٣ : ٢٩). دماء التاريخ كلها صار لها كرامة عند يسوع، اذا كانت زكية. يهوذا الاسخريوطي يُدرج يسوع في قائمة أصحاب الدماء الزكية (متى ٢٧ : ٤). في القداس الالهي يصبح للجسد والدم الالهيين قيمة مركزية (١ كور ١٠ : ١٦). فبالجسد والدم يخبر المؤمنون بموت الرب ويبشرون بمجيئه (١١ : ٢٦). فدم يسوع يغفر الخطايا (عب ٩ : ١٨ ـ ٢٨). انه أعظم من دم هابيل. الشيطان نفسه يغلب بدم المسيح (رؤ ١٢ : ١١).

شهود يهوه يزعمون أن نفس الانسان في دمه، وحجتهم تنبع من توازي الحياة والدم في الفكر العبري، ومستمدة من آية لا تقدم ولا تؤخر، كونها تشير إلى الحيوان، ولا معنى لتطبيقها على الخليقة العاقلة: «لكن اياك ان تأكل الدم فإنه نفس، فلا تأكل النفس مع اللحم....» (تثنية ١٢ : ٢٣ ـ ٢٦). وكي تكون النفس في الدم، بحسب مفهوم شهود يهوه، فهذا يعني انها تنقص بنقصانه، وتزيد بزيادته. وما دامت النفس في الدم، فهي تموت بهدره. النفس مائتة لا محالة. تكون النفس بحسب هذا المفهوم مجرد مادة، تنتقل وتدور في الجسم ما دام الجسد على قيد الحياة. ولكن كيف نقبل ان النفس تموت بهدر الدم أو توقف القلب عن الحركة، طالما أن الكتاب يعلّمنا ببقائها بعد موت الجسد (لوقا ١٦ انجيل لعازر والغني)؟ في هذا الانجيل نسمع الغني الخاطئ يتكلم مع ابراهيم. كيف يتكلم خارج الجسد ونفسه ميتة؟ كيف تصلي النفوس بعد موت اجسادها (رؤيا ٦ : ٩ ـ ١١)؟ كيف تموت النفس إذا كان الكتاب الإلهي يحضّنا على بذلها كي نحيا (يوحنا ١٣ : ٣٧)، (يوحنا ٣ : ١٦)؟ هل تموت النفس مرتين، الأولى بتوقف الحياة في الجسد، والثانية بأمكانية قتلها على يد الله إذا كانت شريرة؟ كيف تموت النفس بتوقف حركة الجسد، إذا كان الخلاص ينتظرها حسب وعد الرب (متى ١٠ : ٢١ ـ ٢٢)؟ النفس كيان لا مادة. والكلام عن تموضعها في الجسد هراء، سواء أكان ذلك في الدم أم في القلب...

وعليه، فإن وجود النفس في الدم حسب تعليم شهود يهوه يجعل نقله في حالة الحاجة أو العملية الجراحية امراً خاطئاً مغلوطاً. فالنقل سيعني اذ ذاك انسكاب الشخص في دم الشخص المراد نقل الدم إليه. ويكون بهذه النتيجة أن يصبح من يتقبل الدم ذا شخصيتين. ويمكنه ايضاً أن يصبح أكثر ذكاء أو أقل ذكاء إلى ما هنالك من الأمور الحاصلة نتيجة امتزاج شخصيتين. لقد وجد شهود يهوه ضالتهم في السيدا مرض العصر.

لقد وجد شهود يهوه في هذا المرض المعاصر ضالتهم المنشودة. فالسيدا بالنسبة إليهم دعم وسند، يؤازر عضدهم ويشد أزرهم. وقد شرعوا في الآونة الأخيرة يسترسلون في الكلام عن السيدا في معرض حديثهم عن الدم والمسائل المتصلة به. ففيروس السيدا يمكن انتقاله بالدم. وهكذا يكون الشهود قد زرعوا الخوف في قلوب الناس، بينما ما يزال الطب يرى في نقل الدم بنداً اساسياً من بنود العمليات الجراحية لا ضرر منها ولا طائل تحتها، يكفي أن تدرس عيّنة من الدم المراد نقله، لمعرفة فئته والوقوف على صحته وخلوه من كل جرثومة أو فيروس وسواهما.... صحيح القول أن الدم حياة ولكن الصحيح ايضاً أن الدم ليس هو الشخص. الدم مادة تحمل الحياة، ورغم هذا فالحياة لا تتموضع كتموضع الدم. لا قيمة للدم خارج الجسد، ولا يعيش الدم خارج الجسد. لا نقدر ان نقول بوجود النفس في الدم، فكلام كهذا يُنقص من الانسان وقدره لدى حصول نزيف. لقد خلط شهود يهوه بين نفس الإنسان ونفس الحيوان (راجع تثنية ١٧ : ١٠ ـ ١١). لقد اقتطعوا القول من سياقه (decontextualize). ومع هذا فالكتاب لا يزودنا ولا يطلعنا عن مسائل النفس على هذا النحو.

ما الغاية من الكلام عن وجود النفس في الدم؟

الغاية بسيطة جداً. إنها دعوة للتنكر لكل تعليم يتصل بالدم. غاية مقولتهم هي نسف سر الشكر وكل ما يتصل به (خذوا كلوا.... اشربوا منه كلكم...). لقد سبق لشهود يهوه ان اعتمدوا نفس الاسلوب عندما

تطاولوا على معمودية الأطفال باحثين عن مقاطع مبتورة من سياقها لهذا الغرض، وذلك لخلخلة النظرة إلى المعمودية ككل. وها هم اليوم يعمدون إلى اسلوب مماثل لضرب سر المناولة. ماذا يكون لب مسعاهم؟ أن الإنسان مادة وحيوان. لا رجاء له ولا قيمة. الإنسان عندهم ليس مخلوقاً على صورة الله ومثاله.

النفس كيان يمرض ويشيخ. كما أنه يمكن للنفس، إذا أراد صاحبها، أن تنمو إلى ملء قامة المسيح. النفس تتمزق بفعل الاهواء والخطايا والافكار. القديس غريغوريوس السينائي في كلامه عن النفس، يصف لنا حالاتها، من خلال الخبرة. ويرى في خلاصة تعليمه ان تقسيم النفس إلى: ١ ـ عاقلة. ٢ ـ غضبية. ٣ ـ شهوانيّة، إنما جاء نتيجة السقوط[1] (فيلوكاليا ٤ ـ ص ٤٣).

كيف تمرض النفس وتموت؟

تمرض النفس كنتيجة للسقوط. الانسان فقد بخطيئته الاتصال بالنعمة غير المخلوقة. أظلم النوس (الذهن) بانقطاعه عن النور. انتقلت الظلمة الداخلية الى الجسد، فدخل الموت الى الانسان. النفس خلقت عديمة الهوى، الا انها امتلأت بالاهواء بعد السقوط. صار الجسد شبيهاً بالبهائم. لبس الانسان الفساد والذل وصار كالبهيمة، اذ كل خطيئة نرتكبها، هي تكرار لخطيئة آدم. بالخطيئة الشخصية نذوق الظلمة والعدم.

ما هي الخطيئة[1]؟ انها خلل في عمل نظامنا البديع. الجسم السليم

(١) بالطبع نحن نعلم أن تقسيم النفس هذا هو أمر يقره الفلاسفة القدامى والعرب (ابن رشد، ابن سينا)، إلا ان الاباء القديسين لم يجدوا مشكلة في قبول مثل هذا التقسيم، فنظرتهم في النفس ليست فلسفية المنطلق.

(١) الخطيئة هي اساءة الى الله ونواميسه.

مشرق وحيوي، لكنه عندما يمرض يذبل ويتغير لونه وتموت فيه الحيوية الى ان يتعافى ويتماثل للشفاء. «غياب الشمس يأتي بالعتمة. وتراجع انوار المسيح يُظلم النفس (القديس ثيوليبتس مطران فيلادلفيا ـ فيلوكاليا ٤ ـ ص ٦). مرض النفس هو عشق الشرور. اما موت النفس فهو ارتكاب الخطايا والموبقات (فيلوكاليا ٢ ـ ص ٢١٥)، (افسس ٢ : ٥)، (١يو ٥ : ١٦)، (متى ٨ : ٢٢)، (١تيمو ٥ : ٦). النفس التي لا تعمل وفق ناموسها تموت. عند بولس، المائت هو الانسان الجسداني او النفساني (١كور ٢ : ١٤)، (١كور ٣ : ٣)، (الخطيئة الجدية ـ الاب رومانيدس ـ ص ١٣١). الانسان النفساني هو الذي لا يتبع الروح (المرجع نفسه ص ١٣١).

كيف تشفى النفس؟

التراث الابائي الباترولوجي يتمحور على المسيح من أجل شفاء النفس. ان صحة النفس وعافيتها تقوم على اكتساب اللاهوى. فالنفس المعافاة هي العديمة الهوى (apathes). كيف يرى الآباء السبيل الى شفاء النفس؟

التوبة هي اساس العلاج، والسبيل الى الشفاء. ما هي التوبة؟ انها طهارة الانسان من كل ما يشوّش علاقته بالله. يرى الاباء ان الطهارة تقوم على السيادة على الأفكار logismos. وضبط الفكر هو السبيل الى الحرية والنقاوة. النفس تشفى عندما تلتصق بالمحبة. وعند القديس مكسيموس المعترف، يقوم منهج الشفاء على المحبة لله وللقريب (اربعمئة قول في المحبة).

النوس

ان كلمة «نوس» بالغة الأهمية عند آباء الكنيسة القديسين. فتارة نرى وكأن النوس والنفس امر واحد. وتارة نرى النوس واحداً من قوى النفس. وطوراً نراه وكأنه عين النفس. وتارة نراه وكأنه جوهر النفس. وتارة نرى النوس وكأنه اليقظة اللامتناهية في الانسان الداخلي. القديس غريغوريوس بالاماس عندما يستعمل لفظة «نوس»، يقصد بها قوة النفس (الجزء الثاني، E.Π.E ـ ص ١٢٤). عند القديس يوحنا الدمشقي «النوس» هو انقى قسم في النفس (يوحنا الدمشقي، التعليم القويم ـ ص ١٥٢). فكما ان عين الجسد تتّسخ وتمرض، هكذا أيضاً تتسخ عين النفس (النوس)، وتمرض (متى ٦ : ٢٣). النوس عندما يخرج من القلب يبتعد عن الله فيمرض ويموت. وبموته تموت النفس.

حياة النوس:

عند القديس نيكيتا ستيثاتوس الانسان المخلوق على صورة الله يتمتع بنوس عديم الهوى (فيلوكاليا ٣ ـ ص ٣٢٦). النوس في الانسان يطمح الى الاتحاد بالله، لأنه على صورته. النوس كالنفس جوهر كثير القوى.

النوس هو جوهر النفس، اي القلب، كما يتبين من الكتاب. الرب يغبط انقياء القلوب، لأنهم لله يعاينون (متى ٥ : ٨). في القلب يعتلن الله. ومن القلب نأتي الى معرفة الله. وهكذا ففي القلب تحصل الاستنارة (٢ كور ٤ : ٦)، (افسس ١ : ١٧ ـ ١٨). الرب بعد القيامة فتح اذهان

الرسل ليفهموا الكتب (لوقا ٢٤ : ٤٥)، (الايوثينا الخامسة). انقياء القلوب لله يعاينون. يتضح من هذه الآيات ان الذهن والقلب واحد. وهذا ينسجم مع قول الرسول في (رو ١٢ : ٢). عندما يعود النوس الى الحالة الطبيعية[1] يجد انه سبب كل الاخطار الشريرة. لكنه عندما يهبط الى ما دون الطبيعي[2] ينسى كل ما له صلة بالله (المحبة، اللطف، الاحسان...). اما عندما يرتفع الى ما فوق الطبيعي[3]، يكتشف ثمار الروح القدس (فيلوكاليا ١ ـ ص ١١٥). نقاوة الانسان الداخلي تعني انه في الحالة الطبيعية (الفيلوكاليا ٣ ـ ص ٣٢٩). وعند القديس مكسيموس المعترف يكون النوس في النقاوة عندما يسود الافكار ويضبطها. الانسان الذي يسود الافكار logismos، هو في الحالة الطبيعية.

عند القديس بالاماس للنوس معنيان:

١ ـ الذهن هو النفس كلها.

٢ ـ الذهن هو احدى قوى النفس.

وغاية الحياة الروحية هي توحيد قوى الذهن في القلب. اذ ان جوهر الذهن هو في القلب. ان هذا الكلام يعني اولاً ان غاية الحياة الروحية هي توحيد النفس في القلب. فهناك، في القلب يرتع ملكوت الله (ملكوت الله في قلوبكم). الرب غبّط انقياء القلوب لأنهم لله يعاينون (متى ٥ : ٨). الله يعتلن للقلب النقي، وذوي القلوب النقية يعاينون الله (٢ كور ٤ : ٦) و(افسس ١ : ١٧ ـ ١٨). في لوقا نسمع: «عندئذ فتح ذهنهم (نوسهم) ليفهموا الكتب» (لو ٢٤ : ٤٥). اللفظة الكتابية في اليونانية ليست Dianeia بل Nous. ليست هي intellect، بل نوس. في الرسالة الى اهل رومية يقول الرسول الالهي بولس: «... لا تشاكلوا هذا الدهر، بل تغيّروا عن شكلكم بتجديد نوسكم، وذلك لتختبروا ما هي ارادة الله الصالحة المرضية الكاملة...» (رو ١٢ : ٢). عبارة «توبوا فقد اقترب

(١) Kataphysis
(٢) Paraphysis
(٣) Hyperphysis

ملكوت السموات»، فيها كلام واضح عن الذهن. فلفظة ميتانيا = توبة، وتعني ما بعد الذهن، او ما بعد النوس. اي ان التوبة[1] هي تجديد النوس (رو ١٢ : ٢). كذلك فالرب يقول: «انتم الآن ايها الفريسيون تنقّون الكأس من خارج، اما باطنكم فمملوء خبثاً واختطافاً...» (لو ١١ : ٣٩). وهذا يعني ان مضمون (لوقا ١١ : ٣٩) هو نفس مضمون (رو ١٢ : ٢). فتجديد الذهن وتنقية القلب امر واحد. وبالتالي فإن الآباء لا يميزون عملياً بين النوس والقلب، بين النوس والنفس، بين القلب والنفس. وهذا نجده واضحاً عند القديس مكسيموس المعترف في (الفيلوكاليا ٢ ص ٤٨). المسألة دقيقة وصعبة.

في الرسالة الى اهل كورنثوس يقول الرسول بولس: «لأني اذا كنت أصلّي بلساني، فروحي تصلّي، وأما نوسي (ذهني) فهوبلا ثمر. فما هو اذاً؟ اصلّي بالروح وأصلّي بالنوس ايضاً. ارتل بالروح، وارتل بالنوس ايضاً...» (اكور ١٤ : ١٤ ـ...). يتّضح من الآية ان للنوس قوى، وبالتالي له جوهر قائم بذاته. فالنوس Nous يرى الاشياء بوضوح. لذا فهو الذي ينبغي أن يتنقّى ليبلغ الى اداء دوره. اما العقل فهو الذي يعبّر عما يعاينه النوس. وهنا لا بد من ذكر امر يؤكده الاباء القديسون في معرض كلامهم عن الأب الروحي: الأب الروحي في مفهوم الكنيسة الارثوذكسية هو من عنده نوس طاهر، ويتمتع بالقدرة على التعبير عن معاينات النوس التي هي بطبيعتها رؤى ما ورائية hypernatural. وهذه الرؤى والمعاينات، لا توصف، ويتعذر النطق بها. ان كلام الاباء عن اليقظة وعن النوس هو كلام، يدور في النهاية حول أمر واحد (بالاماس، المجلد الثاني ص ١٣٢).

(١) التوبة metaneia ما بعد الفكر. كذلك فإن لفظة «عقلية» تعني Nootropeia طريقة الفكر او التفكير (mentality).

كيف مرض النوس؟

لقد اسوّد النوس (blackened)، بفعل سقوط الجدين الأولين. لقد أظلم وتشوّش ودبّ الفساد والاهتراء في كل ارجائه. لم يعد نقياً طاهراً تتجلى فيه صورة الله. ان اول حرب يشنّها ابليس ضد الانسان، هي حرب ضد النوس. فإضعاف النوس واستعباده، يؤول الى مرضه وتفكك وحدته. ان مرض النوس هو نفسه مرض النفس. وشفاء الاول هو نفسه شفاء الثاني. وبالفعل، فقد ابتعدنا عن تراث ابائنا حتى اننا بتنا نسمّي مرضنا الروحي، مرضاً عقلياً. سنرى بعض جوانب هذه المسألة عند كلامنا عن الأبوة الروحية.

شفاء الذهن من مرضه يقوم على سجنه بغية حمايته من هجمات الافكار، ومن ثم لتقويته امام المد الشيطاني. هذا ما يقوله القديس بالاماس في رسالته الى المتوحدة كسيني (Xenee).

ان اسوداد النوس يعرف عند ذياذوخوس فوتيق باسم عمى النوس (Tyflosis). يصاب النوس بالعمى عندما لا يعود يرى الامور بصفاء؛ عندما لا يعود يراها على حقيقتها. وفي حالة الغشاوة هذه، يصبح الذهن، انسان القلب، عرضة لهجمات الأفكار الشيطانية. ان انحسار الرؤية الداخلية وغيابها، هو الذي يجعل الذهن ضعيفاً. كذلك فإن وضوح الرؤية، هو الذي يجعل الذهن قوياً. المعاينة الصافية علامة قوة. اما الرؤية المشوّشة، فعلامة مرض وتفكّك. الصور الشيطانية الشريرة اذ تهاجم القلب المريض، فإنها تستبد به وترميه في حبائلها. والهجمات الشيطانية المتكررة من شأنها ان تجعل القلب مفككاً قليل اليقظة وغير دقيق في الرؤية، لا بل اكثر من ذلك، تجعله عديم الاحساس امام الفتور الروحي. والنوس متى ضربه المرض، يصبح عبداً لأمور هذا العالم (البار ثلاسيوس ـ الفيلوكاليا ٢ ص ٢١٩). كذلك فالذهن العائش بدون يقظة، يتيح للشياطين كل الفرص للإنسلال الى الاعماق. هذا ما يؤكده الكاهن ايسيخيوس في مقالته عن اليقظة (كتاب اليقظة والصلاة).

ان مرض النفس، الذهن، والقلب، ليست هي اصلاً الاّ فساده وظلمته واسوداده وعماه، وبالتالي عبوديته لأمور هذا العالم، وانخداعه بالصور الشيطانية. وأولى الخطوات نحو الشفاء، تقوم على ايقاف الهجمات الشيطانية، وايقافها يعني مقاومتها «اجعل يا رب حارساً لفمي...». هكذا تُفهم المقاومة، والتي لا غنى فيها عن العون الالهي. وهذا يستتبع الرقابة الدقيقة على الافكار logismos.

وتنسل الافكار الى العالم الداخلي بمباركة الاهواء. لهذا فأساس العمل الروحي، يقوم ايضاً على الامساك. يضاف الى ذلك (hesychia of heart) هدوء القلب (البار ايسيخيوس الكاهن، فيلوكاليا ٢ ص ١٦٧). ان الرقابة على الافكار مستحيلة بدون حفظ وصايا المسيح «فمن احبني حفظ وصاياي». ان هدوء القلب، الصلاة، المحبة، والامساك، هي اركان اربعة لا غنى عنها من اجل نهضة انسان القلب من كبوته وحضيضه. النوس يستنير باليقظة وعدم الغفلة (البار تالاسيوس ـ الفيلوكاليا ٢ ص ٢٠٧). كذلك فالقديس مكسيموس المعترف، يطالب المجاهد ـ في هذا الصدد ـ ان يتيقّظ على الدوام، ويلجم قواه الغضبية بالمحبة، فالضدد لا يُداوى الاّ بالضدد (فليوكاليا ٢ ص ٤٩). غاية الجهاد هي ان يعود النوس بقواه كلها الى القلب، ان تعود للانسان السلامة (integrity). وهذا يعني وجوب وجود ثلاثة تحركات بحسب القديس ذيونيسيوس الأريوباغي: ١ ـ التحرك الاول دائري، ويبدأ بحركة النفس نحو داخلها. في هذا التحرك تتوجه النفس نحو ذاتها وتستجمع شتات قواها لترفعها الى الله. هذا التحرك غير مخدوع، ولا يمكن ان يخضع لأي ايحاء شيطاني. ٢ ـ التحرك الثاني يسمّيه ذيونيسيوس: (حركة اللاهوت الايجابي): مؤدّاه ان النفس تبدأ بمعاينة الله في الطبيعة، فترتقي نحوه من خلال التأمل فيها. هذا التحرك (الثاني) قابل للانخداع deceivable، لأن الكثيرين من الناس المتعلمين، قد يصلون الى مرحلة السجود للكائنات ظناً منهم انها الله فيستبدلون الخالق بالمخلوق. ٣ ـ اما التحرك الثالث فيقوم على التحركين السابقين. والاباء القديسون يؤثرون التحرك الاول اذا اقترن بالصلاة القلبية.

لقد تعرّفنا سريعاً على بعض مناهج شفاء النفس. ترى ما هي النتائج التي تجنيها النفس؟ ما هي ثمار الشفاء؟ اول ثمار الشفاء هو اللاهوى، اي ان يصير الذهن عديم الهوى. ومن علامات الوصول الى هذه الحالة، شعور المرء بالفرح الالهي امام النكبات والاحزان. واللاهوى من شأنه ان يأتينا بالحياة التي هي من عطايا الروح القدس (نيكيتا ستيثاتوس ـ فيلوكاليا ٣ ص ٣٠٣). في حالة اللاهوى يستطيع الانسان ان يكتشف بقوة الله حيل الشرير ومناهجه (مرقس الناسك ـ الفيلوكاليا ١ ص ١٠٦). والذهن العديم الهوى يعاين الساميات، لأن جذوره واعماقه طاهرة نقية. عند مكسيموس المعترف، الله يجذب الذهن العديم الهوى، اليه، الى ذاته (فيلوكاليا ٢ ص ١٣) اللاهوتي بحسب الاباء، هو من بلغ حالة اللاهوى، فصار يتلهوت لأنه يعاين الله بذهن نقي.

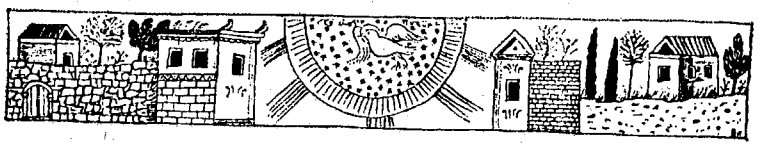

الاهواء

قبل ان يبدأ الانجيلي يوحنا بتقديم عجيبة يسوع المتعلقة بشفاء المخلع، يصف لنا بركة بيت حسدا، والحالة التي كانت قائمة عندها لدى مرور الرب. كان للبركة خمسة اروقة وجمهور غفير من المرضى ينتظرون تحريك الماء (يو ٨: ٣).

الكنيسة هي بيت حسدا العهد الجديد. المؤمنون اعضاؤها يسودهم الموت والفساد وما يرتبط بهما.

والذهبي الفم في تفسيره لهذا المقطع، يتساءل عن معنى بيت حسدا الكنيسة. الّا انه لا يجده الّا في جرن المعمودية. فالمعمودية هي حمام الاوساخ. من جرن المعمودية تنبع طهارة طبيعتنا ونقاوتها.

نحن نؤمن ان المعمودية هي مدخلنا الى رحاب الكنيسة. ونؤمن ايضاً أن الكنيسة هي بيت حسدا الروحية، ونبع الحياة. من اعماق جرن المعمودية تبدأ انوار النعمة الإلهية بانارة عالمنا الداخلي. من المعمودية تبدأ مسيرة شفاء طبيعتنا. ان هذا الكلام هو حقيقة يعرفها من اشترك في انوار نعمة الله التي وحدها تنعش الانسان الداخلي.

في المستشفيات عموماً هناك قسم خاص يدعى pathology. الكنيسة ايضاً هي قسم مماثل. انها عيادة باثولوجية. كيف لا تكون الكنيسة عيادة باثولوجية، مادامت الاهواء هي المرض[1].

إن قضية الاهواء عارض على وجودنا. انها من ثمار السقوط. لقد

(١) هوى تعني في اليونانية pathos، وتشتق من فعل pascho الذي يعني (أعاني) (اتألم).

نال القديسون الخلاص والعتق بالتطهر والتنقية، مقرونة بفعل النعمة الالهية (غلا ٢: ٢٠)، (رو ٩: ٢٣ - ٢٤).

سنحاول الآن ان ننظر في ناموس الخطيئة، فالاهواء هي سبب مأساتنا.

ـ الاهواء ـ

«الاهواء» في اليونانية، لفظة تشتق من فعل (pascho)، وتعني: (اعاني)، (أتألم). بالتالي فهي تشير إلى معاناة، أو مرض داخلي. عند القديس فيلوثيوس السينائي، يبدأ الهوى فكراً (logismos)، ليصبح خطيئة، فينتهي هوى pathos. عندما يطول مكوث الخطيئة أو الفكر الشهواني في النفس، تصبح هوى.

الرب، في الكتاب المقدس، تكلم عن الاهواء (متى ١٥: ١٧ ـ ٢٠)، (مرقص ٧: ٢٠ ـ ٢١)، (لوقا ٨: ١٤). الرسول بولس يعرف الاهواء ويدرك مقدار فعلها في القلب (رومية ٧: ٥)، (رومية ١: ٢٦). الاهواء تعكر صفو حياتنا وتنغص عمرنا وهناءنا وتقض مضاجعنا. ما هي الأهواء؟

لدى قراءة أعمال الآباء القديسين يتبيّن لنا أمران: ١ ـ الاهواء قوى دخلت إلى النفس ولا بد من استئصالها. ٢ ـ الاهواء هي قوى النفس وقد انحرفت عن اداء دورها بفعل السقوط. يتبيّن بعد هذا الوصف، أن الكلام عن الاهواء يدور في اطارين: ١ ـ الاهواء أمور دخيلة على طبيعتنا. انها مكتسبة (acquired)، أي انها لم تكن فينا عندما خلقنا الله. الله لم يخلقها. ٢ ـ الاهواء هي قوى النفس. أي انها موجودة في طبيعتنا منذ أن خُلقنا. انها قوى فطرية (innate). ترى كيف تكون الاهواء مكتسبة وفطرية؟ كيف تكون دخيلة ومتجذرة فينا؟ الخلاف على الاهواء: مكتسبة أم فطرية؟ الاهواء هي فطرية ومكتسبة. كيف؟ هل الله مصدر الشرور؟ هل هو نبع الشر حتى يخلق فينا ما يعكر هناءنا وحياتنا؟ الاهواء كما قلت، هي فطرية ومكتسبة.

الاهواء فطرية، لأنها قوى النفس. انها أجنحة النفس على نحو ما يعلّم القديس ذياذوخس فوتيكيس. وهي مكتسبة بمعنى أن عملها تغيّر بعد السقوط. عملها المنحرف، بفعل السقوط، هو الأمر المكتسب. أما وجودها ففطري. فيزيولوجيا الأهواء تبدّلت بعد السقوط. الله خلق لكل أمر في الوجود ناموساً يسير بموجبه. فيزيولوجيا الاهواء هي ناموسها. الفيزيولوجيا فطرية. مرضها هو المكتسب. الفيزيولوجيا هي قبل السقوط. أما مرضها فهو من نتاج السقوط. بهذا نفهم كيف تكون الاهواء فطرية ومكتسبة بآن.

الكلام عن فيزيولوجيا قوى النفس (الاهواء)، هو في العمق كلام عن النفس نفسها. وبالتالي فمرض قوى النفس هو كلام عن مرض النفس. النفس مريضة وقواها مريضة. مرضها كما أسلفنا هو خلل وعلة أصابت وظائفية قوى النفس، فمرضت النفس أيضاً من جراء مرض قواها.

الاهواء هي حياة النفس بعيداً عن ناموس الله وحياة الله ومحبة الله. من أين جاء مرض النفس؟ كيف دخلت الاهواء؟ كيف انحرفت قوى النفس؟ ماذا حصل؟ الأب صوفرونيوس في كتابه (حياته حياتي) يقول: «لا ندري ما حصل. لا نعرف تماماً ما الذي أودى بنا إلى ما نحن فيه. كارثة لا توصف حلّت بنا. . . .». لقد أظلمت النفس وعينها (النوس)، بفعل السقوط. القديس ذياذوخوس فوتيكيس يسمي السقوط «عمى»[1]. القديس مكسيموس المعترف يصف لنا شيئاً مما حصل فيقول: تولّد فينا روح الزنى، من طاقة الانجاب. وطلب اللذائذ، من المذاقة. دعينا إلى الكمال، فطلبنا المجد الفارغ. أعطينا الجوع لنحيا، فطلبنا الشراهة. . . الخ. السقوط قادنا إلى أبعاد مظلمة يتعذر وصفها.

---

(١) tyFlosis

الاهواء أصلاً، قوى النفس. إنها أسلحة زوّدنا الله بها كي نستمر، إذا أردنا، في السعي إليه. إلّا أن الخطيئة عرّتنا من أسلحتنا بتحويلها إلى صدورنا. نحن لا نعرف حالة الاهواء قبل السقوط. أي اننا لا نعرف عمل قوى النفس قبل الخطيئة. هل من يقول أو يخبّر؟ نعم ولا. لا، لأن الناس يجهلون ما كانت عليه حالتهم قبل السقوط. نعم، لأننا بيسوع بدأنا نعرف ما آلت إليه حالتنا، وما كنا عليه قبل ذلك. ماذا أخذ يسوع بتجسده في مريم العذراء من الروح القدس؟

يسوع بتجسده من مريم العذراء أخذ الطبيعة الانسانية بدون شخص. يسوع قنّم - (جعل بمثابة اقنوم) - الطبيعة الانسانية ساكباً فيها شخصه. صار يسوع اقنوماً للناسوت. لقد التأمت الطبيعتان الانسانية والإلهية في اقنوم الابن. يسوع هو اقنوم الطبيعتين. إلّا أن الوهة يسوع لم تصر بشراً، فالله لا يخضع لقاعدة الصيرورة. ما حصل هو أن يسوع كسى الألوهة جسداً إذا جاز التعبير. العذراء ولدت لله جسداً بإرادته، وبدون زواج. الجنس البشري يستمر بالزرع، وبالتالي فالفساد والموت يدخلان إلى الوجود مع كل ولادة. ما علاقة الفساد بالتناسل؟ يقول المرنم: «بالخطايا ولدتني أمي». ما معنى هذا؟ هذا يعني أن الانسان ينمو في تربة الخطيئة. الحياة مجبولة بالمآثم. ليس الفساد في الانجاب. الانجاب طاقة حيادية. الفساد هو في الارادة المريضة. يسوع بولادته من الروح القدس، صار آدم الثاني. آدم الثاني بدأ تاريخاً جديداً أحيا به آدم الأول.

ماذا أخذ يسوع بتجسده من مريم العذراء؟ لقد أخذ أهواء طبيعتنا غير المعابة. أخذ الجوع، العطش، النوم، التعب... لم يأخذ الخطيئة والاهواء المعابة. لم يأخذ فساد طبيعتنا. أخذ ضعفها لافسادها. أخذ الجوع لا الشراهة. أخذ غير المعاب وترك المعاب. قبل، استرد لذاته ما سبق أن منحه لنا. اقتبل ما قد سر به. كان غريباً بالكلية عن فسادنا. صار مثلنا بدون خطيئة. أي انه منحنا مثال السلوك نحتذيه في السبيل إليه. ما كان من الممكن أن تتعايش الخطيئة مع النقاوة الكاملة. ما كان من الممكن أن يساكن فسادنا الوهيته. لا مقاربة بين الماء والنار. مات،

حمل ضعفنا، لكن موته لم يكن نابعاً من خطيئته. لم يكن موته ثمرة خطيئة. عند بولس دخل الموت إلى العالم بالخطيئة (رومية ٥ : ١٢). لم يكن موت المسيح ثمرة خطيئة اقترفها. موت يسوع كان لإماتة الخطيئة (رومية ٦ : ١٠). مات يسوع لكي يصلب الانسان العتيق فيبطل جسد الخطيئة (رومية ٦ : ٦). كان موته ضرورياً لحياتنا (رومية ٦)، وذلك لأنه كان من المستحيل أن نحيا بدونه. كان من المستحيل الانتصار على الموت بدون اقتحامه وتفجيره، وهذا كان محالاً علينا، فعمله المسيح من أجلنا. إلا أن انجاز الرب يبقى بعيداً عن متناولنا بدون شوق متوثب إلى حياة المسيح.

الانسان ضائع بين عقل وعاطفة وشهوات. وليس غير صحيح التقسيم الكلاسيكي للنفس على أنها: عاقلة، شهوانية، وغضبية. المرض الروحي يضرب القوى العقلية بالكبرياء. التشامخ، حب المجد، طلب الشهرة... الخ كلها أمراض تخدر العقل وتأسره. الملذات الجسدية تستبد بالقوى العشقية والاشتهائية. أما الطاقة الغضبية، فيضربها حب الشرور والغضب والبغضاء. استخدام قوى النفس بخلاف نواميسها، يحول دون تحقيق الدعوة وبلوغ الله. الإفراط والمبالغة في اجهاد المعدة، يؤول إلى مرضها، بيولوجياً. الارتماء في الموبقات يلحق الضرر بفيزيولوجيا الجسم. العيش في عدم النقاوة، يجعلنا بعيدين عن الله. طلب الملذات يؤذينا على كل صعيد. المرض يأتي إلينا بفعل سوء الاستخدام. صارت الأهواء تولّد لنا الآفات والأمراض بفعل استعمالها على نحو خاطئ. بالسقوط فقدت حسن توجّهها. فبدل أن تكون أجنحة ترفعنا إلى الله، أخذت توجهنا إلى آلهة عديدة. وفي سعينا إلى الشفاء، لا نميت الاهواء، بل نرتقي بها ونهذبها. ليست الحياة الروحية دعوة إلى قتل الاهواء. هذا خطأ. في الحياة الروحية، نهذب الاهواء ولا نقتلها، نتعهدها ولا نميتها. اماتة الاهواء هي ضرب من الانتحار. انها لون من ألوان القتل. وهذا غير مقبول.

تقسيم الاهواء وتطوّرها:

مرجعنا في هذا الباب هو الكتاب المقدس أولاً، وكتابات الآباء القديسين ثانياً.

بولس الرسول يتكلم في رسائله عن الجسد. الانسان الجسداني عنده، محروم من فعل نعمة الروح القدس، وذلك لأن الجسد يشتهي ضد الروح، والروح ضد الجسد (غلا ٥: ١٧). ويسجل لنا الرسول أعمال الجسد (غلا ٥: ١٩ - ٢١).

وفي رسالته إلى أهل رومية يعالج الرسول الإلهي مسألة الأهواء والخطيئة أيضاً (رو ١: ٢٨ - ٣١). ونراه في رسالته إلى ابنه تيموتاوس يرشده ويوجّه خطاه (٢ تيمو ٣: ١ - ٥).

عند القديس مكسيموس المعترف، حب الذات، العجب بالذات، هو ام الاهواء، ونبع الخطايا. المعجب بذاته يحبها على نحو جنوني، ويعبدها أيضاً. وهكذا فهو ينبهنا من هذا الهوى وطغيانه. ثم يتكلم مطولاً عن ثمار العجب بالذات التي هي بالنسبة إليه أم ذات بنات كثيرات. العجب بالذات ابنته الثرثرة وكثرة الكلام والرياء والافتراء. حب المال من بنات العجب بالذات. المجد الباطل شقيق حب المال. بنات المجد الباطل هن الكراهية والحسد والنميمة. للعجب بالذات بنات أيضاً: حب البطن، الكبرياء، العجرفة، الاستبداد، الاحتقار، الشتيمة، الشطارة، التطرف، الغضب، العداوة، حب الشر، الوشاية، الحزن، اليأس، الجهل، الزنى، الضجر، اللذة.

عند القديس بالاماس، النفس الشهوانية تلد حب المال. والنفس العاقلة تلد حب المجد والشهرة. النفس الغضبية تنجب حب البطن. وحب البطن آفة وأم لها بنات كثيرات.

إن الفارق، بين أب وآخر في الكلام عن الحياة في المسيح والحياة في الخطيئة، ليس فارقاً على جوهر بل هو اختلاف في الأسلوب والنهج

والعبارة. إن وحدة الهدف ووحدة الموضوع هما أمران لا التباس حولهما في العرف البترولوجي الابائي. ماذا يقول الآباء في هذا الأمر؟

عند القديس يوحنا الدمشقي تنقسم النفس إلى ثلاثة: عاقلة، شهوانية وغضبية. خطايا القوة العاقلة هي: الشك والهرطقة والجهل (الغباوة)، التجديف، التفاهة. وخطايا القوة الغضبية هي: اللاشفقة، الكراهية، اللااحساس، الحسد، القتل. أما خطايا القوة الشهوانية فهي: حب البطن، التزلّف، الزنى، النجاسة، حب المال، حب المجد، طلب الغنى، الملذات الجسدية[1]. ويضيف القديس يوحنا ثمانية أخرى لاحقة تتداخل وتلد بنات كثيرات: حب البطن، الزنى، حب المال، الغضب، الحزن. الضجر، المجد الفارغ والكبرياء.

الاهواء عموماً تنقسم إلى: - جسدية - نفسية. للنفس اهواؤها كما للجسد اهواؤه. بعد السقوط بدأت النفس تغتذي بالاهواء (الميول الدنيئة)، بينما كانت قبله تغتذي بأنوار النعمة الإلهية. الجسد خرج على النفس وبدأ يغتذي بالدنايا. صار الجسد عطشانا إلى الملذات، يسيء استعمال الماديات ويستحلب اللذائذ. في هذا يكمن موت الجسد وموت النفس أيضاً. بالنسك تعود النفس إلى المسيح، فتفرح وتبتهج. بالمسيح يتقدس الانسان كله.

ورغم كل ما ذكر، فإنه من الصعب الفصل بين هوى وآخر، فالتداخل دقيق بين الاهواء، والجدلية الباثولوجية في منتهى الدقة، ويشير إلى ذلك الرسول الإلهي بولس في رسالته إلى أهل أفسس (٥: ٣ - ٥).

كذلك هناك تقسيم آخر للاهواء: ١ - رهباني. ٢ - أهل العالم.

---

(١) اما الملذات الجسدية التي بحسب تعليم القديس يوحنا الدمشقي، فهي: حب البطن، الشراهة، السكر، الزنى، الفسق، النجاسة، سفك الدماء، إفساد الصغار، تعذيب الحيوانات، الشهوات الدنيّة، انتهاك المقدسات، اللصوصية، القتل، الراحة الجسدية، محبة مشيئة الجسد عندما يكون معافى. وأخيراً وليس آخراً سوء استعمال الأمور الدنيوية.

حياة أهل العالم ليست هي ذاتها حياة العائشين في الدير. والاهواء التي تصيب أهل العالم، ليست هي ذاتها التي تصيب الرهبان. فظروف السابقين وأحوالهم، ليست هي ذاتها عند اللاحقين. أبناء العالم يستبد بهم هوى حب المال. أما الرهبان فيتعرضون للشراهة[1]. بعض هذه الاهواء تبدأ من الداخل وتتجلى في الجسد. وأخرى تبدأ من الخارج لتمتد إلى أعماق النفس تلك التي تبدأ من الداخل، منطلقة نحو الخارج، تصيب الرهبان. أما الثانية التي تبدأ من الخارج، لتغوص إلى أعماق النفس، فهي التي تصيب في العادة أهل العالم. أهل العالم عندما يدب بهم المرض، يصيبهم هوى الغضب والتجديف. أما الرهبان فيتعرضون لتجارب الشراهة والزنى إبان المرض. لكل ظرف وحال اهواؤه وحالاته وتجاربه. أما العائشون في البراري، فمعرضون لشيطان الضجر وعدم الرضى. إن هذا مرتبط بناموس الاهواء وبطبيعة فعلها في الظروف والأحوال المختلفة. وعليه، فالمرء لا يقبل عادة التجربة ذاتها، فالأمر مرهون بالظرف والحالة الروحية وطريقة الحياة وعوامل أخرى. الشيطان داهية الدهاة ويعرف كيف يحارب كل انسان بحسب حياته وحالته. إنه عدو متعدد الحيل[2].

قلنا آنفاً أن بعض الاهواء أمهات، وأخرى بنات. بعضها تولّد وبعضها الآخر يتولّد. لقد عرف القديس يوحنا السلمي أن الشراهة هي أساس روح الزنى، وأن حب المجد، هو أساس الضجر. وهكذا عندما يضربنا الضجر، ففي هذا علامة على اننا عالقون في حب المجد الفارغ. قساوة القلب تتأتى من اللااحساس. وعشق المحسوس يتأتى من الزنى وحب المال والمجد الفارغ وسواها. روح الشر يتأتى من الرضوخ لشيطان الغضب. الشر واللذة عملاقان كبيران في قائمة الشرور والاهواء المختلفة.

(١) طبعاً لا يُقصد هنا أن أهل العالم يجهلون تجربة الشراهة انهم خبراء فيها. إنما المقصود ببساطة، هو، أن لكل اطار تجاربه ولونه الخاص به. الانسان يعيش في الخطيئة لكن الخطيئة لا تضرب الجميع بنفس الطريقة.

(٢) poly mechanized

ويعلمنا القديس البار تالاسيوس ان الاهواء تتحرك فينا بفعل الذكريات، الحسيات، واللذة. ان من يبتعد عن المحبة الروحية يصير عبداً لهجمات ابليس. عندما تثور فينا خيالات اللذة، تنتفض الاهواء. من يتخلى عن الصوم والامساك، يقع اسير اللذة. واسير اللذة عبد لأسياد كثيرين، والرب يطالبنا بعبادة رب واحد لا اثنين (متى ٦: ٢٤).

ان عبودية النوس، تضرم في النفس نيران حب اللذة. والقديس يعقوب اخو الرب يصف هذه الحالة بشكل جميل فيقول: (لأن كل واحد - يُجرَّب اذا انجذب وانخدع من شهوته) (يعقوب ١: ١٤).

يرى القديس مكسيموس المعترف ان للذكريات دوراً رهيباً في غرس بذار الاهواء في تربة النفس، عن طريق تمريرها للنوس. ويبدأ مفعول الذكريات مع التراخي الحاصل بفعل التعايش بين الفكر (logismos) والنفس.

القديس بالاماس يرى ان حب اللذة هو بداية كل الاهواء الجسدية. والعصر الحاضر مميت على هذا الصعيد. وسائل الاعلام المختلفة لا تخلو من ذلك. الانسان المعاصر تنهال عليه تجارب اللذة على انواعها: النفسية منها والجسدية. ويتفق الاباء ان التقنية الشيطانية تقوم على هجوم، وقبول، ودفن، وتعايش، ورضى، ومسايرة، وتراخي، وضعف، وتردد، وسقوط، وعبودية. لكن هنيئاً لمن يثبت في الرب. ان الرضوخ للفكر الشرير ساعة الصلاة، يختلف عنه في غير ساعة الصلاة. الهوى الصاعق، هو رفيق قديم يرتاح في ثنايا النفس.

رهط الاباء القديسين هم اساتذة كبار في وصف النفس وحالات ضعفها وانكسارها، نهوضها ونصرتها. ما في جعبتهم من دقائق الامور، لا يرقى اليه كبار رجالات التحليل النفسي المعاصر. فتقنية الخبرة تتخطى تقنية التحليل والاستنتاج. ويبقى الكلام في هذا الامر واسعاً لا مجال له في هذا الباب، رغم ايماني بالعلم[1] ودوره.

(١) للمعرّب دراسة بعنوان (الابوة والتحليل النفسي)، يتناول فيها دقائق المسائل بين =

الى جانب نمو الاهواء وتطورها، ونمو الفكر الى الصيرورة هوى، هناك تطور آخر نتعلمه من حياة الآباء القديسين. ما هو هذا التطور؟ انه تطور الاهواء المرتبطة بأعمار الانسان المختلفة. القديس غريغوريوس بالاماس يتكلم عن نمو الاهواء بدءاً من سن الطفولة. في البداية تتطور اهواء النفس الشهوانية وأعني: (حب التملك وحب المال). الطفل يتفتح على حب التملك وبعد ذلك يطالب بالمال. بعد ذلك تنمو اهواء حب المجد. وهذه يمكن تصنيفها الى اثنين: حب المجد الدنيوي المتعلق بالاطلالة الجسدية (الهيئة، الجمال، الشعر، وسواها... وايضاً اللباس، والوانه، وتنويعه، وصرعاته). والثاني هو حب المجد الفارغ. بحيث ان الانسان ينزع الى الشهرة والوجاهة ويتمسك بالفضائل لعلة ومصلحة. في هذه الحالة تكون تصرفات الانسان على شيء من الرياء. وفي النهاية يبرز شيطان حب الملذات (الشراهة وسواها). ويغوص القديس غريغوريوس بالاماس الى اعماق النفس البشرية ليصف لنا حالاتها ومآسيها وكيفية خداعها وانخداعها. فيكلمنا عن ملذات الناس وافراحهم على صعيد الانجاب. الفرحة بالاولاد عند الكثيرين هي هوى طبيعي من شأنه اذا وقعنا في الغفلة ان يقودنا الى اهواء عديدة وخطيرة. من شأنه ـ بفعل الغفلة ـ ان يجعلنا عاجزين عن التمييز بين ما هو ضروري وما هو مرتبط بالملذات. ويطول الكلام لو أسهبنا. في الواقع يصعب التمييز بين اسباب الاهواء الجسدية وتلك النفسية، نظراً لدقة المسألة الباثولوجية. فما يتولّد عن هوى واحد، يصبح في ذاته مصدراً لأهواء عدة، وكل هذا لأن النفس البشرية شائكة ومعقدة بدرجة لامتناهية، ولأن الشيطان قادر على المناورة والاختفاء، مما يجعلنا عاجزين عن التدقيق في حركاته وما يتولّد عنها. الأمر دقيق للغاية، ويحتاج الشفاء من الاوجاع الروحية الى طبيب ماهر متجذر في الخبرة والحياة في المسيح، اهلٍ ان يكون بحق اناء للروح القدس كي يتمكن من تشخيص المرض ووصف العلاج الناجح.

= العلم والروح، تنشر قريباً في مجلة النور وتعالج امور العلم والتقنيات من منظار العلم الحديث والايمان. انا ارفض شفاء ينبع من مجرد تقنية، فلا خلاص الا بالمسيح (اعمال ٤: ١٢).

هذا يعرف باسم التمييز الذي هو واحد من مواهب الروح القدس. ما هي ضرورة فضيلة التمييز؟ ضرورة التمييز تأتي من معرفة الجدلية الدقيقة والمعقدة بين جملة الاهواء. بدون التمييز تتعذر معرفة ما يجري في عالم الانسان. فكثيراً ما تختلط روح الضيافة بالشراهة. والمحبة بالزنى. وروح الوداعة، بالخبث والدهاء. حب الهدوء، بالانا والضجر. العفاف، بالدناءة. أليس هذا يكفي لندرك خبث الشيطان ودهاءه؟ ان شيطان حب المال كثيراً ما يتمسكن بالتواضع. وشيطان حب المجد، بالصدقة والاحسان. ان شيطان حب المال، يحارب عديمي القنية بضراوة، وعندما يفشل معهم، يتستّر بروح الاحسان والصدقة، فيحث عديم القنية على الاهتمام بحاجات المساكين.

ان الانتصار على همجية الاهواء وشراسة الشياطين وضراوتها، يتطلب اناساً بلغوا التمييز وصاروا في اللاهوى.. فرجالات الله القديسين الذين بلغوا هذه الحالة، قادرون ان يدركوا حركات النفس ويصلحوا اعوجاجها بنعمة الروح القدس.

القديس مكسيموس المعترف يصف لنا بدقةٍ ماهية الهوى، فيقول: الشيء امر، وصورته امر آخر. فهناك على سبيل المثال: الرجل، المرأة، المال، الانجاب... الخ. الرجل امر وصورة الرجل امر آخر. المرأة امر وصورتها امر آخر. الانجاب امر، والزنى امر آخر. الانجاب خليقة الله، اما الزنى فخليقة الشيطان والانسان معاً. نحن نمقت الزنى ولا نزدري الانجاب. (الفيلوكاليا ٢ ـ ص ٣٣). القديس دوروثاوس في معرض كلامه عن الحياة الروحية، يميز بوضوح بين الاهواء والخطايا. الهوى سابق للخطيئة، والخطيئة برهان على وجود الاهواء.

الاهواء تعيق النمو الروحي وتخنقه. فكما ان العصفور المربوط من رجله لا يقوى على الطيران، هكذا الانسان المكبّل بالاهواء، لا يقوى على التحليق في الذرى الروحية. بذار الموت تغرسها الاهواء فينا. لهذا نقول بأن النفس المستعبدَة للاهواء تموت. الاهواء تعشش فينا فتجلب الألم والعذاب والمرارة. ان اجرة الاهواء، عذاب وموت. اما اجرة اتعاب

الفضائل فهي اللاهوى ومعرفة الله (مكسيموس المعترف ـ فيلوكاليا ٢ ـ ص ١٩). ترى كيف تتحرر النفس من الاهواء؟ كيف يكون الشفاء من الاهواء؟

الشفاء من الاهواء:

كثيرون منا يعرفون انهم مرضى. وعند الكثيرين احساس بالمرض الروحي. نحن نشعر بالمرض ولكن لا نفتش عن الدواء. الكنيسة تقدم الشفاء. انها نبع الشفاء. الكنيسة باب الشفاء من المرض.

الشفاء من الامراض، لا يعني الخلاص من الاهواء او التخلص منها. الشفاء من الاهواء، هو تجلي الاهواء وتنقيتها. ويقول الأب بيمن صراحة: (نحن لسنا قتلة الجسد بل قتلة الشهوات) (قال شيخ ـ ص ١٠١). ان قتل الشهوات لا يعني ذبحها بل تنقيتها، فقتل الشهوات يعني في النهاية تشويه الشخص، اما تنقيتها فهي نهضته وخلاصه.

ويعلّق القديس مكسيموس المعترف على هذا الموضوع، ليقول بأنه لا يشفي الانسان من مرضه سوى محبة الله. وعندنا كتابه (اربعمئة قول في المحبة) دليل على ان محبة الله هي علاج من المرض والموت. فالكتاب يصور لنا المنهج الى الشفاء من الاهواء والافكار والخطايا.

كذلك فإن الرسول بولس يقول في رسالته الى اهل غلاطية (٥: ٢٤): «لكن الذين هم للمسيح، فقد صلبوا الجسد مع الاهواء والشهوات». وأيضاً: «فالزنى وكل نجاسة وطمع فلا يُسمّ بينكم كما يليق بقديسين...» (افسس ٥: ٣)، (غلاطية ٥: ٢٦). شيء ما فينا يُصلب ليموت. انه البعد عن الله. وشيء آخر نتعهّده، لينمو ويثمر فنبلغ به الى ملء قامة المسيح. انه الانسان كله المخلوق على صورة الله والمدعو ان يكون على مثاله ايضاً.

الافكار Logismos

تعمل الافكار في القسم العقلي من النفس. وتحركها شهوات النفس بقصد استعباد النوس (الذهن). وغاية ذلك هي الوقوع في الخطيئة، وبالتالي، رفض الله. تطور الخطيئة يبدأ من الافكار. وهكذا فكل من يرغب بتنقية الانسان الداخلي، عليه ان ينعتق من سلطة الخطيئة وطغيان الافكار. لا حرية[1] للانسان، اذا كان عالمه الداخلي اسيراً للشهوات والأفكار والخطايا.

ويبدو الكلام في هذا الباب عسيراً بدون تحديد معاني بعض الالفاظ، الأمر الذي رأيته واجباً لهذا الكتاب. وسوف احاول ان اشرح في هذا الفصل معنى الافكار، ماهيتها، واسبابها وما يحرّض عليها وما ينتج عنها في الاطار الروحي. الموضوع هذا حي وحساس، فعليه تقوم الحياة الروحية، وايضاً الموت الروحي. وقد يكون من الواجب ان اقول ان فعل الافكار ينعكس على الجسد مخلّفاً نتائج بالغة التعقيد تطال الجسد والنفس معاً بأذاها وضررها psycho-somatic disorders.

ما هي الافكار؟

الافكار عند الآباء القديسين ليست مجرد (ideas)، فالفرق شاسع بين الأفكار (logismos)، والافكار (ideas). الأفكار، موضوع البحث

(١) ان الكلام عن حرية وتحرر وتحرير وما الى ذلك من مرادفات هذا المعنى، هو سخف وهراء في حضارتنا، فالحر الوحيد هو غير المستعبد لشهواته وملذاته. نقاوة الانسان الداخلي هي الشرط الاول للكلام عن حرية او تحرر.

الحاضر، هي اكثر من ideas، انها صور وخيالات. الافكار ذات الصور هي الافكار التي عليها وعنها يدور كلامنا (الارشمندريت صوفروني - الأب سلوان - صفحة ١٣٦، النص اليوناني). الافكار تداني الذهن (النوس) بشكل احاسيس يحركها الخيال والذاكرة بقصد ضرب الانسان الداخلي واذلاله واستعباده.

- عند القديس ايسيخيوس الكاهن كلام رائع في هذا الصدد. فهو يرى ان الناس يجهلون أن الأفكار logismos هي خيالات واحاسيس تتعلق بأمور دنيوية (الفيلوكاليا الجزء الاول - ص ١٦٥).

- والخيال المعني يلعب دوراً كبيراً في تشكّل الصور في داخلنا. الافكار هي مصوّر يصور في القسم العقلي من النفس صوراً مختلفة وخيالات. وهذه الصور هي ذكريات الماضي فينا. كان هناك اخ تحاربه ذكريات الماضي فكان يقول: «ان افكاري هي مجموعة من المصورين منها ما هو قديم ومنها ما هو حديث» (كتاب قال شيخ - ص ٦١). عند القديس غريغوريوس السينائي. «الافكار» هي معاني الاشياء (representations). وحركة هذه المعاني تتأثر بالاشياء الحسية القائمة (الفيلوكاليا الجزء الرابع - ص ٤٠). الشيطان هو الذي يستغل معاني الاشياء وصورها لإذلال الانسان. وهكذا فإن بعض الاباء اعتادوا ان يطلقوا على الافكار اسم (كلمات الشيطان). الافكار نهر جارف يصب في القلب ليغمره ويخنقه (فيلوكاليا الجزء الرابع - ص ٤٠).

- وفي معرض الكلام عن الافكار لا بد أن نعمد الى تقسيمها وتصنيفها كما يعلمنا القديس مكسيموس المعترف. القديس مكسيموس المعترف يصنف الافكار الى: بسيطة ومركبة. الافكار البسيطة هي العديمة الهوى والتي لا صلة لها بالاهواء. اما الافكار المركبة فهي ذات الصلة بالشهوات والملذات. ويحلل لنا القديس مكسيموس هذا الموضوع تحليلاً بديعاً مستخدماً المثال التالي: الذهب، المرأة... هناك شيء اسمه ذهب، وهناك شهوة الذهب. الفكر الروحي يتحرك بين مادة الذهب واشتهاء

الذهب بالرضوخ لفكرة الذهب... كذلك هناك المرأة وهناك الشهوات المرتبطة بها. وهكذا علينا ان نجاهد كي نفصل بين الشيء وهواه، وذلك لكي يبقى الفكر بسيطاً. وهذا يستحيل بدون محبة روحية وضبط نفس (الفيلوكاليا الجزء ٢ - صفحة ٣٣).

افكار الشهوات تحرك النفس الشهوانية، وتغيظ بفعلها النفس العاقلة والغضبية على السواء. (القديس مكسيموس المعترف - الفيلوكاليا ٢ - ص ٣٠).

- افاغريوس النبطي يتكلم عن افكار فاعلة تؤثر في الانسان، واخرى منفعلة تتأثر بسواها. الافكار الشريرة تؤثر على الصالحين، لكنها بدورها تتأثر بالناس الصالحين. مثال: محبة الغرباء حباً بالرب، قد يحركها فكر شيطاني ليحوّلها الى محبة تبغي مجداً زائلا دنيوياً. الاّ ان محبة الغرباء امر نقوم به حباً بالرب وبالفضيلة (الفيلوكاليا الجزء الاول - ص ٤٧).

يمكن ان يكون الفكر شريراً لكننا بالجهاد ونعمة الروح القدس نحوّله الى فكر صالح خيّر.

ما هي اسباب الافكار؟

عند القديس غريغوريوس السينائي يرتبط سبب الافكار بالسقوط (فيلوكاليا الجزء الرابع - ص ٣٩). قبل السقوط كانت ذاكرة الانسان بسيطة، اي انها كانت تخلو من الخيالات والصور والشهوات، وذلك لأنها كانت موجهة نحو الله. الا انها تشوهت بعد السقوط. ويعلمنا القديس ثالاسيوس ان اسباب الافكار ثلاثة: الاحاسيس - الذاكرة - نشوة الجسد. واخطرها هي الافكار[1] الناتجة عن الذكريات. القديس اسحق السرياني يعلمنا ان حركة الافكار تحصل لأسباب اربعة: - مشيئة الجسد الطبيعية - خيال الاحاسيس المادية المسموعة والمنظورة - انجذاب النفس - رابعاً

(١) (فيلوكاليا ٢: صفحة ٢٠٧)

هجمات الشياطين التي تحاربنا بكل الاهواء. وما دمنا في هذه الحياة، فنحن عرضة للافكار. الافكار ترافقنا حتى الموت. الحرب تبقى مادام المرء حياً (النسكيات ـ سالونيك ـ ١٩٧٧ ـ ص ٣١٩).

السبب الاساسي للافكار، هو حرب الشيطان. ان اغلب الافكار شيطانية. وغاية الشيطان هي ان يقودنا الى الخطيئة بالفكر والعقل معاً. لقد جرب الرب نفسه، لكن عبثاً. الشياطين تطلب هلاك نفوسنا وتحصل على مبتغاها بالافكار. عندما يقبل الانسان الشر، يتعاطف مع الخطيئة. وعندما ينفذ مشيئة الشيطان، ويرضي ذاته، عندها يخطئ بالعقل. الشياطين تنشر الافكار على الدوام، وذلك كي تخضع النوس وتذلّه. القديسون يعرفون بذار الشياطين، فيعلموننا كيف يكون رفضها وتجنبها (كتاب قال شيخ ـ ص ٦).

عند القديس غريغوريوس السينائي الافكار هي كلمات الشياطين. الفكر يأتي قبل الاهواء. الافكار سوابق اما الاهواء فلواحق. عند القديس ايليا الكاهن الشياطين تحاربنا بالافكار لا بالاشياء المادية. النظر والسمع هما سبب الزلل في الامور المادية. اما سبب وعلة الافكار، فهي العادة والشياطين (الفيلوكاليا ٢ ص ٢٩٠). الشياطين تبذر الافكار. لكل فكر شيطانٌ ولكل هوى شيطان. لهذا يقول القديس يوحنا السينائي بأن افكار القلب تأتي من شيطان القلب (السلم الى الله). الشياطين خبيثة جداً في حربها ضدنا، ولا يقوى على خبثها الا القديسون الذين بلغوا نقاوة النوس (الذهن). الاباء متفقون ان حرب الافكار اشد ضراوة من الحروب الحسية الأرضية.

لكن كثيراً ما يختبئ الشيطان وراء الاهواء القائمة في النفس وذلك ليشن ضدنا حربه بالافكار (القديس مكسيموس المعترف ـ الفيلوكاليا ٢ ـ ص ١٨). ان ام الرذائل هي العجب بالذات. فعندما يمرض القلب بحب الملذات فإنه يضعف امام الافكار. ثمة افكار طوعية واخرى كرهية الافكار الكرهية هي التي تأتي بدون طلب منا. اما الطوعية فهي التي نطلبها ونحن اسرى الشهوات.

وعليه فيمكننا ان نقول ان الافكار تأتي من الشياطين. الشياطين تكتفي باذلال النوس لتصير لها السيطرة على كل الانسان. ان الخضوع الدائم لمؤثرات الافكار، يتسبّب في ولادة الهوى. والهوى في ذاته يتسبب في ولادة افكار[1]. الاهواء والافكار تجرح النفس وكل الكيان. للاهواء والافكار تأثير اكيد ليس فقط على النفس بل على الجسد ايضاً.

والرب يعلمنا ان الافكار تأتي من القلب (متى ١٥ : ١٩) (لأن من القلب تخرج افكار شريرة قتل زنى فسق سرقة شهادة... وهي التي تنجس الانسان. لوقا الانجيلي يتكلم ايضاً عن الفكر (لوقا ٩: ٤٦) (وداخلهم فكر من عسى ان يكون الاعظم فيهم). في (لو ٢٤ : ٣٨) يقول الرب: ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر افكار في قلوبكم؟ ان هذه الافكار تصدر عن القلب. الافكار تهاجم النوس اولاً، والاهواء تعمل في القلب، لهذا يقال ايضاً بأن الافكار تأتي من القلب.

يقول القديس ذياذوخس فوتيكيس: القلب هو نبع الافكار الشريرة والصالحة على السواء، الا ان الافكار الشريرة ليست من طبيعة القلب انما هي نتيجة تذكّر الشر. الامر نفسه يحصل للجسد. فالجسد يتأثر بالخداع لا سيما وان هناك صلة بين النفس والجسد. لهذا فالافكار التي يزرعها الشيطان في النفس، تبدو وكأنها صادرة عن القلب. النوس يغذي القلب. ما فيه، ينقله للقلب، سواء كان شراً ام خيراً. وعندما نكون طائشين، وعديمي الخبرة، نظن ان مصدر الافكار هو القلب.

الهجوم الشيطاني هو الذي يولّد افكار الشهوات. المادة في ذاتها هي طاقة حيادية. لهذا فنحن عندما ننشغل بالاهتمامات الدينوية، والشهوات الجسدية، عندها تستبد بنا الافكار الشريرة (كسيانوس الرومي ـ الفيلوكاليا الجزء الأول ـ ص ٨٤). الشر ليس في استعمال امور العالم، انما

(١) الاباء لا يعتبرون الافكار نبع الاهواء وحسب، فهناك جدلية تتولّد بموجبها الافكار من الاهواء، والاهواء من الافكار.

هو في ميلنا وإرادتنا. الامور الشريرة تصبح هكذا بفعل الارادة الشريرة الخاضعة لإبليس.

بالاضافة الى الافكار الشريرة، هناك الافكار الصالحة. ترى كيف نستطيع ان نميز بين الواحدة والاخرى؟ ما دمنا مبتدئين وصغاراً في الحياة الروحية، يتوجب علينا ان نسأل اباء روحيين خبراء، لا سيما الذين يتمتعون بفضيلة التمييز. الفكر الصالح يولّد في النفس الراحة والسرور والبهجة. اما الفكر الشيطاني فمملوء حزناً واضطراباً.

ويعلّمنا القديس برصنوفيوس انه يجب ان نعرف ما هي مشيئة الله في كل شيء، وذلك كي نتمكن ان نعرف افكار ابليس ونميزها عن افكار الله. هذا هو الصحو، وهذه هي اليقظة. العيش بمقتضى مشيئة الله، يعلمنا التمييز فنتقنه. التمييز ينبع من عيشنا في حياة الله. ان من رام الحياة الروحية، يتوجب عليه الانتباه الى ذلك، فبدون التمييز، لا تنمو الحياة في الروح فينا، ولا ننمو الى ملء قامة المسيح.

ما هي انواع الافكار؟

لكل هوى فكر. فالافكار بعدد الاهواء. القديس كسيانوس الرومي يقسم الافكار الى ثمانية:

ـ فكر الشراهة ـ الزنى ـ حب المال ـ الغضب ـ الحزن ـ الضجر ـ المجد الفارغ ـ والكبرياء (الفيلوكاليا الاولى ص ٦١).

عند القديس ثالاسيوس الافكار الاساسية هي ثلاثة: الشراهة ـ المجد الفارغ ـ حب المال. من هذه الثلاثة تنبع سائر الافكار الاخرى. القديس يوحنا السلمي يعتبر الفكر المرتبط بالتجديف نابعاً من الكبرياء. ان حركة الافكار فينا، هي بداية حرب الشيطان ضدنا. ان فكراً شيطانياً واحداً يبثه الشيطان فينا، يتنامى حتى يصبح خطيئة.

ويتكلم القديس مكسيموس المعترف كثيراً عن محاربة الافكار للنوس (للذهن). فالنوس عندما ينكسر في الحرب الروحية، يظلم ويسودّ (فيلوكاليا ٢ ـ ص ١٨).

ما هي ثمار الافكار؟

عندما يطول مكوث الفكر في النفس، يصبح المرء عبداً ذليلاً ويلتصق بالمحسوسات. عندما يبتعد الانسان عن تذكّر الامور السماوية، يلتصق بالامور الارضية، ويصبح عبداً لها. عندما يطول بقاء الفكر في النفس، دون ان نقاومه ونحاربه، يتحوّل الى هوى يستبد بنا دون هوادة.

الافكار تحزننا وتتلف مقاومة نفوسنا وتسممنا. ان من استعبده الفكر، (logismos)، هو انسان اعمى فهو يرى قوى الشر تفعل فيه، دون ان يتمكن من معرفة اسباب وجودها بغية صدها. الافكار تغيظ النفس العاقلة، وتعيث الاضطراب في النفس الغضبية، وتقلق النفس الشهوانية، فتمرض عين النفس (النوس) ولا تعود تقوى على المعاينة الروحية، فلا تعود ايضاً محبة للصلاة. في هذه الحالة يصبح الانسان ميتاً. (انجيل الابن الشاطر ـ «لأن اخاك كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوجد) (لوقا ١٥ : ٣٢)

الانسان المستعبد للافكار، يخسر الحضرة الالهية، ويهمل نعم الروح القدس، وينفصل عن الله بالكلية (الاب دوروثيوس ـ قال شيخ ـ ص ٥١٤).

ولما كان بمقدور الافكار ان تبعدنا عن الله، فإنها قادرة ان تخلق فينا خللاً على اصعدة عدة: النفسي، الروحي، والجسدي. فهي قادرة ان تجعل المستعبَد لها يشعر بعدم الأمان، وبالمرض الجسدي... الافكار قادرة ان تجعلنا نضطرب ونتمزق. ويردد الأب ثيوذوروس: «يأتي الفكر فأضطرب...» (كتاب قال شيخ ـ ص ٤٢).

كيف يكون الشفاء من الافكار؟

كما ان للعديد من الامراض ادوية، هكذا للأفكار دواء ايضاً. ما هو هذا الدواء؟ انه اليقظة، الانتباه، الهدوء، الصلاة، قطع الصلة بكل ما هو شرير. والرسول بولس يتكلم عن ذلك عندما يخاطب تلميذه تيموثاوس (٢ تيمو ٤ : ٥) «تيقظ في كل شيء». الآباء القديسون يتكلمون عن الموضوع هذا بتوسع. ما هي اليقظة؟

انها سجن الافكار. القديس يوحنا السلمي يعلمنا ان سجن الافكار شيء، وحفظ الذهن شيء آخر. حفظ الذهن اسمى من سجن الافكار. ان حفظ الذهن نقياً، ليس هو الاحتفاظ بالعقل نقياً. نقاوة الذهن (النوس) تتطلب نقاوة الافكار، فيستحيل ان يكون المرء نقياً في الداخل اذا كان عبداً لأفكار شريرة[1]. ان نصيحة الآباء لنا هي ان نجمع الذهن (النوس) أعني قوة النفس، في جوهرها، وان ننتبه للافكار مقاومين افكار الشهوات (البار ثالاسيوس - الفيلوكاليا ٢ - ص ٢٠٧). من الواجب ان ننتبه للافكار والذكريات والخيالات والصور محتفظين بذكر الله ومتأملين بالافكار الصالحة. القديس سلوان الآثوسي يعلمنا وينبهنا ان الشياطين تعمل على تسميمنا، وذلك لينفصل الذهن عن الصلاة فيهمل الالهيات. في البداية يبدو الفكر الشرير صالحاً، ثم ما يلبث ان يتغير مفصحاً عن طبيعته. لهذا علينا ان نقاوم اي فكر حتى ولو بدا لنا صالحاً (الارشمندريت صوفرونيوس - الأب سلوان - ص ١٦٩)

ينبغي ان نحفظ عين النفس نقية (الذهن). فكما ان عين الجسد يجب ان تكون نظيفة حتى نرى بوضوح، هكذا يجب ان تكون عين النفس لنسلك بأمان.

ان حفظ الذهن، وسجن الافكار، تسمى في الأدب النسكي (الهدوء القلبي) لهذا فالهدوء بالمفهوم الارثوذكسي ليس هو خارجياً او

(١) (فيلوثاوس السينائي - الفيلوكاليا ٢ صفحة ٢٨٥.

جغرافياً. الهدوء المكاني هو بداية للهدوء القلبي. الهدوء القلبي يعني ان يكون القلب هادئاً. ويعلمنا القديس ثالاسيوس في هذا الصدد: «اضبط احاسيسك من اجل بلوغ الهدوء. اضبط افكارك، ليهدأ قلبك (فيلوكاليا ٢ - ص ٢٠٦). عند القديس يوحنا السلمي هدوء الجسد هو علم قائم بذاته. بدون اليقظة والهدوء القلبي تستحيل القداسة ويستحيل العيش في حضرة الله. يتوجب على المسيحي الانتباه والتيقظ. ان هذا ليس شأن الرهبان وحسب، انه شأن جميع الذين خرجوا من جرن المعمودية. الجوع الى الله، العطش اليه، السهر، الانقطاع وسواها، تساعد الانسان على التحرر من الخيالات والذكريات والصور والافكار. حب المجد الفارغ، حب اللذة، الطمع في الماديات، حب المال، هي اسباب تحرك في الانسان ذكريات عديدة تمرره وتحزنه وتغضبه. الشهواني يحزن لأنه معرّض ان يفقد موضوع شهواته. لهذا فإن احتقار الماديات والدنيويات التي تغربنا عن الله، من شأنه ان يقطع دابر المسببات ويلجم الافكار وغيرها.

ولا بد - اذا ما اراد الانسان التحرر من الاهواء، - ان يجاهد ضدها، وضد الافكار التي تسببها. ويجعل الاباء القديسون علاجات لكل مرض. فهوى الزنى يحارَب بالصوم والسهر والعمل والصلاة. وهوى الغضب والحزن، بمقت الشرور وبالصلاة من اجل من يحزننا ويخدعنا (فيلوكاليا ٢ - ص ٣٠).

ان امراً آخر واجب من اجل هذه النصرة، إنه قطع الملذات وانفطام القلب عن الدنايا. قطع ملذات القلب يتطلّب قطع ملذات الجسد. حاجات الجسد شيء، وملذاته شيء آخر. اللذة عملاق كبير في الحياة الروحية، بدون ضبطها والسيطرة عليها، يتعذر السعي في سبيل الكمال.

اغلب الناس في هذا العصر يحاربون بالشهوات والملذات. المرأة هي موضوع الساعة. انها واجهة اي معروض عبر وسائل الاعلام. الانسان في هذا العالم يذوب كالشمع امام النار عندما يستسلم للملذات.

كذلك فإن ضراوة الافكار تتلاشى، والافكار تتبدد، عندما نتمسك بالله من كل القلب والنفس والجسد والروح.

دواء آخر واجب في المسيرة الروحية: انه العمل والنسك. والصوم دعامة كبيرة في دنيا الشهوات والملذات. انه ركن وطيد في عيش الصلاة وتنقية القلب. لا تبلغ الصلاة مرماها بدون تعب وبدون جهاد. هذا ينبغي ان نعمله في كل يوم وفي كل ساعة كما تقول صلاة النوم الصغرى.

ولا بد دون كل ما ذكر ان نجانب الاضطراب والجبن الروحي. الخوف من احتمال ضغوطات التجارب يؤذينا كثيراً. لهذا يعلمنا القديس مكسيموس المعترف ان نحتمل امواج الافكار بفرح وشجاعة حباً بالرب (الفيلوكاليا ٢ - ص ٨). ان احتقار الافكار ركن من اركان النصرة في الحرب الروحية.

ان المثابرين في الشأن الروحي والمتجذرين في حياة الاباء والكنيسة وصلوا الى درجة معرفة حركة الافكار قبل دخولها الى النفس العاقلة والشهوانية والغضبية. ويتكلم بعض الاباء عن بلوغ مريم العذراء هذه الحالة من الطهر والقداسة.

— ان محاورة الافكار لا تجدي، فقطع الصلة بها اعظم بكثير من محاورتها بحجة القدرة عليها (الارشمندريت صوفرونيوس - الأب سلوان - ص ١٣٧). ان عدم محاورة الافكار هي سبيل رائع للمبتدئين في الجهاد الروحي. سؤال طرح على الأب بيمن: ماذا اعمل افكاري تزعجني؟ فأخذه الى تلة مجاورة وقال له: مد يدك فمدها حتى احس بقوة الريح، فقال له: هل تقدر يا ولدي ان توقف الريح؟ قال ذاك: كلا: فقال له الأب بيمن: اذا لا تنشغل بشيء البتة.

يحتاج المرء في كل ما ذكر الى عناد ومقاومة. التراخي يؤذي صاحبه. ان الأدب النسكي يعج بالنصائح والمواجهات. ولا بد لنا من مطالعته اذا اردنا الاستفادة من خبرات الاباء ونصائحهم.

ان القديس مكسيموس المعترف يطالبنا بواجب السيطرة ليس فقط على الاهواء الجسدية، بل النفسية ايضاً، فبدون الثانية، يستحيل تحقيق الاولى.

ان لصلاة الرب يسوع فعلاً عجيباً في بنائنا الروحي.

القضية الروحية امر عسير وشيق، ولا يرقى الى ذراها الّا الذين تسلحوا بالبطولة المسيحية وروح الشهادة من اجل الرب. الأب القديس سلوان يعلمنا ان عنصر النصرة على الافكار المستعصية، يقوم على جعل ذهننا في الجحيم مع التعلق بالرجاء الابدي. ان من خاض غمار هذا الدرب المقدس بروح الاباء القديسين لا بد ان يصل الى قداسة قلبه ونفسه وحياته. الروح القدس بيده القدوسة يرفع الجراح عن النفس المحبة لله. الله لا يدع احباءه في الهاوية. ان من بلغ هذه الحالة يعرف انه صار الهاً بالنعمة.

الهدوء الروحي hesychia

الهدوء واحد من العناصر المهمة في الحياة الروحية. الانسان المعاصر يعاني من الضوضاء والضجيج والصخب. الهدوء الجغرافي متنفس للانسان في همومه ومتاعبه. الضجيج يتعبنا دون أن ندري. لهذا، فالهدوء، اطار بالغ الأهمية للحياة. في العهد القديم كان مرور الله على الناس بالنسيم لا بالعاصفة. الانسان المعاصر ينخدع بالصخب، إلّا أنه ينجذب بالهدوء.

للهدوء قيمة عظيمة في شفاء النفس. الآباء يعلّموننا أن رصد الخطيئة يكون في الهدوء لا في الضجيج. المشاكل في حياتنا، تبرز من غياب الهدوء. والقديس غريغوريوس اللاهوتي يرى في الهدوء السبيل إلى الله (كتابه ـ الهرب إلى البنطس). في نظره، الهدوء ينقي الحواس والقلب، ويرفع الانسان إلى مستوى معرفة الله. بهذا الصدد يقول القديس البار ثالاسيوس: «الهدوء والصلاة سلاحان عظيمان يطهّران الذهن ويجليان النفس..» (فيلوكاليا ٢ ـ ص ٢٠٨). الذهن، (النوس) العائش في الهدوء، يرتفع إلى أسمى أشكال الثيوريا. غياب الهدوء[1]، يستتبع غياب الحياة الروحية.

الهدوء اثنان: جسدي ونفسي. الهدوء الجسدي يرتبط بالمواضيع الخارجية. أما النفسي، فبالداخلية منها. الهدوء الجسدي جغرافي، مكاني. القديس يوحنا السلمي يدعونا إلى محبة الهدوء (المقالة ١١). القديس باسيليوس الكبير يرى في الهدوء الخطوة الأولى على طريق نقاوة النفس. الهدوء والبرية عند الآباء صنوان لا يفترقان. محب الهدوء لا يسقط أمام شرود الذهن والتشتت.

(١) hesychia

الهدوء الجسدي طريق إلى الهدوء النفسي (يوحنا السلمي). الهدوء يساعد على رصد حركات الأفكار logismos في النفس. القديس سمعان اللاهوتي الجديد هو بحق لاهوتي الهدوء. يقول القديس سمعان: الهدوء هو حالة الذهن غير المنزعج بأمواج الاهواء. انه سلام النفس وحريتها. انه العين التي لا تنام، مع الصلاة الدائمة[2]. الهدوء هو الاتحاد بالله. انه راحة (بدون ألم) تأتي بعد نسك طويل (ص ١١٥ ـ S.C.). الآباء القديسون في كلامهم على الهدوء، يرون فيه حالة مقدسة. انه الحياة في المسيح[3] التي عرفها سائر القديسين (فيلوكاليا ٤ ـ ص ٧٦). ان كل شفاء للنفس لا بد أن يبدأ بهدوء الذهن (النوس). ما هو الهدوء؟

الهدوء اتزان القلب والرفعة على الألم والشهوات (.... ادخل مخدعك واغلق بابك...) (متى ٦:٦). لا يقوم هدوء كهذا بدون صليب. بالصليب يبلغ المؤمن الهدوء المقدس. صليب الرب يعلمنا احتمال الآم الهجوم الشيطاني، والثبات، حباً بالرب. الصليب يعلّمنا أن النصرة تقوم بضبط الفكر، ومقاومة الغواية والتشتت والشرود. بالأتعاب الكثيرة، نبلغ نقاوة القلب. ونقاوة القلب هي السبيل إلى الهدوء الذي بدونه لا نبلغ معرفة الله. القديسة والدة الاله عرفت هذا العمق من الهدوء. فهي في قدس الأقداس تربّت طالبة وجه الرب والركون في حضرته. النفس تشفى من السماجة بعيش الفضائل. اتحادها بالله، علامة لشفائها. من بلغ الثيوريا، هو انسان يعيش في الهدوء، وهو بالتالي انسان معافى.

يتعذّر علينا بلوغ الهدوء بدون صلاة. الصلاة هي البطن التي تحتضن جنين الهدوء ـ وتربّيه. ويرى بعض الآباء أن الهدوء القلبي مرادف

(٢) الموجودات ـ للقديس سمعان اللاهوتي الجديد ـ مطبوعات باس ريغوبولو ـ سالونيك ـ ١٩٧٧.

(٣) الهدوء ليس مجرد حالة. انه مضمون أيضاً. عند الكثيرين من الآباء: الحياة في الهدوء الحياة في الروح.

للراحة (السبت). ان من يحب الهدوء هو هادئ hesychast. الهادئ هو انسان يتربى في الهدوء. الهدوء جنته. الهادئ انسان في الجسد يحيا وكأنه خارج الجسد.

الهدوء هو أكثر السبل متانة للملمة النفس وجمع شتاتها، والارتقاء بها نحو العلاء. ان درب الهدوء ليس مجرد مسعى بشري يرقى بنا إلى العلاء. المسعى في ذاته، لا يجدي، فالهدوء ليس تقنية. الروح القدس هو دليلنا في معارج الهدوء. هو الذي يقودنا إلى الهدوء عندما نطلبه بتوبة ونوح (penthos). ان انطلاقة الانسان نحو الهدوء، لا تبدأ بفكرة فلسفية مجردة. لا هدوء بدون محبة الحضرة الإلهية. لاخلاص من ناموس الخطيئة بدون الله (رومية ٧: ٢٣).

إن رفاقنا في درب الهدوء هم: (النوح، الدموع، التوبة، الانسحاق، التواضع، والصلاة). غاية الهدوء هي تنقية القلب والذهن. محب الهدوء عرف أن الدموع هي طريقة حياة، لا مجرد بكاء ونحيب. ان جمع شتات الذهن (النوس) يؤهلنا أن نبلغ نقاوة القلب. وكلما زادت النقاوة تأصلنا في الهدوء، وتنقى انساننا الداخلي، وبلغنا المعرفة الإلهية.

ولا يمكن للانسان الاحتفاظ بالهدوء، بدون حفظ الوصايا. ان أسلحة الهدوء القلبي هي: (الصبر، الامساك، المحبة، اليقظة، مطالعة الكلمة الإلهية، والصلاة) (فيلوكاليا ٤ - ص ٢١١). ويرى بعض الآباء القديسين أن الاحتفاظ بالهدوء، مرهون بعمل اليد والترتيل أيضاً (فيلوكاليا ٤ - ص ٤٧). ان الاحتفاظ بالهدوء هو ثمرة لجهد طويل، وتعب كثير، وتضحيات، نسكبها من كل القلب والنفس والذهن والقوة. . . . الاحتفاظ بالهدوء هو الاحتفاظ بالله فينا. ولكن لا بد من القول أيضاً أننا لا نقطف الهدوء القلبي بدون صوم داخلي وخارجي. يستحيل الفصل بين الهدوء والفضائل. ان هرم الفضائل هو بيت متكامل، أركانه، حفظ الحواس، وحجر الزاوية فيه، يسوع المسيح (الحجر الذي رذله البناؤن صار رأساً للزاوية).

إلا أن استفحال الاهواء، وحفظ الوصايا، أمران لا يتعايشان. عندما تبرز الاهواء، تحتجب قوة الوصايا، وعندما يلتهب حفظ الوصايا فينا، تتبدّد الاهواء. ان درب الهدوء ليس عملاً رهبانياً وحسب، انه رسالة تُطلب من كل مسيحي. الهدوء من ثمار المعمودية، لا من ثمار الحياة في الدير[١]. الرب يعلّمنا في الكتاب محبة البرية desert. هو نفسه كان ينقطع عن العالم في الليالي الطوال. الكتاب يقدمه لنا مثالاً أعلى للنسك والتوحّد والصلاة. بعد المعمودية قاده الروح إلى البرية (متى ٤: ١). في البرية واجه ابليس بعد صوم وتعب. الكتاب يعلمنا أن الهدوء ليس مرادفاً للراحة والاسترخاء، لا سيما أن ابن الانسان ليس له اين يسند رأسه (متى ١٤: ١٣)، (متى ١٤: ٢٣)، (مرقص ٦: ٣٠ - ٣١)، (لوقا ٦: ١٢)، (متى ٦: ٦).

عند القديس غريغوريوس بالاماس كلام بديع عن صلاة المخدع يصب كله في خانة الهدوء القلبي إذ يقول: (المخدع هو الجسد. أبوابه هي الحواس. النفس تدخل إلى راحتها. راحة الذهن ليست في التنقل والطواف بين شؤون الدنيا وملذاتها وتفاهاتها. الراحة هي في التوجّه إلى الداخل[٢]. الذهن المرتاح في الداخل، يدرك الله. لا حرية للانسان إلا بعد العودة إلى ذاته. الله سيدرك حالتك وجهادك في المخدع، فيجازيك

(١) ليس الدير مجرد انقطاع جغرافي عن الدنيا، انه اطار الحضرة الالهية ومهبط الروح القدس. القداسة تأتي من الأديار عندما يسكنها الله.

(٢) يتكلم الآباء عن نزوعين: واحد إلى الخارج وآخر إلى الداخل. ما معنى ذلك؟ الانسان الخارجي هو الذي يألف النزوع إلى الخارج ولا يبدي أي مقاومة. انه الانسان الذي لم يعرف المسيح ولم يدرك رسالته بعد. أما النزوع الثاني فهو الحنين إلى الحياة في المسيح. فيه يبدي المرء مقاومة ضد الخطايا. انه انسان يحب المسيح ويحزن جداً عندما يبتعد عنه. هذا ويطلق بعض الآباء على النزوع الداخلي معنى الحياة الروحية كلها. الانسان المعاصر يتربى على النزوع إلى الخارج، وبالتالي فهو لا يألف الكلام عن الشأن الروحي، إلا إذا حصل له شيء في حياته جعله يعدل عن رأيه وموقفه ونمط حياته.

على ما أنت فيه. وكلما توغلت في أرجاء المخدع، تراجعتْ لتتسعَ لك وتزداد رحابة) (فيلوكاليا ٥ ـ ص ١١١).

الهدوء في الكتاب هو وليد نقاوة القلب (لوقا ٥ : ٢٢)، (متى ٢٣ : ٢٦)، (غلا ١ : ١٧)، (١ كور ٢ : ١٦)، (كولوسي ٣ : ٥) و(رو ٧ : ٢٣). إن لليقظة دوراً كبيراً في نهضة النفس وبلوغ الهدوء المنشود (١ سا ٥ : ٦)، (٢ تيمو ٤ : ٢).

بولس الرسول يدرك أهمية الهدوء، فيعلن التمسك بفكر المسيح (١ كور ٢ : ١٦). كذلك فإنه يدعو إلى اماتة أعضاء الجسد التي على الأرض. وهذا ليس هدفاً في حد ذاته. انه خطوة وراءها ما وراءها (كولوسي ٣ : ٥). نعمة المسيح هي التي تكشف لأحبائه ناموس الخطيئة الفاعل في الكيان (رومية ٧ : ٢٣).

لليقظة دور كبير في فكر بولس الرسول. انها السبيل إلى الانعتاق من عبودية الخطيئة (١ سا ٥ : ٦ ـ ٨). ونراه بشكل واضح يطالب تيموثاوس بالصحو والتيقظ (٢ تيمو ٤ : ٥). الدعوة إلى الصلاة تكون بيقظة (كولوسي ٤ : ٢). ويصر علينا أن نصلي بلا انقطاع (١ سا ٥ : ١٧). كذلك فإن للرسول الإلهي بطرس موقفاً مشابهاً يدعونا به إلى اليقظة والتنبه وذلك عندما يصف الشيطان كأسد مستعدٍ أن ينقض علينا (١ بطرس ٥ : ٨).

وهكذا، فنحن المسيحيين مدعوون إلى البعيد. دعوتنا هي أن نعيش ليس على غرار هذا العالم. إنها دعوة متطلبة تقودنا ـ إذا ما أطعنا العمل بمقتضاها ـ إلى الهدوء، والمثول أمام المسيح على الدوام. القديس بطرس الدمشقي يعلمنا أنه يتوجب على الجميع السعي إلى الهدوء جزئياً كان أم كلياً، إذ بدون الهدوء، يستحيل أن نبلغ الحياة في الروح والتواضع (فيلوكاليا ٣ ـ ص ٩٩). ومن يطالع كتابات القديس بطرس الدمشقي يسمع أن الحياة الروحية ليست حكراً على الراهب، بل هي حاجة كل المسيحيين، بدون استثناء. أقول هذا لأن فئة كبيرة من الناس باتت على

قناعة خاصة بها، وهي أن الحياة الروحية هي للرهبان، وليست للعائشين في العالم. وان سبيل أهل العالم هو غير سبيل الرهبان. إن هذا باختصار اساءة إلى رسالة المسيح. كذلك فإن كثيرين يرون أن الهدوء (hesychia) هو مرادف للصمت (silence). شيء من هذا صحيح. لكن الحقيقة كل الحقيقة ليست هكذا. فالهدوء[1] أعمق من الصمت بكثير. الأخرس انسان صامت وقد لا تكون له أية صلة بالهدوء المعني.

القديس مكسيموس المعترف يدعونا إلى محبة الهدوء ومقت ما هو للعالم (فيلوكاليا ٢ ـ ص ٣٢). ان الحياة في الهدوء لا تخلو من عمل. فالهدوء ليس سكينة تبلغ درجة الموت والعدم. الهدوء هو حياة في العمل والثيوريا كما تقول ترتيلة الكنيسة (. . . . بالعمل المرقاة إلى الثيوريا. . .). من هنا فالآباء القديسون يؤمنون أن للهدوء ثمراً إذا عشنا (في الهدوء) بمقتضى حياة الرب وفكره. إنه يُجدد الكيان ويَرفعه إلى فوق متحداً إياه بالله. الهدوء يُصلح آفات المجتمع الصاخب والمريض.

إن التراث الأرثوذكسي يتكلم عن الهدوء كتيار قوي في الكنسية؛ كمذهب، كمبدأ ومنظومة. هناك الهدوئية hesychasm. ما هي؟

لقد تكلمنا عن الهدوء بايجاز، وكيف انه ركن وطيد من أركان الحياة الروحية. الهدوء بعرف الآباء القديسين، هو النهج الأفضل لتنقية القلب والارتقاء به نحو الله. وليس غريباً أن الأرثوذكسية نهج يبغي شفاء الانسان وتحريره من كل ما يكبله. ان الخضوع لكل النهج الأرثوذكسي والسير فيه والعيش بموجبه، هو ما اسميته الهدوئية hesychasm. الهادئ هو الذي يحيا في الهدوء المقدس. ولا بد من القول أننا عرفنا في القرن الرابع عشر حركة لاهوتية عرفت باسم (الحركة الهدوئية) كان رائدها القديس غريغوريوس بالاماس. هذا علّم ـ على جري الفكر الآبائي السابق، انه بمعونة الروح القدس، يستطيع النوس أن يتحد بالقلب ليحيا الانسان في شركة مع الله. فالمسألة الهدوئية، كما اصطلح على تسميتها،

(١) الهدوء hesychia، أما الصمت فهو silence.

أثبتت عبر مجموعة من المجامع المحلية انعقدت في القسطنطينية (١٣٤١ ـ ١٣٤٦ ـ ١٣٥١). في المجمع الأخير (١٣٥١) أعلنت اصالة تعليم بالاماس فأطلق عليه الباحثون لقب (رائد الحياة الهدوئية).

في الواقع أن الحركة الهدوئية لم تبدأ في القرن (١٤) بل عرفتها الكنيسة الأولى. فالهدوء أمر شائع في الكتاب المقدس وعند الآباء الأولين: (القديس اغناطيوس المتوشح بالله، والقديس باسيليوس الكبير، والقديس غريغوريوس اللاهوتي، ومكسيموس المعترف ويوحنا السلمي وسمعان اللاهوتي الجديد). ليس بالاماس مبدع الحركة الهدوئية، فقد كانت قبله. إلا انه المعبّر عنها بعمق واصالة، بتعابير وألفاظ مستحدثة. الهدوئية هي الشكل الأصيل للحياة المسيحية. كذلك فإنها كمنهج، تستعمل للدلالة على جمع النوس في القلب. وهذا موضوع عظيم الشأن. الهدوئية تقوم على الصلاة القلبية والدعاء باسم يسوع (صلاة الرب يسوع). وللتوسع في هذا الباب والاستزادة بالمعلومات، يمكن الاطلاع على كتاب (فن الصلاة) الذي يتناول الأمر بتوسع وتبحّر واستفاضة.

القديس بالاماس في عظته عن صلاة الفريسي والعشار، يصوّر لنا صلاة العشار وكأنها نموذج كتابي لصلاة الهادئين (لو ١٨ : ١٣). المقطع المذكور يصور لنا مكانة صلاة القلب بحسب الكتاب المقدس. الرب نفسه امتدحها، فالعشار عاد إلى بيته مبرراً. القديس بالاماس يتبحّر في دور رفع العينين إلى السماء (لوقا ١٨ : ١٣). للصدر دور ايضاً. فضرب الصدر موقف ميستيكي يعبّر عن أعمق ندامة وأنقى توبة. الجسد نفسه يشارك في هذه الصلاة. ان لوم النفس يُعبّر عنه بضرب الصدر.

أما برلعام الكلابري خصم بالاماس في الجدل الهدوئي، (قرن ١٤)، فقد سخر من الرهبان الذين كانوا يحنون رؤوسهم وأجسادهم من أجل جمع النفس وقواها، فكان ـ يسميهم navel-gazers، أي الذين يحدّقون في الصرّة. إلا ان بالاماس ردّ عليه من صورة النبي الياس الذي كان يصلي إلى الله ورأسه بين رجليه. للقديس غريغوريوس السينائي كلام

شبيه بصورة النبي الياس: «في الصباح اجلسْ جاعلاً ذهنك في قلبك وانت تردد: «أيها الرب يسوع المسيح ارحمني». ويدعو القديس غريغوريوس السينائي إلى ضبط التنفس بغية جمع الذهن (فيلوكاليا ٤ ـ ص٧١). يقول القديس بالاماس: «نحن لا نصلي إلى الرب باستمرار، لنقنعه بالعطف علينا، فهو عطوف ابداً، ولا يحتاج إلى كلماتنا الضعيفة. كذلك فإننا لا نصلي كي نشد الرب إلينا، فهو حاضر في كل مكان. انما نصلي كي نتمكن من الارتفاع اليه (الثالوثيات II، ١ ـ ٣٠). ان نظرة الهدوئيين إلى الصلاة تخلو من نهج وآلية mechanism. ولا بد هنا أن نتكلم عن مفهوم الجسد المشترك في حياة الصلاة.

مفهوم برلعام للجسد هو مفهوم افلاطوني. عند افلاطون خلاص النفس مرهون بتحررها من الجسد، فالجسد سجن النفس. وبالتالي فإن حرية النفس، تتحقق بموت الجسد وبانفصالها عنه. أمّا بالاماس فلا يمقت الجسد، اذ لا شيء ممقوت في حد ذاته (الثالوثيات ١، ٢). ليس الجسد بالمفهوم الابائي امراً شريراً. الشر هو في سوء الاستعمال، لا في الجسد نفسه. إن دور الجسد في الصلاة، كبير وعظيم. فلو كان الجسد شريراً، فأين تكون قيمة الصوم[1]. لا صلة بين الانجيل والروحانية الافلاطونية. وبالاماس في مواضع عدة من كتاباته، يزدري الجسد، جسد الشهوات طبعاً (sarx) دون أن يعني هذا، أنه يحتقر الجسد (soma). الـ (soma) خليقة الله. اما الـ (sarx) فمن نتاج الخطيئة. وبالطبع لا يشير هذا إلى كلام عن جسدين اطلاقاً. المسألة هي باختصار للتوضيح لا أكثر (يوحنا ٣: ٣ ـ ٨) (ثالوثيات ٢ : ٩). ويستغرب بالاماس أمام الذين يدّعون السير في الحياة الروحية بدون جهد جسدي (ثالوثيات III، ٣). بالاماس يذكرنا بما يقوله الرسول بولس بهذا الصدد (رومية ١٢ : ١). ترى كيف يقدم الإنسان ذاته لله؟ التقدمة تكون بعين بسيطة، واذن مستمعة لتعليم المسيح، مع تذكّر وصاياه، وحفظها من كل القلب (مزمور ١٠٣ : ١٨)، (ثالوثيات، II، ٢)

(١) اذا كان الجسد شريراً، فلماذا تجسد المسيح؟ المسيحية ديانة تقوم على تجسّد الله.

ان الروحانية الآبائية غريبة عن أيّة سكونيّة يوغية (quietic yoga)، أو أي شكل افلاطوني مستحدث. ترى ما المعنى الحقيقي للمنهج السيكوفيزيولوجي الذي يتكلم عنه بالاماس؟ الكلام عن لاهوت يدعى سيكوفيزيولوجيا psycho-physiology، يشير إلى مشاركة كل الانسان في حياة الصلاة (راجع كتاب ـ دراسة عن بالاماس ـ للآب يوحنا ما يندورف)، فالانسان كائن في جسد.

ان بالاماس لا يقبل بأية آليّة لبلوغ النعمة. ان بلوغ النعمة لا يقوم على آلية رتيبة. إنه اذا جاز التعبير: آلية ديناميكية. بالاماس يرى أن لكل عمل طريقة وآلية (process). فهو يقبل بالآلية التنفسية القائمة على وقع ايقاعي، رغبة منه في حماية المبتدئين (novice) من شرود الذهن والتشتت. ويؤكد بأن لا شيء يمنعه من اعتماد أي منهج أو آلية بغية المثول في الحضرة الالهية. واذا كان للآلية من دور، فهو تربوي.

الآلية التنفسية[1] هي جزء من كل. والصلاة الاصيلة النقية لا تأتي من دقة العمل بمقتضى الآلية. الآلية ليست سوى اداة لا نتمسك بها إلّا إذا تيّقنا من جدواها. ويرى الآباء القديسون انه ليس من عقيدة في الآلية التنفسية. وفي الواقع لا يسعى بالاماس إلى عقدنة dogmatising اي نظام فزيولوجي بغية تعميمه على المجاهدين. فقد ترك امر الفيزيولوجيا الآلية في ممارسة الصلاة القلبية، للبحث الرصين وللتاريخ. والآن ما معنى العودة إلى القلب والتي هي غاية الصلاة القلبية (صلاة الرب يسوع)؟

أمام هذا السؤال يعطينا القديس بالاماس معنى مسيحياً أصيلاً

(١) الكلام عن الآلية التنفسية يتعلق بجعل الصلاة القلبية على ايقاعين: واحد مع الشهيق، والثاني مع الزفير. وفي الواقع فإن التراث الابائي لا يدعم القائلين بوجوب مبدأ التنفسية في الصلاة. وعلى سبيل المثال فإن القديس بريانشانينوف لا يقف موقف الحبيس تيوفان لدى الكلام عن التنفس مع الصلاة. قس على ذلك كثيرين من الآباء. الا ان بالاماس ترك البت في صوابية هذه الآلية للبحث والتاريخ. فبدا لي عالماً كبيراً وعظيماً حقاً.

للعودة إلى القلب[2]. الميستيكية البالاماسية محورها المسيح christo-centric. ان من لم يبلغ وحدة حياة مع الرب، لن يرى في قلبه سوى انسانية ساقطة fallen humanity). ان موقفاً لا يكون المسيح محوره، لن يؤدي الّا إلى الغي والضلال (انا هو الطريق والحق والحياة) (يوحنا ١٤ : ٦).

الهدوء ميزة هامة في الحياة الروحية. فالحياة الانسانية باتت ممزقة بعد السقوط. بات للعقل نشاط غريب بعد السقوط. انه في الانسان ـ لاسيما المعاصر ـ يعمل على حساب القوى الاخرى. هذا العقل العظيم، بات منحرفاً رغم نشاطه. وعلينا ان ندرك طبيعة انحرافه وضلاله. علينا ان نكتشف الذهن لنداويه. والشفاء يقوم على طاعة الله. الّا انه مستحيل، بدون اكتشاف الانسان الداخلي الممزق. من لا يقتنع انه ممزق، كيف سيسعى إلى الطبيب لشفائه؟ وما دمنا لا نعرف ارادة الله ونواميسه واحكامه، فعلينا الاحتكام الى اب مميز يحوز في اعماقه فضيلة التمييز. في البداية سيعترض العقل ويحتج، فأية ضرورة للآب الروحي ما دام العقل موجوداً؟ في الواقع يستحيل الشفاء بدون الدخول في أنوار التقليد الشريف والذي هو ببساطة، العيش بروحية الكنيسة الرسولية الامينة لربها.

الهدوء أم حنون عطوف تربي فينا اليقظة وتحبّبنا بالصلاة. ما هي اليقظة؟ انها التنبه الروحي والجهوزية الداخلية لرفض كل فكر ينبث في اعماقنا. اليقظة ـ ابائياً ـ هي هدوء الذهن. انها الطريق إلى الاستنارة الداخلية. اليقظة هي وقف النزيف الروحي الحاصل بفعل تسرّب الافكار إلى الانسان الداخلي. تسرّب الافكار يضعفنا تدريجيّاً، أما ايقافها ومقاومتها فتقوينا تدريجياً. اليقظة هي حارس القلب كما يسميها القديس

(٢) العودة الى القلب، صيغة تشير إلى أن الانسان العائش في الخطيئة ممزق القوى. وبناء الحياة الروحية هو جمع شمل قوى الانسان في مركز القلب. فملكوت الله في القلب. ان العودة الى القلب هي نقيض البعد عن الله. ولما كانت العودة إلى القلب مقرونة بصلاة الرب يسوع، فإن في ذلك اشارة إلى أن يسوع هو عصب الحياة الروحية واساسها.

ثيوفان الحبيس. الفلسفة الآبائية ليست نظرية، وهمية، سرابية. انها عمل ومعاينة (praxis, Theoria). الفلسفة الابائية هدوئية. إنها سبيل إلى تنقية القلب كي يكون مستقر ملكوت الله، مستقر الله.

ان الكلام عن الهدوء القلبي بالغ الأهمية في مجتمعاتنا المعاصرة. عالمنا المعاصر عالم الدينامية والابداع. انه عالم التكنولوجيا المسخّرة. في هذا العالم تسود قناعة الاحاسيس. العقل فيه مرهون للنفعية والتكسّب. ليس عالمنا هذا هدوئياً بأي حال. انه يدعو ابناءه إلى اشباع الملذات. انه متمحور حول الملذات hedono-centered. انه مُطلق الجنس ومفجّره، لكنه في الوقت نفسه مقيّد الوثبات الانسانية العميقة وخانقها. انه مجال ابليس وفردوس الخطيئة. الغريب انه عالم الله ومجال الخطايا بآن.

ترى كيف يتسنى لإنسان ـ يحيا في هذا العالم ـ ان يملك فكراً كنسياً وعقلاً مستقيم الرأي والعبادة؟

هذا سؤال كبير، والرد عليه عسير وشبه محال لولا الأمل والرجاء بقدرة الله على تغيير المعطيات. ان عالمنا من صنع عقل هرطوقي. ففيه تقوم الاشياء على الثقة المطلقة بالعقل. ليس عالمنا عالم الاباء القديسين. تربيتنا تقوم مداورة على العبودية للحواس. في عالمنا هذا يرتعش المرء من القداسة ويأباها.

وهكذا تبقى مشكلات الحياة ومآسيها ـ وكأنها بدون حل ـ عسيرة وقاسية في غياب قديسين يمتلكون دفة الروح ويمسكون بها، ويركبون سفينة المسيح، لتقوى احكامهم على زيف الدنيا ورياتها وأباطيلها. بدون رجالات الروح ـ الظامئين أبداً الى ماء الحياة الأبدية، ـ ليس لأوجاعنا شفاء، وكل ما في الوجود تافه وباطل الاباطيل. ترى هل يقدر هذا الكتاب (اليقظة والصلاة) ان يخدمنا في هذا المضمار؟

ـ ذكر الموت ـ

الموت حقيقة راسخة ثابتة. انه جزء من خبرة كل انسان. الحضارات تخدعنا عندما تحثنا على تخطّيه، فالحل ليس في الهرب. الكنيسة تؤكد الموت جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية. القيامة جاءت بعد موت الرب. القيامة ارتكزت على الموت. الكتاب يحضّرنا للموت حتى منذ بدء الخليقة، وعندنا في سفر التكوين ما يحث على ذلك (تك ٤٩)، ويعدّنا للحزن (تك ٥٠: ١)، فكل واحد منا سيراه جزءاً من خبرته (مزمور ٨٩: ٤٩)، وسوف يذوقه (متى ١٦: ٢٨)، (يوحنا ٨: ٥٢)، (عب ٢: ٩).

محبو الدنيا، ينزعجون، ويتمرمرون لدى التفكير بالموت. إلا أن الموت أمنية ومطلب عند من ترهقه الحياة (سيراخ ٤١: ١). حزقيا يخاف الموت (٢ مل ٢٠: ٢) بينما ايوب يثمناه (٦: ٩).

الموت بالنسبة للعامة هو دخول في العدم (ايوب ٧: ٨). ورغم انه هكذا، إلا أن من يموت يحتفظ بذكراه في قلوب الاحياء، وكأن الذاكرة فوق ان يطالها الموت. أما داوود نفسه فيعتقد ان الله نفسه لا يذكر الموتى (مزمور ٨٨: ٦).

ان تكريم الراقدين يحتل مكانة عظيمة في قلوب كل الناس، في كل زمان ومكان، وذلك لأن الانسان يعتقد بأن حياته لا تزول بموت الجسد، فهو يرجو استرجاعها في يوم من الايام. الايمان بالخلود عقيدة ثابتة عند الحضارات القديمة. عنف الموت يجعل البعض يعتقدون ان هشاشة الحياة امر محتوم، واننا الى العدم، فمن التراب إلى التراب (تك ٣: ١٩).

حتمية الموت قدر صار علينا بعد سقوط الانسان. إلا ان يسوع المسيح رفع حتميته عنا، وهذا نتقبّله اسخاتولوجياً (مزمور ٤٩: ١٦). كيف ذلك؟ لقد تلقى يسوع كل زخم الموت في ذاته، وذلك ليسحقه. يسوع سبق واطلع تلاميذه عن امر موته (مرقص ٨: ٣١)، (يوحنا ١٢: ٣٣). يسوع اضطرب امام الموت (يوحنا ١٢: ٢٧)، نفسه ارتعشت امام قبر لعازر (يوحنا ١١: ٣٣)، لكنه قبل كأس المنون (مرقص ١٠: ٣٨).

المسيح لم يمت عن ذاته، فهو ليس بحاجة إلى مثل هذه الكفارة. لقد مات عنا (١ بطرس ٣: ١٩)، (يوحنا ١٢: ٢٤). لقد تمم ما قد صرّح به قيافا عن غير قصد (يوحنا ١١: ٥٠)؛ مات الرب من اجل خطايانا (١ كور ١٥: ٣).

لكن بموته انتصر. عرفنا به النصرة حتى قبل موته، فقد سبق أن اقام امواتاً كثيرين (متى ٩: ١٨)، (لوقا ٧: ١٤)، (يوحنا ١١). قيامة الرب حققت النبؤات القديمة (١ كور ١٥: ٤). بموت الرب فقد الموت سلطانه (رومية ٦: ٩)، وابطلت تباعاً قوة ابليس (عب ٢: ١٤). ونحن بالاشتراك في موت الرب وقيامته ندخل في النصرة ذاتها (رومية ٦: ٣)، (فيليبي ٣/ ١٠). ان حياتنا باتت منذ قيامة الرب محتجبة في الرب (كولوسي ٣: ٣)، ويذوقها احباء الرب (رومية ٦: ٦).

بموت الرب تحققت القفزة إلى الحياة. هذا لا يفهم خارج المعمودية. على المسيحي ان يدخل في خضم هذه المعمعة. علينا ان نذوق الموت كل يوم (١ كور ١٥: ٣١). من لا يعرف الموت كل يوم، لا يمكنه ان يقبله متى اتى. المؤمن في يقين ان الحياة من الآن تعمل (٢ كور ٤: ١٠ ـ ١٢). بدخولنا الموت اليومي نذوق موت الرب ونختبر القيامة. وبالتالي فالمسيحي يموت من اجل الرب (رومية ١٤: ٧). ان موتاً يتمجد فيه الرب (يوحنا ٢١: ١٩)، يهبنا اكليل الحياة (رؤيا ٢: ١٠). بقيامة يسوع ما عاد للموت وجود (رؤيا ٢١: ٤). من احب الرب سيرغب في لقاء الموت طمعاً في وجه الحبيب (فيليبي ١: ٢٣).

وعليه، يتوجب على المسيحي ان يتذكّر كل يوم، وكل حين، انه لا بد أن يواجه الموت المحتّم، إلى أن يبلغ في النهاية إلى ذكر الموت المغبوط.

ان ذهن الانسان بات اسود كالجحيم بفعل السقوط. نحن في قوة تشدّنا وتحول دون استمرارنا في الضلال. وهذه القوة هي تذكّر الموت. عندما لا نتذكر الموت، نهمل الحياة. هذه نتيجة طبيعية يعرفها الانسان. انه يحس بخوفه على مصير الحياة، ولكنه لا يرى سبيلاً إلى نجدتها، إلا بالخوف من الموت، وفي هذا كل الضلال.

عندما ننسى موتنا الشخصي، نعيش على الأرض وكأننا خالدون. نسيان الموت يجعلنا ننطلق إلى التضحيات الجسام، من أجل الغير، من أجل الاشياء، من اجل كل شيء دون أن نفكر لحظة بذواتنا، بمصيرنا، بالابدية التي نحن اليها مدعوون. وعليه، عندما نهمل مصيرنا، فنحن نهمل تباعاً وصايا المسيح، فنرتكب الموبقات، ونهمل الصلاة، والوقوف أمام الله، ونبدأ باحتقار الامور الهامة تدريجياً، إلى ان يكتمل انزلاقنا إلى أعماق الهاوية حيث البكاء وصريف الاسنان. ان من ينسى موته الجسدي، يسعى إلى موته الروحي[1]. ومن نسي المصير الروحي، لا يعود هناك اية قيمة لحياته في العالم. لا معنى للوجود في غياب المنظور الروحي. ماذا ينتفع كل من ينشغل بالتلهي والثرثرة؟ بماذا ينتفع يوم الدين؟ ان حياتنا على الأرض تقرر مصيرنا في الدهر الآتي. ان من لا يدين احداً، لا بل يسامح الجميع دون استثناء، لا بد ان ينال الخلاص يوم الدين. ما نفع فضائلنا المزيفة عندما سيأتي الرب ليدين الاحياء والاموات؟

إن من يقبل كل ما ينزل عليه في هذا الدهر، دون أن يتأذى، أو يفقد رجاءه، وتطلّعه إلى الدهر الآتي، هو انسان جدير بالسموات (أيوب ١٥: ١٥). ذكّر نفسك انك ستموت. قل لها: ابائي وأجدادي رحلوا. لي ما لهم وما هو لسواهم. لا تضيّع وقتك بالتجوال والشطارة (نسبة إلى

(١) افسس ٢: ١ ـ ٦. كولوسي ٣: ١. رومية ٨: ١١ عبرانيين ١١: ١٣ ـ ١٦. ٢ كور ٤: ١٠.

الابن الشاطر). لا تسمّر عينيك في ما هو أرضي، فإنه زائل وإلى صيرورة. اجعل التوبة شعاراً لفكرك، وقلبك، إلى يوم الدين. بهذا تنجو وتكون لك الحياة. اجعل عمرك ها هنا، فرصة لتذوّق فرح المسيح وسلامه. اطلب الدهر الآتي ولو على حساب هذا الدهر، فذاك يدوم، وهذا يتحوّل. فتّش عن اناس يعلّموك أن وصايا المسيح حلوة، وأن التوبة هي السبيل إليه، وأن نبذ المآثم، هو من شيم أحباء المسيح. ليكن هذا دأبك مستعيناً إليه بصلاة الرب يسوع مقرونة بذكر الموت. ليس هناك أعظم من الثمرة التي تأتيك نتيجة للصلاة ولذكر الموت. من الصلاة الحارة يفيض ذكر الموت المقدس. الصلاة المقرونة بذكر الموت هي المذاقة المسبقة للدهر الآتي. وكلما ترسّخ ذكر الموت فيك، تصبح الصلاة حارة وملتهبة، وتصبح أنت أكثر شوقاً من ذي قبل.

لا بدّ لنا من ذكر الموت. انه دعامة حياتنا الروحية ومفجّرها وحاميها، ضابطها وموجهها. انه حماية لنفوسنا من الفساد الناجم عن الثقة بالنفس. ذكر الموت يعلّمنا أن الثقة بالنفس خطر وتفاهة.

اقبل في أعماقك مذاقة الآم الدهر الحاضر. في الواقع لا مفر منها. ان الآم هذا الدهر حمّام يرحض أوساخ النفس، ويخلصك من سماجتها. لا شيء كالألم يقدسنا. ليس هو فلسفة سادية أو ماسوشية. انه فرح ينبع من الآم الصليب. في قبول الألم تكمن النصرة. ان اقتناعك بذلك، يتضح من لهفتك على ذكر الموت. ان ذكر الموت محبب للذين يحبون كلام الانجيل، فلا تنسى ذلك (رؤ ٢٠: ١ ـ ٣). ان دود الدهر الآتي لا يتعب ولا ينام. وأفراحه أيضاً لا نهاية لها. جحيم الدهر الآتي لا موت فيه. الجحيميون عطشى إلى الموت يخلّصهم مما هم فيه. ولكن لا موت في الجحيم. في الجحيم يشتهي الناس الموت، كما أن الناس في العالم يشتهون الحياة. فاذكر موتك هاهنا، كي تقتني الحياة هناك.

اقنع بذكر الموت، فهو ضمانتك بقطف الحياة. اطلب رحمة المسيح فإنها تعينك على تذوّق الذكر المقدس.

أنت يا من تظن نفسك أهلاً للمكافأة هنا وثمة، اعلمْ أن الجحيم خطر عليك أكثر من خطره على الخطأة، لأن أم الخطايا هي الكبرياء، والاعتداد بالنفس والثقة بها. ان خطيئة الكبرياء كثيراً ما تكون مغطاة بقناع التواضع.

لقد عرف الآباء القديسون ذكر الموت المغبوط، ومارسوه وأحبوه. كاتب سيرة باخوميوس يعلمنا أن مخافة الله لا تأتي إلّا بذكر الموت، والنار، والدود الذي لا ينام. ان ذكر الموت يحميك من العدو الذي يتربص بك، فلا تغفل (١ بطرس ٥: ٨).

الخيال والتخيّل

الخيال طاقة رائعة حبانا الله بها عندما أبدعنا. الخيال جناح النفس به تحلّق في ذرى التأمل بعجائب الله (القديس ذياذخس فوتيق). الخيال قوة النفس الموجّهة لها نحو الله (القديس سمعان اللاهوتي الجديد). لكن بدل أن يكون الخيال طاقة تقودنا إلى تحقيق الصورة للصيرورة على المثال، صار مطية ابليس، يعبث به كما يحلو له (القديس نيقوديم الآثوسي).

هذا حصل بفعل السقوط. بالسقوط تعطّلت روعة الخيال، فتوقّف عن القيام بدوره. لقد انحرف الخيال عن مساره الذي جعله الله له. بالسقوط تمزّقت وحدة النفس وتشوّشت قواها. الخيال أحد القوى العظيمة التي ضُربت. لقد تعطّلت وظائف قوى النفس وانعكس فعلها (disoriented). لقد انقلب علينا الانسان الداخلي. لقد تشوّشت الطاقة العشقية وتشتت وحدتها disintegrated. فبدل أن يكون السعي إلى الله، صار لنا آلهة عديدة تجتذبنا وتشدّنا. كثرت الآلهة وتعددت. صار أمام النفس أرباب: (المال، الجنس، المجد، الشهرة، المجد الفارغ، العلم الزائل، . . .

الانسان كله تشوّش. الخيال تشوّش تباعاً. لقد مرض. ومرضه جرّ على الانسان الويلات. ترى ماذا يقول الآباء القديسون عن الخيال؟

السلمي يوحنا يعالج الأمر محدداً إياه على الشكل التالي: «الخيال هو انخداع البصر بما هو منظور، وانخداع الذهن بتخيل أمر لا موضوع له، ولا وجود له (dehypostacised object). الخيال هو انخداع العقل الحسي، وهو مشاهدة وهمية زائفة. انه احساس سرابي. انه رؤية وهمية

متوهّمة تقنع صغار النفوس القابعين في الضحالة الروحية. الخيال بعد السقوط، ينمو ويتعاظم، لا سيما عند المعتد بنفسه الذي يواجه مشكلات وجوده بعلم ذاتي يخلو من النصح والمشورة (القديس سمعان اللاهوتي الجديد).

وهكذا يتبيّن للقارئ أن الكلام يدور على أمرين لا واحد فقط: هناك الخيال imagination، والتخيل phantacy. الخيال هو الطاقة التي أبدعها الله فينا. أما التخيّل فهو الحالة المرضية الناجمة عن السقوط. التخيل إذا جاز التعبير، هو الخيال المريض أو مرض الخيال. والآباء القديسون في معرض كلامهم على تهذيب النفس، يدعون إلى تعهّد قواها، لا إلى قتلها أو اماتتها mortification، وبالتالي فإنهم يدعون إلى تعهد التخيل لا إلى قتله.

وهنا يسأل البعض: ماذا أخذ يسوع بتجسده؟ أي جسد أخذ؟ هل أخذ جسداً مريضاً أم غير مريض؟ يسوع أخذ طبيعتنا الانسانية كاملة، ما عدا الخطيئة. لقد أخذ يسوع جسدنا الفردوسي، أي جسد ما قبل السقوط. لهذا ففي يسوع كل القوى الانسانية: العاقلة noetic. والشهوانية epithymitic. والغضبية thymitic. في يسوع كل قوى الانسان، وإلّا كيف نقول في الكنيسة أنه انسان تام وإله تام؟ يسوع أخذ طبيعتنا الانسانية كاملة، ما عدا الخطيئة. القوى الانسانية في يسوع غير قابلة للخضوع لجاذبية الخطيئة. وما دام جسده غريباً عن الخطيئة، فإن القوى الانسانية تعمل فيه دون سقوط في الزلل، لأن ارادته خيّرة صالحة، ولا تميل إلى الخطيئة، لأنها متحدة بأقنومه الإلهي. وعند بولس الرسول، يسوع أخذ صورة عبد، صائراً في شبه الناس (فيليبي ٢ : ٧). يسوع صار في شبه الناس، وليس في كامل حالة الانسان.

الانسان عندما خلق، لم يكن يعرف النسيان (oblivion, amnesia). النسيان نقيض التذكّر، كما الجهل نقيض المعرفة. الجهل والنسيان عاهات وعيوب اقتحمت طبيعتنا بعد السقوط. الخيال تحوّل إلى تخيل. التخيل من الخيال. انه الخيال وقد ضربه المرض.

في السقوط، تفككت وحدة كياننا وتمزقت، فبتنا نجهل ما هو لله، وما هو لسواه. لقد فقدنا التمييز discernment ودخلنا في التصارع (رو ٧). ان تفكك الوحدة integrity بفعل تلف النظام البديع، هو ما ادّى إلى ضياع التمييز وفقدانه. عند القديس بالاماس الخلاص هو في النهاية اعادة الوحدة والانسجام إلى الكيان الممزق. سبقه إلى ذلك القديس مكسيموس المعترف.

إن المسيرة نحو الحالة الفردوسية الأولى، تستدعي تدخّلاً الهياً، الأمر الذي حققه يسوع بتجسده من مريم العذراء. لولا ربنا يسوع المسيح، لكانت حالتنا وحياتنا لا معنى لها ولا جدوى منها، ولكان الانتحار أمراً منطقياً مقبولاً.

وهكذا فإن حالتنا الداخلية esoteric في وضع اغتراب (alienation). حالتنا الحاضرة هي من نتاج السقوط، لكنها في الوقت نفسه طبيعية، فنحن لا نعرف حالتنا الفردوسية، إلّا أننا بفعل الروح نتلمّسها نتحسّسها ونرقى إليها بالحنين، مشدودين بالعشق الإلهي والافخارستية المؤلّهة. ان اكتشاف الخطيئة القابعة والمعششة في أعماقنا، هو بداية طريق العودة إلى انساننا الفردوسي الجميل. هذا واحد من غايات الكنيسة، وأمر من أجلّ أمورها في العالم.

العالم الذي نحن فيه مريض. انساننا مريض. الشيطان يشوّش النفس والعالم والقريب. وسعيه دائم إلى تشويش صورة الله فينا. الشيطان يستغل قوى النفس وتوجّهاتها المنحرفة المريضة، من أجل هذا الغرض. الشيطان يستغل الخيال والذاكرة وسواها ليذلّنا ويقتحم وجودنا. الانسان لا يمكنه أن يصبح لاهوتياً حقيقياً إلا بفعل الفضيلة ومحبة المسيح (أربعمئة قول في المحبة ـ مكسيموس المعترف). الاهواء تتحوّل بقوة الفضيلة. ان أصحاب الدرجات العلمية العالية، معرضون للخيلاء والزهو، وكثيرون منهم يشهدون لأنفسهم لا للحق (١ كور ١٢ : ٣). كل انسان عرضة لعبادة الذات autolatry في هذا العالم.

ترى ماذا يقول الآباء القديسون عن جنوح قوى النفس وعن مرض النفس؟ ماذا يقولون عن التخيل والخيال؟

أغلب الآباء يجعلون للأمر تقسيماً كلاسيكياً رغم انهم لم ينشغلوا بمنهجية فلسفية البتة:

١ ـ خيال صوري figurative imagination:

إنه مرحلة أولى من مراحل حركة الخيال في الطبيعة الانسانية بعد السقوط. تشترك الذاكرة في تنمية هذه الحركة وتوجيهها. الذاكرة تحرّك الخيال، والخيال بدوره يحرك الذاكرة. ويمكننا بعين الروح أن نختبر تفكّك النفس وتمزق وحدتها. والعجيب الغريب أن الخيال الصوري يمكنه أن يفعل في الانسان في كل الأعمار. انه يصيب اليافعين، حديثي السن، قليلي الخبرة، الشباب، البنات، الرجال، النساء، الكهول، الشيوخ، وكل انسان دون تمييز.
ويبدو تأثيره على الانسان في سن الشباب ـ كبيراً، وذلك نظراً إلى حيويتهم وقلة خبرتهم. لهذا فالشاب يرى أن الحقيقة تكمن في ما يصوره له خياله، أو ما يبدو لنظره وحواسه من سمع وشم ورؤية. كثيراً ما يلعب الخيال الصوري دوراً في جمع الشمل بين شاب وفتاة. إن أغلب تجارب الشباب تقع في نطاق التخيل والرؤية الحسية. إلّا أن المتدرّجين في القامة الروحية، الساعين إلى ملء قامة المسيح، لا بد أن يتحرروا من وطأة هذا النوع من التجارب، بحيث يكون الانتصار بالتخطي (القديس انطونيوس الكبير)، فالتحرر المطلق من هذه التجربة لا يتحقق إلا بالموت. ان الخلاص من أوجاع هذه المرحلة يُعرف باللاهوى apatheia, dispassion.

٢ ـ مرحلة بقاء الصور المتخيّلة:

إن بقاء الصور المتخيَّلة، هو في ذاته باب ينفتح على تجارب لا تعد ولا تحصى. فتخمّر الصور، وتراكمها ورسوخها في العالم الداخلي، من

شأنه أن يدفع إلى ظهورها بإيقاعات غامضة مبهمة مجهولة، لا نعرف كيف ومتى تتحرك فتبدأ عملها فينا. ان ضحايا هذه المرحلة كثيرون. ان أساس بقاء الصور يقوم على ذاكرة مريضة، وخيال مريض، وارادة مريضة، وطبيعة مريضة. وهكذا فتفاعل الخيال بالذاكرة يؤدي إلى تجارب كثيرة يُنكب بها الانسان وتُدك حصونه الداخلية بفعلها المنحرف.

حضارتنا المعاصرة تعمل (من خلال وسائل الاعلام والمطبوعات على أنواعها وروح الاباحية المستشرية القائمة على الفلتان الجنسي وتغييب القيم)، على بقاء الصور وتفاقم فعلها وعددها. وهكذا فالانسان المعاصر متعب للغاية، وقلقه كبير، وراحته مفقودة. نحن أمام تكنولوجيا متطورة وانسانية متقهقرة. هذه هي حال عصرنا.

ولا ينجو من بقاء الصور ابن امرأة. والخبرة تثبت أن الأكثر وعياً هم أكثر تعرّضاً، والأكثر بساطة، هم الأقل تأثراً. لا ينجو من بقاء الصور إلّا الروحيون المتعطشون أبداً إلى المسيح ميناء الأمان وضمانة المسيرة في بحر هذه الحياة.

٣ ـ في المرحلة الثالثة تتحوّل الصور إلى فعل.

يتجسد الخيال. يتحقق فعل الشهوة. هذه تعرف في الأدب النسكي الأرثوذكسي باسم، صورة الفكر representation of logismos. صورة الفكر هذه هي (noïma) في اليوناني. في هذه المرحلة تصبح الخطيئة بالفكر، خطيئة بالفعل، وتتحول من الوجود بالقوة، إلى الوجود بالفعل. الخيال المريض يعمل على اطلاق الخطيئة بالفكر إلى ميدان الفعل. ان غاية الشيطان، هي في أن نصبح مجسّدين للشر، لا مجرد متقبّلين له. والحياة الروحية هي في إحدى معانيها بلوغ النصرة على الطيش الحاصل بفعل تفكك الوحدة الداخلية. لهذا السبب يسمي بعض الآباء الحياة الروحية: (اعادة اللحمة) (integralization). صعوبة الحياة الروحية عند الانسان عموماً والشباب خصوصاً، تتأتى من رفضهم السيطرة على شرود الخيال،

ومن التساهل مع أمور هذا العالم، باقتبال مفسداته التي تشحن الخيال والذاكرة بالصور الشهوانية الكثيرة، فتتراكم في طيات العالم الداخلي منتظرة الفرصة السانحة لشن حروب التجارب علينا. الانسان بات عبداً لما يرى، ولما يسمع، ولما يشم، ولما يفكر. ما احوجنا في كل زمان ومكان، لا سيما اليوم، إلى التأمل بقول المرنم: «اجعل يا رب حارساً لفمي وباباً حصيناً على شفتي...» (مزمور ١٤٠: ٣). ان حراسة الفم مدخل إلى حراسة كافة الحواس. ان حراسة الفم رمز لكل حراسة.

للقديس سلوان الآثوسي كلام رائع في الفكر الروحي والخطيئة، ما هو؟

الفكر الروحي بحسب القديس سلوان الآثوسي:

تحصل الخطيئة بعد أن تمرّ في مراحل معينة من تطورها الداخلي. وأول أشكالها هو نوع من تأثير روحي يداني الإنسان من خارج. ويمكن أن يكون في بدء نشأته مبهماً غامضاً، وغير منظور بالكلية. فالمرحلة الأولى من تشكّل الخطيئة هي ظهور صورة ما في الإنسان الداخلي. وبما أن هذا الظهور غير مرتبط بارادة الإنسان، فهو لا يعتبر خطيئة. من هذه الصور ما له طابع مرئي حسّي، ومنها ما لهُ طابع عقلي، ومنها ما هو خليط. والصور الحسية عندما تخلف وراءها هذا أو ذاك من الأفكار[1]، يسميها الآباء النساك «أفكاراً».

والإنسان صاحب الذهن النقي العديم الهوى، وغير المستعبد (بفتح الباء)، يمكنه أن ينتبه إلى الفكر النابع من الدالة دون أن يتأثّر بالأفكار. لكنّه إذا كان ذا تربة ملائمة لتقبّل إيحاءات الفكر عندئذ، فإن قوة الفكر هذا، تسعى بشدة إلى فهم عالم الإنسان الداخلي، وتبلغ غايتها عندما تحث النفس المائلة إلى الهوى بأحاسيس شهوانية على درجة من العمق.

(١) logismos

وفي هذه الأحاسيس الشهوانية تكمن التجربة. ان لحظة الشهوة هذه، رغم كونها دليلاً على ضعف الإنسان، إلا أنها لا تعد خطيئة بل مجرد باب لها.

إن تطور الفكر الروحي يمكن وصفه على الشكل التالي: يجذب الحس الشهواني المتوثب انتباه الذهن. وهذه لحظة حرجة فيها الكثير من المسؤولية والقلق، وذلك لأن اتحاد الذهن بالفكر هو شرط لنمو الفكر وتطوره (المقصود هنا اتحاد الفكر الشرير بالذهن). والذهن ان لم يقطع اللذّة بإرادة داخلية حازمة، بل انما يتوثب للسكن في الشهوة ومعايشتها، فإنه يبدي تعاطفاً، وبهذا التعاطف يبدأ الحوار. وبالحوار هذا يتولد الارتباط. ومن الارتباط يتولد الرضا. وهنا فإن اللذة المتزايدة يمكنها أن تستعبد الذهن وتسيطر على الإرادة. وهذا يدعى الاستعباد. بعد هذا تتوجّه كل قوى الذهن المستعبد للشهوة تدريجياً، تتوجّه نحو ارتكاب الخطيئة سواء كان ثمة عوائق خارجية تحول دون ذلك أم لم يكن.

إن عبودية كهذه يمكن ألاّ تتكرّر، إذا كان الأمر مجرّد نتيجة لقلة خبرة الراهب المجاهد. لكن في حال تكرّرت مثل هذه العبوديات، فإن من شأنها أن تقود إلى حدة الهوى وتوتّره بحيث أن جميع قوى الإنسان تصبح أسيرة لهذا الهوى.

إن الحرب والصراعات التي يمكن أن تستمر في كل مراحل الفكر الداخلي، ينبغي أن تبدأ بظهور قوى الهوى التي تصاحبها لذة. والناسك يمكنه أن ينتصر في أية مرحلة مقبلة عندما يقطع الطريق على نمو الخطيئة. لكن منذ اللحظة الأولى، منذ أن تضعف الإرادة، يظهر تأثير الخطيئة، والراهب يحتاج إلى توبة حتى لا يفقد النعمة تدريجياً.

الإنسان القليل الخبرة، كثيراً ما يواجه خطايا الفكر. والفكر عندما يجتاز المراحل الأولى من تطوره ويصير ذا عزم وقوة، يكون قد دخل مرحلة التحول والانتقال إلى خطيئة بالفعل. فالإنسان إذا أراد أن يتحاشى الخطيئة عليه أن يشغل ذهنه بالصلاة وأن يتحده بالقلب (فالقلب في الأدب

الرهباني هو مركز الكيان). وقلنا آنفاً أن الذهن بموقفه الداخلي هذا، يحاصر الخطيئة. ويليق في هذا الصدد أن نذكر ما قاله النبي: «يا ابنة بابل، هنيئاً لمن يضرب أطفالك بالصخرة...».

والراهب عندما يبتغي حريته، فإنه يعلن الحرب على الأفكار، وتكون حربه هذه لا هوادة فيها ولا يعرفها إلا من اختبرها. وفي الحرب أو الجهاد ضد الأفكار تذوق نفس المبتدئ شيئاً من النصر والغلبة. وأحياناً تذوق الغلبة كاملة. ومع الوقت يتمكن الراهب من دراسة خواص الفكر الروحي وتفاصيله، حتى ولو دون الوقوع في الخطيئة فعلاً. وتدريجياً يتعلم ما هي قوة كل هوى من الأهواء. ويستطيع من كان كهذا الراهب، أن يراقب تحركات الأهواء في نفسه وفي الآخرين على حد سواء. ولبلوغ معرفة عميقة، لا بدّ له من الوصول إلى المرحلة الثالثة من الصلاة والبقاء فيها. وهكذا يمكنه أن يعاين كل هوى في مهد نشأته (أي انه يتمكن من مراقبة الأهواء الصغيرة قبل أن تكبر).

ويغلق الناسك مداخل قلبه جاعلاً ذهنه حارساً تحرّر من الخيالات والأفكار وتزوّد بالصلاة وباسم يسوع المسيح. وهكذا، يدخل في الصراع ضد كل تأثير يأتيه من خارج. وهنا يكمن جوهر اليقظة الداخلية الذي غايته أن يجاهد الراهب حتى بلوغ اللاّهوى.

ان تحفّظ الذهن أمام الأفكار، يتطلّب جهاداً طويلاً، مريراً ودقيقاً. فالإنسان الغاطس في مؤثرات عديدة، وصور متنوعة، لا يمكنه أن يدرك أنواعها والسبب هو كثرة المؤثرات وتغيرها المستمر. إلا أن الناسك هو فلاّح الهدوء الداخلي، المصلوب عما هو خارجي، والمركّز كل الجهد، على الداخلي من كيانه. هناك في الداخل تبدأ المواجهة الفردية مع الأفكار، (مع الأفكار الأكثر قوة في نفسه). بهذه الشروط يستطيع المرء أن يعرف نوع الأفكار وقوتها الخبيثة. ومن لم يكن منتبهاً لما هو داخلي، يسقط بسهولة تحت تأثير الأفكار ويصير عبداً لها. وعندما تخضع الإرادة لهذه الأهواء، يتداعى المرء روحياً ويصل إلى درجة التماثل مع روح الأهواء.

وعندما يقبل فيه كل فكر شهواني، (والفكر الشهواني هو عادة وليدة مؤثرات شيطانية)، يصبح اداة في يد الشيطان.

والقلب الذي يصلي بعمق، كثيراً ما يشعر بأن روحاً ما تأتيه من خارج. لكن في حال عدم اضطراب اليقظة الداخلية، تتلاشى هذه الروح وتختفي. وهكذا، فالإنسان بعد الصلاة لا يستطيع أن يقول: من؟ لماذا؟ كيف جاء هذا الروح؟

وأحياناً يحصل أثناء الصلاة العميقة أمر يتعذّر وصفه، حيث أن خيالات نورانية تعبر أمام الذهن محاولة أن تجتذبه. والذهن، في حال عدم اكتراثه لهذه الخيالات، فإنها تعود وتلحّ عليه كما لو كانت تقول له: «سآتيك الحكمة والمعرفة، لكن إذا رفضتني، فلن تراني أبداً». «إلا أن الذهن الخبير لا يكترث لكل ذلك، وهكذا تغادره هذه الخيالات دون أن يعرفها أبداً. لكن الذهن لا يعرف إذا كانت هذه الخيالات عدواً أم ملاكاً. فمن الخبرة يعرف أنه إذا انجذب نحو هذه الخيالات سوف يفقد صلاته، ويعود من جديد ليطلب الصلاة بتعب وجهاد كبيرين. والخبرة أثبتت أن الإنسان بحاجة إلى عفة كاملة في الصلاة، وأيضاً، بحاجة إلى أفكار صالحة، وإلا، سرعان ما يجد الذهن أن الفكر الشرير قد نما واشتدّ عوده وهكذا لا يخرج الإنسان من السقطة نقياً، سليماً. إن غياب الصلاة النقية كارثة لا تعوض. إن هذا لا تفهمه الغالبية الكسولة، لأن القليلين فقط يبلغونه، لكن، بعد تعب كثير. ان جوهر الحياة النسكية عند الأب سلوان، يمكن تلخيصه كالتالي: حفظ القلب من كل فكر غريب، باليقظة، وذلك لكي يجانب القلب كل المؤثرات الغريبة ويحظى بالوقوف في حضرة الله بصلاة نقية.

إن هذا يدعى «الهدوء الداخلي»، وقد ورثناه عن الآباء القديسين منذ بدء المسيحية إلى يومنا هذا. لهذا يمكننا أن نتحدّث عن الحياة النسكية عند سلوان كما عاشها تماماً وعلى الطريقة الأرثوذكسية. قال الأب سلوان: «إذا كنت لاهوتياً، فيجب عليك أن تصلي بنقاوة. وإذا ما كنت تصلّي بنقاوة، فأنت لاهوتي». الراهب ليس لاهوتياً بالمعنى الأكاديمي

للكلمة، إلا أنه لاهوتي، لأنه بالصلاة النقية يبلغ إلى الثيوريا الإلهية حقيقة. بدء الطريق إلى الصلاة النقية هو الجهاد ضد الأهواء. والذهن كلما تنقّى من الأهواء ازدادت قدرته في الحرب ضد الأفكار، وعظم صبره وتعاظم في الصلاة وفي الثيوريا. والقلب إذا ما تحرر من ظلمة الأهواء، تصبح معايناته أكثر نقاء وحكمة. والراهب يفضّل هذا الدرب على درب اللّاهوت العلمي الأكاديمي. لكن هناك امكانية أن يصل المرء عبر النظرة الفلسفية المحضة إلى حدّ يفهم فيه أن خبراتنا واختباراتنا لا تجدى أمام الله، فيبلغ الذهن إلى حالة يبدأ بعدها بالصمت. إلا أن صمت الذهن، ذهن اللّاهوتي الفيلسوف، بعيد كل البعد عن الثيوريا الحقة حتى ولو بلغ هذا الفيلسوف حدود هذه الثيوريا. إذ يستحيل بلوغ الثيوريا بدون نقاوة القلب. والقلب المتنقي من الأهواء يمكنه أن يعاين الله غير المدرك. والذهن إذا ما كان في هذه الحالة، يكون مغتبطاً وشاعراً بعظمة الله.

إن طريق الفيلسوف إلى الثيوريا ليس هو طريق الراهب الناسك. فذهن الراهب لا ينشغل بالحزلقات العقلية، إنما يسهر بهدوء وهو يحرس مداخل القلب خشية دخول ما هو غريب. والقلب، يعيش في هذا الهدوء باسم المسيح وبوصية المسيح. حياة القلب والذهن حياة فريدة، والاثنان يضبطان ما يدخل القلب، ليس بالبحث المنطقي العقلي أو بالتحليل، بل باحساس روحي خالص صرف.

والذهن عندما يتحد بالقلب، فإنه يراقب الصور ويميزها، وأيضاً يميز المؤثرات التي تظهر حوله للتأثير على القلب والذهن معاً. ان جيشان الأفكار الآتية من خارج، عنيف للغاية. ولكي يتمكن الراهب من ضبطها وسحقها، يتوجب عليه حتى النظر (أثناء النهار)، والسعي إلى الحد قدر المستطاع من تفاقم المؤثرات الخارجية، وإلا فإن هذه المؤثرات ستهاجم القلب ساعة الصلاة، في حرب شعواء كلها شراسة وفوضى. المطلوب في هذه الحالة تيقّظ القلب أثناء الصلاة. فبعد جهاد طويل، أصعب من كل الجهادات الأخرى، ينصقل الإحساس الروحي داخل القلب. كذلك يكتسب الذهن القوة لطرد كل هجمات الأفكار الشيطانية الشهوانية،

وذلك بسبب النوح. ثم ان الصلاة المستمرة، مع الإحساس بحضرة الله وفعاليته الشاملة، تولد في النفس قوة ونقاوة. هذه هي درب الراهب، وهذه هي الدرب التي سلكها الأب سلوان.

أما طريق اللّاهوت الفلسفي والعلمي، فيختلف. في الطريق الفلسفي لا تسود الصلاة بل التحليل والعقل. والذين يسلكون هذا النهج، كثيراً ما يضلون، لأنهم يبلغون إلى فهم عقلي سهل في ما يختص باللّاهوت التنزيهي وأشكاله، ويستمتعون اللذة العقلية التي يختبرونها، غير آبهين أو مكترثين للأهواء، ويظنون أنهم قد بلغوا إلى ما يتكلم عنه الأريوباغي ديونيسيوس، بسبب انهم قد استوعبوا نهجه اللّاهوتي وفكره، بينما هم في الحقيقة دون المطلوب ودون الواحد الذي حاجتنا إليه وحسب، (اشارة إلى انجيل مريم ومرتا).

والراهب سلوان لم يجد جوهر الهدوء الداخلي المقدّس في الاعتزال أو الانكفاء إلى البرية، بل وجده في السكنى الدائمة بجوار الله... وهذا هام جداً، ويجب عرضه بتفصيل وتدقيق. قال الأب سلوان: ان الانقطاع إلى البرية ليس هدفاً في ذاته بل هو مجرد وسيلة مساندة. فالانقطاع يساعد على خنق الصور الخارجية والمؤثرات العالمية ويساعد أيضاً على الابتعاد عن هموم الحياة المعيشية، وهكذا يبلغ المرء إلى الصلاة النقية، وهذا يحصل إذا كان الانقطاع برضى الله لا بمقتضى المشيئة الذاتية وذلك ابتغاء لحياة أسمى. ثم ان الاعتزال والبرية وكل نسك آخر، يبقى عديم الثمر، وذلك لأن جوهر حياتنا لا يكمن في النسك بمقتضى المشيئة الذاتية، بل في طاعة مشيئة الله.

كثيرون يظنون أن نمط الحياة الأسمى هو في البرية، وآخرون يرون الحياة الأسمى في الاعتزال، وآخرون يؤثرون الجهالة بحسب المسيح (على حد قول بولس الرسول)، وآخرون يؤثرون الخدمة في الرعية، أو الاعتكاف، على علوم اللّاهوت وما إلى ذلك. أما سلوان، فلا يرى أن أحداً من هذه هو نمط للحياة الروحية الأسمى، بل أن كل نهج من هذه

المناهج المذكورة، قد يكون الأصلح والأنسب لهذا أو ذاك من البشر، لا سيما إذا اتفق وارادة الله من أجل خلاص فلان وفلان...

ومهما كانت مشيئة الله لكل واحد، بصرف النظر عن طريقة النسك أو مكانه الجغرافي أو شكله، فإن ابتغاء الصلاة النقية يظل واجباً لا غنى عنه في أي حال من الأحوال. والصلاة النقية كما يراها الأب سلوان تأتينا بالانسحاق والتواضع، ومعرفتها تتأتّى من اتحاد القلب بالذهن. ان هذا النوع من الصلاة يعرفه الكثيرون من المؤمنين، وفي حالات نادرة، يتم الوصول إلى الصلاة الكاملة. نوع آخر من الصلاة النقية هو أن يبقى الذهن حبيس القلب، ومنه يتأمّل الله بهدوء. ان ما قيل بشأن طريقة الصلاة هذه، هو مجرّد وجهة سلبية، لأن الوجهة الإيجابية تفوق كل فكر بشري. فالله نور لا يدنى منه. ووجوده هو فوق كل شكل أو صورة مادية كانت أم عقلية. والذهن إذا ما انشغل بالتحليلات أو العبارات أو المعاني أو الصور، فلن يبلغ إلى الصلاة الكاملة.

عندما يمثل المخلوق أمام الخالق، أي الذهن المخلوق، أمام الله الخالق، يمكنه عندئذ أن يبلغ الصلاة الكاملة، لا سيما بعد أن يكون قد هجر كل ما في العالم بما في ذلك جسده نفسه، فلا يعود المرء يعرف إذا كان في الجسد أم خارج الجسد ساعة الصلاة.

إن الصلاة النقية هي هبة من الله نادرة، ونيلها لا يعتمد على جهد الإنسان إنما هي قوة من الله الذي ينقل الانسان إلى نور عالمه (عالم الله) بلطف ودماثة لا مثيل لهما، أو، لنضع الفكرة في عبارة أفضل: يظهر النور الإلهي فيغمر الإنسان كله، فلا يعود يفكر في شيء ولا يعود يتذكر أي شيء. كان الأب سلوان يردد: «ان من يصلي بنقاوة هو لاهوتي. ومن لم تكن عنده هذه الخبرة، لم يبلغ إلى اللّاهوت الذي هو معاينة (ثيوريا). فالذهن الغريب عن النقاوة، والذي لم يغتسل بالنور الإلهي، هو عرضة للخيالات حتى ولو كانت خبرته العقلية مصقولة جداً. فهو عندما يسعى إلى الله، يعيش في تخمين، ويتخيل صوراً يظنها - مع شديد الأسف - اعلانات الهية حقيقية، دون أن يفهم غلطته».

ما هي نتائج عمل الخيال؟

من شأن الخيال أن يقود الإنسان إلى تأليه ذاته self- deification، وإلى رجرجة وزعزعة الثقة بالله، فتكثر نتيجة لذلك، الحروب الروحية الداخلية غير المنظورة، وتتفاقم التجارب، وتستفحل هجمات الأخطار. وكتاب اقوال الآباء الشيوخ، وبستان الرهبان، وقال شيخ، وسواها، دليل على كل هذا. ان تأليه الذات هو شر بلية. انه الخطيئة التي سقط بها آدم.

كذلك من شأن الخيال أن يولّد في النفس حالات نفسية وهمية زائفة pseudo psychological states، بحيث يظن المرء ان ما فيه طبيعي ويخلو من الإعوجاج، وأصيل authentic، وليس بحاجة إلى سواه، وفطري (innate). فيخال أن الشرور والأعمال القبيحة أمور طبيعية اوجدها الله فيه عندما خلقه[1]. الخيال المريض سبب اسقاطات كثيرة projections قائمة بين الشخص وذاته، والشخص والآخرين، افراداً وجماعات. ومن نتائجه، توهّم الكثيرين ان عيش العفة الجسدية مدعاة ضرر يلحق الجسم organism ويؤذي فيزيولوجيته ويعطّل طاقاته. فالاباحية مصدر صحة وسلامة integrity. وفئة ترى ان اشباع الشهوات الجسدية امر لا بد منه، والاّ تزعزع البنيان النفسجسدي psycho-somatic structure. ان هذه القناعة اذا ترسخت، من شأنها ان تزرع في النفس بذار الانخداع self-deception، وتقود المرء إلى حالة من الهرطقة الايديولوجية اذا جاز التعبير.

الخيال المريض يهدم البنيان الروحي، وكل بيت الفضائل. الصلاة صعبة كونها ترتبط بالخيالات والصور. وربما في هذا يكمن اخفاق كثيرين من المسيحيين في عيش حياة الصلاة والدخول إلى رحابها وعالمها. في هذا ايضاً يكمن نفور الناس من الحياة العبادية، واحجامهم عنها، وارتياد دور العبادة بإيقاعات متذبذبة دون ثبات ومواظبة. وكثيراً ما يتخيّل المصلّي ان

(١) هذه حالة العائشين للدنيا وملذاتها.

من غير الضروري الالحاح في الطلب، أو ان القداسة حاصلة بدون جهاد، فالله محبة، أو ان عيش الفضائل أمر ممكن بدون العون الالهي.

ان الذين اجتازوا مرحلة التطهّر يعلّموننا ان النقاوة الحقيقية تخلو من الخيالات والصور. الآباء الاطهار يتكلمون عن نوعين من المعاينات theoria: النوع الأول هو نتيجة انسكاب نعمة الروح القدس على النفس. والنوع الثاني هو نتيجة تحليل عقلي واستنتاج. هذان النوعان متباينان ولا مجال للتشبيه بينهما. النوع الاول يتولّد في القلب المنفتح على المسيح. انه وليد اتصال الانسان بالله واتحاده به. أما الثاني فهو وليد الاتصال بالكون والخليقة وحسب. الخيال المريض يعمل في نطاق النوع الثاني.

الانبياء كانوا يتلهوتون (theologize)، ويلهجون بالله، ويتنبأون بدون خيال[1]، وذلك بفعل الاعلان الالهي المنسكب في القلب. ان نبوة الانبياء هي كشف لمشاهدة روحية على حسب ما تقول الترتيلة: (. . . . . نلت بالعمل المرقاة إلى الثيوريا ايها اللاهج بالله. . . .). ان المشاهدة النبوية (prophetic theoria) هي نتيجة انسكاب نعمة الروح القدس في القلب: (. . . . وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب. . . . الناطق بالانبياء. . . .). نبوة الانبياء لا صلة لها بالخيال وليست هي نتيجة عمل عقلي، او فذلكة تحليلية، رغم ما للفعل العقلي من دور في التنبؤ. الانبياء واللاهوتيون هم أناس ضبطوا شرود الخيال، بالنسك والنعمة معاً.

لا بد من النسك والجهاد ضد التخيّل، كمرحلة اساسية تسبق تحرره وتحريره. الخيال عملاق كبير يستبد ويبطش بسبب ضعف الطبيعة البشرية وتمزقها. وكبح جماحه يستحيل بدون المسيح. الاباء القديسون يرون الخلاص من مرض الخيال، بالاتصال بالمسيح، فالكتاب المقدس

(١) الكلام عن الوحي او التنزيل يعد من المواضيع الجميلة اذا ما عولج على اساس الخيال والتخيّل.

يؤكد ان مهما طلبنا باسم الرب يكون لنا (يوحنا ١٤). الآب الروحي عون كبير في هذا المجال.

إلا ان التحرر من طغيان الخيال وترويضه، أمر لا نبلغه بسهولة. نحتاج من أجله إلى منهج تقدمه لنا الكنيسة بخبرتها وحياتها وصلواتها وآبائها. ان أي كلام عن غلبة الخيال وترويضه، لن يجدي، ولن يكون مقبولاً، الاّ اذا نطق به قديسون عاشوا في المسيح، وعرفوا كيف تكون الغلبة على الضعف بالمسيح.

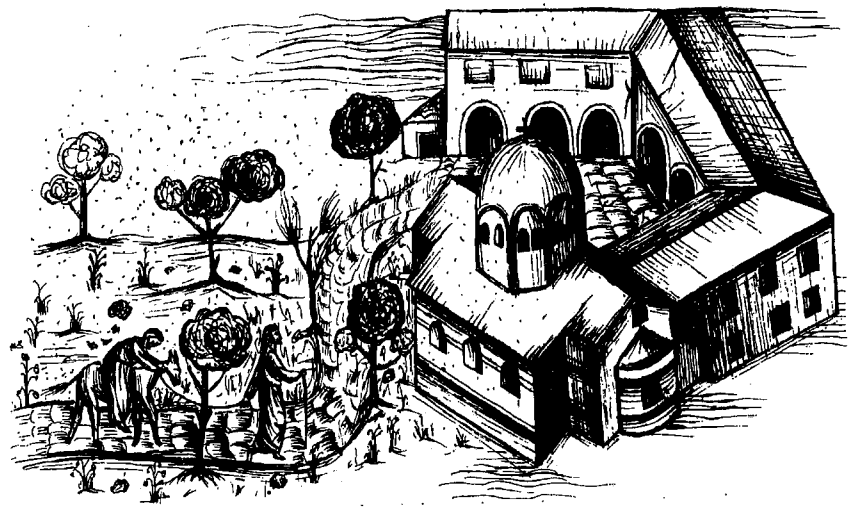

- الابوة الروحية -

الارشاد الروحي ليس علاجياً therapeutic، رغم انه في التحليل الأخير يسعى إلى الشفاء، فارشاد لا يتطلع إلى الشفاء لا دور له ولا معنى. وطبيب لا يعرف ان يداوي، لا دور له، ولا قيمة لوجوده. لماذا هو غير علاجي؟ ولماذا هو علاجي؟

من الوجهة الدنيوية، لا يقيم الناس اية قيمة للارشاد الروحي، فهو أمر يمكن الاستغناء عنه، بتحويله إلى بند من بنود التحليل النفسي. أما ان يكون له دور - وهذا من الوجهة اللاهوتية والكنسية، فذلك لأن الاعتراف سر يقوم على تحوّل. والتحوّل يستتبع الشفاء.

الشفاء الحقيقي يقوم على اعادة العلاقة مع الله. لا شفاء بدون الله. العالم المعاصر يطلب الشفاء، لكن بمعزل عن الله.

وعليه، فمن الوجهة الايمانية لا بد لمن يرغب الدنو من الله، ان يكون قد عرف نفسه اولاً. من هنا فالارشاد يقوم على اركان ثلاثة: (الله، المرشد، المعترف). الله لا بد منه. انه واجب الوجود في الارشاد الروحي. والهم الارشادي لا ينحصر - مسيحياً - بمعرفة انزعاجات distress النفس، وقلق الفكر anguish.

ويرى الباحث Kenneth Leech في كتابه (Soul friend) ان الهم الارشادي يقوم - في الواقع الراهن - على:

١ - نزوع المرشد المسيحي إلى معالجة الهموم والانزعاجات.
٢ - ممارسة الارشاد على نحو عيادي ومكتبي، لا على نحو كنسي مرتكز إلى روح الجماعة وحياتها.

٣ ـ ظهور الارشاد والاعتراف بمظهر ذاتي، بحيث ان المشكلة تنحصر بحدود الفرد.

٤ ـ الارشاد ليس الا سعياً إلى تأقلم اجتماعي، عبر تحرر الفرد من القلق لبلوغ حالة من سلام فردي. (لن ندخل في تفنيد هذه البنود وتحليلها الاّ بسياق البحث.)

الحياة بحسب الروح القدس، هي هاجس المرشد، وهي قاعدة الصحة الحقيقية في المفهوم الكنسي. لا بد للمرشد، لكل مرشد، ان يدرك ان الارشاد ليس حل مشاكل فقط (problem solving).

في الارشاد ـ بشكله الحالي ـ طلاق بين فكر الكنيسة وحياتها، فالارشاد لا بد ان يقوم على قاعدة اللاهوت. بدون لاهوت لا يقوم ارشاد[1]. اللاهوت ليس مجرد عمل اكاديمي، سكولاستيكي، ينحصر تداوله في جماعة النخبة، او الصفوة. فكر الكنيسة ليس حكراً على القياديين. السؤال الاصيل هو: كيف نجعل البوح اداة للشفاء؟ ما هو الشفاء؟

ان احدى معاني الشفاء هي النمو. المرشد يمدّك ويطلقك، ويفتح عينيك على نواميس الله، ويساعدك على اختيار النمو لا الموت. «النمو» هو لاهوت يبغي خدمة النفس. ليس النمو المعني عملية معقلنة intellectualized، وليس هو انطلاقة ثقافية بالمعنى الضيق للكلمة. يمكن ان يكون المرء ذكياً، لكنه في جمود وعدم نمو. ويمكن للمرء أن يكون ذا نضوج عاطفي، دون ان يؤول ذلك، إلى تجاوبه مع مستلزمات الايمان. ويمكنه ان يكون جداً لاحفاد، دون ان يعرف من اين يأكله الشر والفساد.

وبالطبع، من السخف الظن ان ليس من صلة بين الروحي والنفسي، بين الديني والدنيوي. من السخف عزل القطاع الروحي عن سائر قطاعات النفس. كيف تفكر؟ كيف تسلك؟ كيف تعيش؟ كيف تفكر وكيف تعيش امران متلازمان.

(١) الأب الكسندر شميمان ـ الكنيسة، العالم، والبشارة ـ 1979-SVS—

وعليه فلا بد ان يقوم العمل الارشادي فيحقق مرماه، على معطيات ومرتكزات سيكولوجية وثقافية. فالشفاء الروحي ليس مجرد، روح فقط (mono-spirito). ويبقى في النهاية انه روحي في طابعه، لأنه يحتاج إلى قوة الروح القدس. ان اسئلة كثيرة تعترضنا هاهنا: ما صلة العلوم بالروح القدس في العمل الارشادي؟ هل تعالج شؤون الدين بمعايير الدنيا؟ هل يعالج المحلل شأناً روحياً؟ وهل يقدر المرشد ان يبت في مسألة نفسية؟ هذه وسواها من الاسئلة، لا غنى عنها اذا توسعنا، وسوف نأتي عليها في سياق البحث، لكن بايجاز.

الكلام عن ابوة روحية، يستلزم بنوة روحية. انت اب لأن لك اولاداً. لا ضرورة للزواج كي يصبح المرء اباً. الابوة الروحية لا تستلزم وجود الزواج. كم وكم من زيجات لا ابوة فيها. الابوة فعل هي، يمد بالنمو الواجب ابناء المسيح واخوته (لأنه ليس لكم اباء كثيرون، لكني انا ولدتكم في المسيح) (١ كور ٤: ١٥ ـ ١٦).

الابوة الروحية هي قيادة البنوة نحو العلاء، نحو الحياة التي من فوق، دون احتقار التي تحت. الحياة في الروح، لا تحتقر العالم وما هو قائم فيه. انها اكتشاف النواميس العامة التي سرّ الله بها عند خلق العالم (١ تكوين: ٢١). الولادة الروحية سر يفوق في دقته سر نمو الجنين في بطن امه. للحبل علامات تعلنه، هكذا للولادة الروحية ايضاً ثمة ما ينبئ عنها ويبشر بحدوثها. الولادة الروحية هي انفصام عن العالم، دون التخلي عن الواجب المقدس به وبشؤونه. انها تفترض نمو الضمير وفعله وحركته. انها حس رهيف نحو الخير ومقت عنيد للشر وما يرتبط به. من ثمارها، احساس عميق بالضعف والمحدودية، وشوق متزايد إلى المسيح. في الولادة الروحية يكتشف الانسان انه الاضعف في معركة الروح، الأضعف في حلبة الخطايا والمواجهة مع رئيس هذا العالم (رومية ٨: ٣٧). الولادة الروحية هي ام الوداعة والتواضع، وحاضنة الصلاة الحقيقية. انها ثمرة مخاض وألم (غلا ٤: ١٩)

الابوة الروحية فن. انها نهج ومضمون. لا بد أن يكون للمضمون

نهج يحتضنه. بدون النهج لا نعرف كيف نصل إلى المضمون. حياة يسوع المسيح هي المضمون. ما هو النهج؟ النهج الارثوذكسي تقليدي (التقليد الشريف). لا يقوم النهج على اسس علمية، فهو لا يخضع لها. انه يعتمدها بمقدار ما تخدم وصول حياة يسوع الى نفوسنا. نهج الكنيسة يقوم على التطهر والتنقية. ويستمر، بفعل الروح القدس، لأن الشفاء المنشود هو في النهاية من ثمار محبة الله. النهج الروحي ليس كلاماً عن افكار (ideas)، بل هو عن افكار من نوع آخر (logismos)[1]. الله ليس فكرة (idea) ولا هو مجرد روح، فقد تجسد. اللاهوت ليس علماً عقلياً بات من مهام الصفوة وحكراً عليها. في هذا بداية ضلال. اللاهوت هو صوت الحياة الالهية. بالتالي فالمنهج اللاهوتي الكنسي يقوم على التحرر من طغيان الاهواء لبلوغ النصرة المنشودة. ما هي النصرة؟ انها ان يسترجع الانسان سلامته ووحدته integrity. ان يرفع التمزق، ان يزول الضياع. الشفاء الروحي هو اعادة العافية لقوى النفس المريضة. انه ثمرة شفاء النوس. فغاية الحياة الروحية ان يشفى النوس. في غياب نوس[2] معافى، يستحيل اقتناء الروح القدس. اللاهوت الحقيقي، هو ثمرة شفاء النوس والدليل إليه. اللاهوت ثمرة العافية الروحية، والعافية اساس اللاهوت. انهما امران متلازمان لا ينفصلان.

العقائد امور معقودة، لأنها لا تُعدّل ولا تتبدّل. انها صورة الحياة الحقيقية. ليست العقائد مادة فكر وثمرة فكر، بل هي تعبير حياة. الحياة تقاس بموجب العقيدة، والاّ ما جدوى العقيدة؟ وعليه، فكل فارق عقائدي يفتح الباب إلى شفاءات مختلفة. المزيد من العقائد المتباينة، يؤول إلى المزيد من الحلول، وفي هذا ضلال، لأن الحق واحد وثماره تلازم وحدانيته. كلامي هذا لا يجدي اذا كان اللاهوت ثمرة عمل فلسفي لا ثمرة قلب تنقى وتتطهر. هذا الباب يطرح علينا تساؤلات عديدة: ما

(١) راجع القسم الأول ـ باب الافكار logismos
(٢) راجع القسم الأول ـ باب النوس.

نطاق العمل الروحي؟ ما نطاق علم النفس؟ ما نطاق الفلسفة؟ سأحصر الردود بأمرين: ١ ـ الابوة الروحية.
٢ ـ علم النفس.

١ ـ علم النفس: علم النفس هو ثمرة العالم الغربي، وهو بذلك غير مرفوض. نطاقه العام هو الإنسان، وفي هذا يتفق مع الابوة الروحية. أما نطاقه الخاص فهو **العقد** عموماً complexes. أما نطاق الابوة الروحية فهو **الاهواء**. بالتالي كل سعي إلى تحجيم اي من النطاقين هو اساءة إلى الاثنين معاً، فيستحيل ضم النطاقين (النفسي والروحي). ما يمكن فقط، هو استلهام الاثنين، مع الاقرار بفرادتهما. من غير اللائق الخلط بين التقنية السيكولوجية وتلك الروحية، وذلك لأن تقنية الاولى تتوخى العقد، أما الثانية فتنشد الاهواء. الاهواء والعقد امران متباينان. الاّ ان العقد تؤثر في الاهواء. الداء النفسي يمكنه ان يعيق النمو الروحي. هذه حقيقة راسخة، قد لا يقبلها كل المسيحيين، وهم في ضلال، اذا اصروا على الرفض. علم النفس باب جديد لموضوع قديم. لا يمكن تجاهله في حالة العقد.

ان نطاق علم النفس هو anthropocentric. اي انه يتمحور حول الانسان. أما النطاق الروحي فهو theocentric. اي انه يتمحور حول الله. «النفس» في علم النفس، هي كلام عن لا توازن سيكولوجي. النفس في علم النفس، ليست مخلوقة على صورة الله. لا خلط بين اللاهوت والسيكولوجيا ـ انا لا ادعو بالطبع الى تكفيره وتلحيده لمجرد انه (anthropocentric)، الا اني ارى محدودية في نطاقه. او ان فرادته تجعلني ايضاً ارى النطاق الروحي فريداً ومحدوداً. لماذا؟ لأن الآب الروحي عاجز عن التعاطي مع العقد. فالعقد ليست ميدان عمله واختصاصه. في هذا ينقسم المسيحيون الى:

١ ـ فئة لا تبالي بالأمرين معاً.
٢ ـ فئة تقدس النطاق الروحي، فتحتقر معطيات علم النفس. (والخلط ينم عن خطر واساءة)

٣ ـ فئة ثالثة تقدس علم النفس فتحتقر الأبوة الروحية. (هذه الفئة ترى في العلم والحداثة أساساً للكل).
٤ ـ وفئة تُجل فرادة النطاقين، (وهذا رأي).

ويلتقي العلم النفسي والعلم الروحي من جهة علاقة العلمين بالماضي وارتباطه بالحاضر والمستقبل. فعلم النفس يحتاج إلى سببية كي يؤتي ثماره causality. كذلك فإن مبدأ التشخيص قائم في العلم الروحي. لا تشخيص خارج السببية. إلّا أن الشفاء في المفهوم الأرثوذكسي مرهون بالتأله والثيوريا. والثيوريا هي من ثمار استنارة النوس والتحرر من الأهواء. ان علم النفس لا يفرّق بين مخلوق وغير مخلوق. بين جوهر وقوى. أما اللاهوت فيقوم على اله غير مخلوق أحب خليقته فدعاها إليه. علم النفس لا يميز بين مرض ناتج عن عقد، ومرض ناتج عن شيطان. نطاق العمل الشيطاني متميز. على كل نحتاج إلى علماء قديسين يكلموننا عن دور الشيطان في العقد. كلمة شيطان لا قيمة لها في علم النفس، أما في اللاهوت فهي أمر بالغ الأهمية. علم الشفاء (psychotherapy) مرادف لمعرفة الله (theognosia) إذ لا شفاء بدون معرفة الله، ويسوع يقول: أنا هو الطريق والحق والحياة. أنا لا أدعو إلى خلط، فهذا أرفضه. ولا اتطلع إلى ضم الواحد إلى الآخر، فهذا احتقار لكليهما. أنا أرى في الأمرين فرادة. لكل من النطاقين فرادته. وفي اقراري بالفرادة، فأنا لا أحتقر أيّاً منهما، ولا أكفّر النطاق النفسي، وأيضاً لا احجّم من قدرة الله. ان هذه مسألة لا يبت في دقائقها إلّا قديسون كبار وعلماء كبار.

النطاق الروحي يتعامل مع الأفكار logismos. هذا كلام أرثوذكسي. تمييز الأفكار ممكن بعد شفاء النوس، لا قبله. ان غاية الاعتراف هي استنارة النوس. الاعتراف المعني هو توبة واعتراف. الاعتراف لا يقوم على البوح فقط. مبدأ البوح أساسي في الاعتراف. لكن مجرد البوح هو ضرب من ثرثرة لا أكثر. إذ لا قيمة للبوح بدون توبة.

من هو المعالج (therapist) في النطاق الروحي؟

عند القديس غريغوريوس اللاهوتي، المعالج (therapist) هو الكاهن.

الكهنوت عنده علم علاجي. الكهنوت هو فن الشفاء. المسيحية هي أيضاً: فن الشفاء. بالطبع ليس من تطابق بين الكهنوت والمسيحية. فالكهنوت خادم رسالة المسيح. المسيحية تقوم في الكهنوت دون أن يحويها، كما أن يسوع كان في بطن مريم دون أن تحويه وتحدّه. الكاهن هو راعٍ، أب، وطبيب. انه قائد قطيع. انه أب روحي (١ كور ٤: ١٥ ـ ١٦) ـ (١ كور ٤: ١٧) ـ (غلا ٤: ١٩). ان عمل الكاهن ليتورجي، أسراري، ونسكي. وما دام الكهنوت بهذه الحدود، فمن غير اللائق أن يغيب علم الارشاد عن الكهنوت. الكاهن هو مرشد، وإذا لم يكن مرشداً، فماذا يكون؟ ما دوره بدون ارشاد؟ ماذا يبقى للفرادة الكهنوتية إذا أفرغت من الارشاد؟ في نظر الناس، يقترن عمل الكاهن بالواجبات والزيارات. هذا تحديد مغلوط إذا انحصر الكهنوت بالزيارات.

في الكنيسة الأولى لا بد للشفاء أن يسبق المعمودية (الموعوظين). المعمودية تلي الشفاء. انها تتويج له. المعمودية تلي التنقية والتطهر، دون أن يعني ذلك احتقار معمودية الأطفال[1] وشجب الدعوة لها. فهذا أمر مختلف. المجمع المسكوني الثاني يتكلم عن الشفاء قبل المعمودية. الاستقسامات (Exorcisms) تماشي التنقية والتطهر (purification). التعليم (catechism) يماشي الشفاء الروحي. ويستمر الشفاء بعد المعمودية بقوة وزخم عظيمين. روح الله تدعو إلى الشفاء، والشفاء يعقبه معمودية. الله قبل المعمودية وبعدها.

في التقليد الآبائي الولادة هي من الماء والروح (يو ٣: ٥) ـ (أعمال ٨: ١٥ ـ ١٧). النهج الشفائي (therapeutic process) هو مزيج من أسرار ونسك. الأمر لا ينحصر بمجرد البوح (حالة الاعتراف الراهن).

(١) راجع مجلة النور (معمودية الأطفال في الكنيسة).

اماتة الأهواء شرط للشفاء. ان مسيحية لا تقود دعاتها إلى الشفاء هي مسيحية نظرية. المسيحية ليست ايديولوجية. انها علم علاجي. الايديولوجيا نظرية لأنها غير علاجية. وبالتالي فهي لا تروي.

وفي السعي إلى العلاج، فإن الآب الروحي لا يقترح طريقة أو أمراً يجهله. انه أب أو مرشد يقود إلى البلوغ (١ كور ١٣: ١١). في الأب الروحي سر حضور المسيح.

الأب الروحي معلم، فالمسيحية تمتد إلى أقاصي الأرض بالتلمذة «اذهبوا وتلمذوا...» (متى ٢٨: ١٩). لا تنتقل البشارة بدون تلمذة. التلمذة شرط التوبة والاعتراف. لا يكتشف المرء معنى الحياة بدون تلمذة. بدون التلمذة تكون المسيحية فردية ومنتقصة. في الكتاب الإلهي يوحنا المعمدان كان سابقاً للرب؛ الاحساس بالخطيئة يسبق التطهر منها. يوحنا عمّد بالماء، ويسوع رفع الخطيئة (الرافع خطايا العالم). ليست التوبة عمل لحظة واحدة، بل هي أمر يدوم العمر كله: (يا أولادي علينا أن لا نفقد حماسنا ظانين أننا عتقنا في النسك) (القديس انطونيوس الكبير). لقد تراخى نظام التوبة كما يقول بعض المؤرخين الكنسيين وذلك بسبب الاقبال الجماعي على الايمان، في عهد قسطنطين الكبير.

التلمذة والاعتراف:

التلمذة تسبق الاعتراف. والاعتراف لا ينحصر بحدود ايقاف الآخرين على سقطاتهم. الاعتراف هو ابن التوبة. البوح هو ابن التوبة أيضاً، والاّ كان مجرد ثرثرة. البوح هو ثمرة ألم داخلي ينم عن مقت للخطيئة. الاعتراف أمام الله يسبق الاعتراف العلني أمام الكاهن. من هنا فالاعتراف هو وليد نضوج داخلي. البوح مرفوض ولا معنى له بدون نضوج داخلي.

ويدعونا الرسول يعقوب إلى الاعتراف الجماعي (٥: ١٦). وفي

دعوته أمران: ١ - ارتباط الاعتراف بالخريستولوجيا أمر واجب. فالخطيئة هي اساءة إلى جسد المسيح (الكنيسة).

٢ - ارتباط التوبة بالجماعة، فالخطيئة الشخصية تتعدى الفرد في فعلها، انها اساءة للجماعة.

يعقوب يدعونا إلى اعتراف علني. لقد زال الاعتراف العلني أمام الجماعة بفعل التراخي والفتور وغياب الحياة المشتركة. وقد لا يكون الواقع الانساني بكل مفارقاته يسمح لاعتراف علني. ليس من التربية أن يقر الكبير بخطيئته أمام الصغير، لئلا يفقد دوره كمربٍ، الاّ ان الاقرار بها في النهاية هو تربية لا بد منها للكبير وللصغير. لقد زال الاعتراف الجماعي بُعيد الهجمة على الدين الجديد، بعد منشور ميلانو. البطريرك القسطنطيني نكتاريوس اصدر طرساً لإيقافه، فتحجّم وانتقص متحولاً إلى علاقة فردية.

بانحسار الاعتراف العلني، تحوّل الاعتراف إلى اطاره الفردي دون أن يعني هذا أن الكنيسة لا تعرف الاعتراف الفردي قبل انحسار العلني. فالانجازات الضخمة هي دائماً نتيجة جهود أفراد. وفي أحد مرفع الجبن تطالبنا الكنيسة أن نغفر خطايا الناس (ان غفرتم للناس زلاتهم..). ينقسم شرّاح هذه الآية إلى فئتين: ١ - فئة ترى الغفران على يد الكاهن.

٢ - فئة ترى في الآية اشارة إلى اعطاء الروح القدس.

من يغفر الخطايا؟ لا أحد يغفر الخطايا إلا الله وحده (لوقا ٥: ٢١). وفي خدمة الاعتراف نلاحظ أن الكاهن لا يستخدم صيغة المتكلم، بل دائماً يشير إلى المسيح: إذا قرأنا التاريخ الكنسي، نجد أن الأبوة الروحية ارتبطت: ١ - بالكهنة.

٢ - بقداسة المؤمن.

عند بولس الرسول الأبوة الروحية مربوطة بالكهنوت (١ كور ٤: ١٤ - ١٦)، عند يوحنا الذهبي الفم، الأبوة ترتبط بالكهنوت: (اباؤنا يعطوننا الحياة في الجسد، من دمهم ومن شهوة أجسادهم. أما الكهنة

وبالكلمة يهبوننا الحياة الإلهية. الوالدون لا يخلصوننا من المرض والموت. أما الكهنة فيصفون لنا العلاج.

إذا كانت الولادة الروحية بالكلمة، فهذا يدعو إلى دور الكاهن في الحل. ولكن يسوع يقول للرسل: (من أمسكتم خطاياهم أمسكت..) ان هذه الظاهرة تعني: ١ ـ دعوة إلى حل الخطايا دون اعتراف.

٢ ـ كهنة بدون اعتراف

٣ ـ اعتراف بدون حل.

وإذا كانت الآية ترتبط بالكهنة: عندها لا بد: ١ ـ من اعتراف يسبق الحل

٢ ـ من اعتراف أمام الكهنة.

٣ ـ لا قيمة للاعتراف بدون حل.

وكل هذه المشكلات تزول إذا ربطنا الاعتراف بالمثول أمام مؤمن قديس. ولكن تقع المشكلة من جديد عندما نكتشف أن ذلك يؤدي إلى فقدان الكاهن لأبوته ودوره. وهذا ينافي قول الرسول الذي يتمخض حتى يولد المسيح في أبنائه (غلا ٤: ١٩).

الأبوة الروحية هي: ١ ـ على صورة الآب والابن: (المسيح يولد من الآب)

٢ ـ على صورة الابن والآب: (ان ثبتم في كلامي...)
(يو ٨: ٣١ ـ ٣٥)

يسوع لم يأخذ سلطانه من جسم تعليمي، بل من الآب (يو ٨: ٢٨ ـ ٢٩). الربابنة نسبوا لأنفسهم صفة مطلقة، فأنشأوا مدارس حول ذواتهم. وبالتالي فإن أبوتهم أفقية، لحمية، وبشرية. يسوع لم يدخل مدرسة. لم يندرج في طاعة سكولاستيكية. لقد تخطى المدارس الربّانية، مما أعطى الأبوة التعليمية بعداً لم يكن قائماً قبله: (كيف هذا يعرف الكتاب ولم يتعلم...). وبالتالي فالمعلم واحد وهو المسيح (متى ٢٣: ٨).

أبوة يسوع تقوم على المحبة والخدمة. الآب الروحي يقبل يسوع في شخص الابن الروحي، «لو كان الله أباكم لأحببتموني» (يو ٨: ٤٢ ـ ٤٤).

غاية الولادة الروحية:

غاية الولادة الروحية معرفة الله. ان معرفة الله تحقق الخلاص[1]. الخلاص يقوم على التأمل في العلاقة الفريدة بين الآب والابن. ابراهيم هو أب المؤمنين (رو ٤: ١ ـ ٨). إنما أبوته تنبثق من يقين ابراهيم بأبوة الآب للجميع. ورغم أبوة ابراهيم يقول الرسول: (... ليس لكم آباء كثيرون...) (١ كور ٤: ١٤ ـ ١٧).

في غلاطية (٤: ٦ ـ ٧)، نسمع: (... على أنكم أبناء، أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم، فإذا كنت ابناً، فأنت وارث لله). ماذا نلاحظ؟

١ ـ البنوة شرط لوراثة الله، أي معرفته.

٢ ـ البنوة شرط لمعرفة الله.

٣ ـ لا نرث الله إلّا إذا كنا أبناء على صورة الابن.

بهذا المعنى فإن المسيحي هو حامل المسيح (christ-bearer) وبالتالي فالاب الروحي لا يقدر أن يكون روحياً، إلا اذا كان على صورة الابن يسوع المسيح. فالابن هو الله وهو نفسه الطريق إلى الله (أنا هو الطريق والحق والحياة). وفي يسوع عرفنا الاله الحقيقي.

في (١ بطرس ١: ٣): «تبارك الله أبو ربنا يسوع... فولدنا بقيامته...» بالقيامة صار يسوع أباً لنا جميعاً. بالقيامة عرفنا من هو أبونا.

الأبوة ليست منصباً. انها بنوة لله. مقياس الأبوة الولادة. أنت أب لأنك تلد لله. لا تنحصر الأبوة بالانجاب ولا تقوم عليه. بهذا المعنى يغيب في اللاهوت دور البنوة الجسدية. ليس في الكتاب كلام مركزي عن الأولاد والعائلة.

الأولاد اللحميون ثمرة وصال، وفي هذا يشترك الحيوان مع الانسان. ليست القيمة في الانجاب، بل في أن يكون لنا أولاد لله. النمو الروحي يقوم على طاعة الآب الروحي والابن الروحي لله.

(١) فلاديمير لوسكي.

أقوال الآباء في التوبة والاعتراف:

١ ـ البيض الذي يدفن في الزبل، ينمو جنينه، هكذا هي الأفكار التي لا نعلنها، فإنها تتجسد في الفعل (القديس يوحنا السلمي).

٢ ـ إذا رأيت سحابة دكناء مظلمة، تكون مملوءة ماء، فبمقدار ما تهطل من الماء تخف وتصير بيضاء ناصعة (القديس نيلس).

٣ ـ ليس هناك من وسيلة يرمينا الشيطان بها كالتكتم عن أفكارنا (الأب موسى).

٤ ـ الفكر الشرير يضعف بمجرد كشفه (الأب موس).

٥ ـ الفكر الشيطاني يستبد، بمقدار ما يختبئ (الأب موسى).

٦ ـ تثبت التجربة ما دامت مختفية في القلب، فكل ذي اثم يستد فمه (مزمور ١٠٦) ـ (يوحنا ٣: ٢٠) (القديس يوحنا كاسيان).

٧ ـ الشيطان لا يقوى إلّا على من يعتد بنفسه (القديس دوروثيوس).

٨ ـ «الذين بلا ارشاد، يسقطون كأوراق الشجر أما السلام ففي كثرة المشورة» (أمثال ١١: ١٤).

٩ ـ يا أولادي أطيعوا آباءكم فلا تسقطون (القديس انطونيوس الكبير).

اننا في جيل يتسابق فيه الجميع كي يكونوا معلمين لا تلاميذ. والمعلم الحق هو من كان تلميذاً أبداً. نبكّت الغير على هفواتهم مؤلّهين عيوبنا وساكتين عنها. يسوع لم يعالج بولس يا أحبة، بل أرسله إلى حنانينا (أعمال ٩: ٦) ـ (غلاطية ٢: ٢). الله لم يثقّف صموئيل بل أرسله إلى عالي. لا خلاص لنا إلّا إذا رددنا مع أيوب: «روح باطني تضايقني. بطني خمر لم تفتح. كالزقاق الجديد يكاد ينشق. أتكلم فأفرج. افتح شفتي فأجيب» (أيوب ٣٢: ١٨ ـ ٢٠).
ان من يكتم خطاياه لا ينجح» (أمثال ٢٨: ١٣). لمن له المجد وحده مع أبيه وروحه القدس آمين.

مكتبة دير السيدة العذراء
البرموس

صلاة الرب يسوع

يتكلم الكتاب (اليقظة والصلاة) عن الصلاة القلبية، العقلية، الداخلية، وأحياناً الصلاة، وأخرى الدعاء للرب يسوع، وهذه كلها ذات مدلول واحد هو: صلاة الرب يسوع (أيها الرب يسوع المسيح ابن الله ارحمني).

الصلاة عموماً، والقلبية خصوصاً، هي الفضيلة الأصعب في باقة الفضائل المسيحية. العهد الجديد يركز على يسوع مصلياً، يقدّمه مصلياً، محباً ترافقه على الدوام (متى ٢٦: ٣٦)، (متى ١٨: ١٩)، (مرقص ٩: ٢٩)، (مرقص ١٣: ٣٣). الصلاة علامة وحدة وأداة تخاطب بين يسوع والآب (يوحنا ١١: ٤١ ـ ٤٣).

الكتاب المقدس يكلمنا عن وجوب الصلاة (متى ٧: ٧ ـ ١١)، (لوقا ٢١: ٣٦)، (رومية ١٢: ١٢)، (افسس ٦: ١٨)، (فيليبي ٤: ٦)، (كولوسي ٤: ٢ ـ ٣)... ويصفها لنا مقدماً شروطها ومستلزماتها: (متى ٥: ٢٣)، (يوحنا ١٥: ٧)، (مرقص ١١: ٢٥)، (يعقوب ١: ٥ ـ ٨)، (يعقوب ٤: ٣)، (لوقا ١١: ٥ ـ ٨). ويمكنها أيضاً أن تكون باسم يسوع: (يوحنا ١٦: ٢٣). كذلك يحدثنا عن مفاعيلها وقوة فعلها: (متى ٧: ٧)، (متى ١٨: ١٩)، (مرقص ٩: ٢٩)، (لوقا ١١: ٨)، (يوحنا ١٤: ١٣) الصلاة تكون على مثال صلاة يسوع أيضاً: (متى ١٤: ٢٣)، (متى ٢٦: ٣٦)، (مرقص ١: ٣٥)، (لو ٣: ٢١). كذلك تكون جماعية أيضاً: (متى ١٨: ١٩ ـ ٢٠)، (أعمال ٢٠: ٧ ـ ١١).

رجال الله هم رجال صلاة (١ سا ٥: ١٧)، (أعمال ١: ١٤). النبي الياس أحبها، ويصفه الكتاب جالساً ورأسه بين رجليه علامة توغل في

عمق الصلاة. الكتاب هذا نفسه أفرد صفحاته لها: الصلاة تقينا ثقل القلب (لوقا ٢١ : ٣٤)، واجبة في التجارب (متى ٢٦ : ٤١)، هي قوة المسيحي (١ سا ٥ : ٦ ـ ٩)، (افسس ٦ : ١٠ ـ ٢٠). بكاء بطرس هو صلاة (مرقص ١٤ : ٧٢). بها ننال ملء الخلاص (أعمال٤ : ١٢). نرفعها في الشدة والألم (متى ٢٧ : ٤٥). الصلاة هي طريق العودة إلى القلب (متى ٣ : ٢)، (لوقا ١٧ : ٢١). بها نثبت الله (يوحنا ١٥ : ٥ ـ ٨).

في الصلاة تحتل الأنشطة النفسية والجسدية دوراً عظيماً يسهم في جعلها تنبع من الإنسان كله، بمشاركة كافة قواه. وليس هذا غريباً، فبركات الصلاة ونعمها للإنسان بكليته. بلوغ الصلاة أمر ممكن، لكنه يحتاج إلى صبر وجهاد ونسك ومواظبة، فملكوت الله يغتصب اغتصاباً (لوقا ٣ : ٢٥)، (لوقا ١٦ : ١٦).

وعليه، فقيمة الكتاب من قيمة موضوعه، ومن قيمة خبرة واضعه الخبرة المتجذرة في أعماق الخط الآبائي النسكي الحي. انه يشدّك ويدعوك، لأن موضوعه من أدق مواضيع الأدب المسيحي على مر العصور.

وصلاة الرب يسوع صلاة صغيرة في حجمها يمجّها الموغلون في الحداثة والمتمسّكون بأهداب التحضر (over-urbanized). الاّ انها عميقة جداً في مدلولاتها ومفاعيلها. انها رفيق عشاق الحياة في الروح، يتدربون عليها طويلاً كي تكون رفيق دربهم، تضفي على فكرهم ونظرتهم عطر المسيح وحلاوة حضوره. لا بد أن نحبها إذا كنا نحب الرب، كالأم التي تحب أبناءها، وحيدها، فتردد اسمه على مدار الساعة.

وإذا قرأنا ما كتب عنها على مر الأجيال، نجدها موضوع عشق الآباء القديسين. التوغل في كتابات الآباء يدعونا إلى التفكير بتقنية واجبة لإتقان الصلاة والغب من كنوزها. نيكيفوروس المتوحد (الفصل الثالث عشر) يُدخل التنفّس الايقاعي في ممارستها على نحو منهجي منظّم (systematic). لا يجاريه في دعوته كثيرون. لكن مع هذا فالتنفس بات

عنصراً من عناصر ممارستها. للقديس غريغوريوس بالاماس اطلالة رائعة في هذا الباب، يستطيع من يرغب في الوقوف على رأيه، أن يطّلع عليها.

ويتكلم بعض الباحثين في الصلاة القلبية، عن صلة بين تقنيتها وتلك التي لليوغا الشرقية. وقد يكون بين المسيحية واليوغا تشابه في المنهج، إلاّ أن الصلة بين الاثنين ضعيفة أو قل شبه معدومة. المسيحية ترمي إلى ربط الحاضر بالأبدية، وربط الوقتي بالدائم، والعابر، بالثابت، الآتي بالحاضر، وهو نفسه مقياس لما هو موجود. المسيحية دين، ـ إذا جاز التعبير، ـ يقوم على الأخروية[1]، ولا يُقبل بدونها. إنها دين إله تجسد، وهذا ما لا شبه له شكلاً ومضموناً، في اليوغا.

النسك (askisis) اليوغي، هو مجرد آلية تبغي ترويض الجسد وتسكين انتفاضاته (intoxication). أما تقنية المسيحية وآليتها فلا تتوخى التسكين، بل التهذيب edification. التسكين هو من ثمار التهذيب وليس العكس. تسكين الاهواء لا يؤول إلى قداسة صاحبها، أما التهذيب، فهو باب الاستنارة، والطريق إلى القداسة والتأله (theosis). لو كان التسكين كافياً، لما كنا بحاجة إلى المسيح. جاء المسيح ليحقق ما رمت إليه جهود الأنبياء. لا قيمة للأنبياء الاّ إذا كان المسيح غاية نبوتهم. فما قاموا به، ناقص، ولم يفِ بالغرض. كمالهم في المسيح، وذروة دعواهم به. وعليه، فإن الاقرار بغير المسيح، ينقص من قدره ويلغي رسالة المسيحية. ما قدّمته اليوغا، مشكور، إلاّ انه سابق للمسيحية يكتمل بها ـ إذا جاز التعبير. الأبيقورية شيء من يوغا. ترى ما دورها؟ ان دور اليوغا أو الأبيقورية هو بالنهاية تحضير للمسيحية، مضموناً، لازماً فقط.

لقد عبّر رجالات الروح الكبار عن خصائص حياة الصلاة. كتبوا الكثير عنها. القديس بالاماس يعارض أي مفهوم للصلاة يقوم على افلاطونية معقلنة (intellectualised platonism). يقول بالاماس: «انتبه لنفسك. . .» مشيراً إلى تثنية ١٥ : ٩. أي انتبه إلى كل كيانك (ثالوثيات I

(١) eschatology

(٢، ٩). للجسم دور في الصلاة، فالصلاة نشاط حي خلاق يفيض من كل الكيان، لا من جزء منه. لو أن الصلاة هي عمل عقلي بحت، فأين ضرورة الصوم؟ ما قيمة الصوم لو أن المسيحية نشاط عقلي؟ النسك تطهّر وسجود وركعات وصلاة وانسكاب نعمة الله غير المخلوقة. التقنية المسيحية استعداد وترجٍّ. انها واجبة لاستمطار النعمة. انها تنظيف بيت القلب كي تسكنه نعمة الروح القدس. التقنية النسكية ليست أمراً معقدناً (dogmatised). انها قابلة للتعديل. لكن تعديلها يقوم على خبرة قديسين مع الاحتكام لسياق تاريخي طويل. التعديل مقبول بشرطين ١ ـ رجال خبراء

٢ ـ عامل الزمن للتثبّت من صحة التقنية أو هشاشتها.

للصلاة القلبية دور كبير في تحقيق النهضة المرجوة (يوحنا ١٦ : ٢٣)، (يوحنا ١٦ : ٢٦ ـ ٢٧).

تاريخ الصلاة القلبية:

لصلاة الرب يسوع تاريخ يرقى إلى بداية تاريخ الانسان. انها لغة التخاطب بين المخلوق وربه. انها صلاة قصيرة وصغيرة إذا ما قيست بعدد كلماتها، إلا أنها ذات نفوذ وتأثير كبيرين إذا ما قيست بثمارها. منهم من رأى فيها صلاة رحمة (Eleos)، فأوغل في عبارة (ارحمني). ومنهم من تيّمه الاسم الحبيب (أعمال ٤ : ١٢)، فأنعم في التركيز عليه: (يا يسوع، يا يسوعي، ويسوعاه). صلاة الرب يسوع هي الطريق الأقصر كي نبقى في حضرة الصلاة، وكي تصبح الصلاة فعلاً دائماً فينا[1]. الصلاة بالروح والحق (يوحنا ٤ : ٢٣) ليست أمراً سهلاً، انها أصعب من الانتصارات المحققة في حروب ميدانية. انها الطريق الأقصر لجمع الذهن (النوس) في

(١) «L'art de la prière»- La prière de Jésus-Higoumène Chariton - Spiritualité Orientale - page: 29-30.

القلب. الصلاة الحقيقية هي نضال نسكي كبير. انها الشهادة المحجوبة كما يقول القديس اغناطيوس بريانشانينوف[2].

تتلى هذه الصلاة في العادة في شكل: (أيها الرب يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ). وأحياناً تأتي عبارة (ارحمني) في صيغة الجمع. الاّ أن الثابت فيها هو هذا الدعاء للاسم الإلهي الحبيب يسوع (invocation). في العادة تستعمل المسبحة ذات الحبات الصوفية لتلاوتها وترددها. انها أداة ذائعة الصيت في اليونان (komboschinee). وفي الروسية اعتاد القديس يوحنا كروستادت أن يسميها (tchotki). تختلف المسبحة الشرقية عن مثيلتها الغربية (Rosary). الأولى من صوف ولا تحدث أية ضجة. أما الثانية فهي حبات صلبة.

تقسم الصلاة القلبية (صلاة الرب يسوع) إلى ثلاث مراحل أو درجات:

١ ـ صلاة الشفاه.

٢ ـ صلاة الذهن (نوس).

٣ ـ صلاة القلب.

صلاة الرب يسوع صلاة شفوية، كسائر الصلوات. تتلى كلماتها بصوت مسموع. ويمكن أن تتلى أيضاً بالشفاه واللسان لكن بصمت (تمتمة). يصاحب تلاوتها تركيز على معنى الصلاة وكلماتها. في هذه المرحلة الأولى يبدو الاصرار على ممارستها مرتبطاً بشيء من الصعوبة. وقد يكون الضغط الناتج عن التشتت وشرود الذهن عاملاً من عوامل صعوبتها.

لكن مع الوقت تتحول هذه التلاوة إلى فعل داخلي (internalised)، بحيث أن الذهن يرددها دون الاحتكام إلى الشفاه

(٢) فن الصلاة (فرنسي) ـ صفحة ٢٩٥ (Le martyre intérieur)

ملاحظة: اعلمني الدكتور عدنان طرابلسي انه قد أنجز تعريب كتاب (فن الصلاة) ونحن متشوقون لنزوله إلى المكتبات نظراً لمكانته الكبيرة وقيمته الروحية الرائعة.

واللسان. في هذه المرحلة تصبح تلاوتها عملاً لا عضوياً non-organic، فتكون في أعماقنا في شكل (جدول صغير ذي خرير ضعيف شبه مسموع)[1].

وأخيراً تنزل هذه الصلاة إلى القلب فتهيمن على الشخص برمّته. يتحوّل ايقاع تلاوتها مع الوقت، إلى ايقاع يرافق دقات القلب ما تلبث أن تتحول فينا بعد ذلك إلى صلاة دائمة (يوحنا ٤ : ١٤ ـ ١٥). يحتاج من يمارسها في البداية، إلى مكان هادئ ووقت محدد يتفرغ فيه لتلاوتها. وربما يكون ذلك لمدة ربع ساعة أو أكثر كل يوم.

ويمكننا أن نرسم المعالم التاريخية لهذه الصلاة، بالعودة إلى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. اليهود كان عندهم وقار خاص لاسم الله القدوس. اسم الله (ذو الحروف الأربعة = tetragrammaton)، كان مهيباً في التقليد الرباني القديم. والمسيحية منذ نشأتها اظهرت وقاراً مماثلاً للاسم الإلهي Jesus[2]. الرب نفسه في العشاء السري يقول: «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي» (يوحنا ١٦ : ٢٤)، وبطرس الرسول يؤكد مكانة الاسم الإلهي عندما يقول لليهود: «لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص» (أعمال ٤ : ١٢). بولس الرسول أيضاً يؤكد ذلك في (فيليبي ٢ : ٩ ـ ١٠). هذه الآيات الكتابية وسواها تساعدنا على فهم التربة الكتابية لصلاة الرب يسوع. وفي الواقع يمكننا أن

(١) الشيخ بارثيني (١٧٩٠ ـ ١٨٥٥) راهب يحمل الاسكيم الكبير. عضو في دير باتشيرسكي في كييف. أب روحي لمجموعة كبيرة من الرهبان ومؤمنين في العالم. مارس صلاة الرب يسوع وفي النهاية أوعز إلى محبي القداسة بممارستها. زاره القديس ثيوفان الحبيس وتأثر به كثيراً. عرف عن القديس بارثيني انه خلال الـ ١٧ سنة الأخيرة من حياته كان يحتفل بالقداس الإلهي يومياً. وفي السنوات الأخيرة خارت قواه، فكان يكتفي بالمناولة يومياً.

(٢) كلمة يسوع تحمل معنى خاصاً (المخلص) «لأنه يخلص شعبه من خطاياهم (متى ١ : ٢١).

نجد مقاطع كتابية أخرى تتناول كنه الاسم القدوس هذا وطبيعته. راجع (١ كور ١٢ : ٣)، (١ كور ١٤ : ١٩).

بالإضافة إلى الاسم الحبيب (يسوع)، يمكننا أن نجد مرتكزات كتابية تتناول كلمات الصلاة القلبية الأخرى. قارن مثلاً بين (متى ٩ : ٢٧) و(متى ٢٠ : ٣١). ان صلاة الرب يسوع هي بمثابة معادلة مستقاة بكاملها من الكتاب المقدس. ان الشكل الأخير الواضح لصلاة الرب يسوع، نجده مع بروز المؤسسة الرهبانية في القرن الرابع في مصر. آباء البرية أولوا الصلاة الدائمة اهتماماً كبيراً فجعلوها تحتل الحيز الأول والأكبر من حياتهم. ان عبارة(Meletee) تعني حرفياً (رياضة، ممارسة). وفي السياق الروحي والنسكي، ترتبط بالصلاة والتأمل معاً.

القديس اغناطيوس بريانشانينوف يرى أن عبارة تأمل: (melétee) meditation، ترتبط عند الآباء القديسين بأية فكرة روحية، أو أية صلاة قصيرة. التأمل عند الآباء يشمل في ما يشمل: (صلاة الرب يسوع). كذلك يشمل مقاطع من المزامير أو أي نص كتابي آخر (مزمور ٣٤ : ٤) الآباء القديسون رددوا عبارات قصيرة تذكرهم وتساعدهم أن يكونوا في المناخ الروحي المطلوب: (يا رب اعني)[1]. أو: «يا رب اسرع إلى نجدتي»[2]. أو: «أيها الرب يسوع المسيح ارحمني»[3]، وسواها. وفي الواقع، فالأدب الرهباني مليء بمثل هذه العبارة. صلاة الرب يسوع نمت في مناخ كهذا، يعبق بالنسك والقداسة. كانت واحدة من صلوات قصيرة عديدة، سرعان ما تربّعت عرش السؤدد بين سائر الصلوات القصيرة الأخرى لما لمحتواها من أهمية كبيرة تقدس في فعلها كل حياة المسيحيين.

اسم الرب مرهوب لدى الاعداء. في الكتاب المقدس، الشياطين تخضع للرب وتطيعه عندما يطالبها بشيء. صلاة الرب يسوع يعالجها

(١) القديس مكاريوس

(٢) القديس كسيانوس

(٣) vitae patrum (V, 5:32)

القديس ذياذوخوس فوتيق[٤] في كتابه المذكور أدناه، فصل ٥٧، صفحة ١٢٤ (يوناني). هذا ويعتبر هذا القديس أول الكتاب المسيحيين الذي تناولوا في كتاباتهم الدعاء ليسوع. كتب العديد من الأمور حول هذه الصلاة نراها كمقتطفات في الأدب الهدوئي (hesychasm)[٥]. منذ القرن السادس. فإن تيار التقليد الحي المرتبط بصلاة الرب يسوع - بدأ يغزو حياة الكنيسة بقوة منقطعة النظير. فقد انتقل على يد الارساليات اليونانية إلى البلاد السلافية لا سيما إلى روسيا والتي في ما بعد ستلعب دوراً روحياً مميزاً على الصعود الروحي في العالم. وفي الواقع فإن صلاة الرب يسوع كانت تنطلق بزخم في محطات ثلاث:

١ - وهي بمثابة العصر الذهبي للحركة الهدوئية (hesychasm)، في القرن الرابع عشر، ومع القديس غريغوريوس بالاماس رئيس أساقفة سالونيك. ويعتبر هذا القديس أعظم لاهوتيّ الحركة الهدوئية.

٢ - عصر النهضة الهدوئية في اليونان أواخر القرن الثامن عشر، ومع القديس نيقوديم الآثوسي[٦] (جبل آثوس) والفيلوكاليا الآبائية.

٣ - وأخيراً روسياً أثناء القرن التاسع عشر مع القديسين سيرافيم ساروف ويوحنا كرونستادت وشيوخ مناسك اوبتينا الآخرين، وثيوفان الحبيس واغناطيوس بريانشانينوف. وفي أيامنا هذه، في القرن العشرين هناك شهرة عظيمة وممارسة كبيرة لصلاة الرب يسوع بين روس الشتات والشتات العام. كثيرون من المسيحيين في الغرب أحبوا صلاة الرب

(٤) القديس ذياذوخس فوتيق، أسقف فوتيق في ابيروس (شمال اليونان). عاش هذا القديس في القرن الخامس للميلاد. من أبرز أعماله، ما وصلنا باسم (مئة قول في المعرفة الروحية) يتكلم فيه عن صلاة الرب يسوع، وعن أمور أخرى. للمزيد عنه، راجع الكتاب المذكور (يوناني) مطبوعات لاسكاريزيس - سالونيك - ١٩٧٧ (ص ١٢٤ - الفصل ٥٧).

(٥) اللفظة مشتقة من الكلمة اليونانية (hesychia) التي تعني (هدوء). الهدوء مرتبط بالصلاة الداخلية.

(٦) راجع حياة هذا الآب القديس وأعماله وما يتعلق به في مجلة النور.

يسوع أمثال القديس برنارد كلارفو B.Clairvaux، والقديس فرنسيس الأسيزي والقديسة برناردين السينائية... جميعهم تُيّموا بالاسم الإلهي الحبيب، دون أن يعرفوا هذه الصلاة في شكلها البيزنطي.

ان أموراً ثلاثة تدعونا في صلاة الرب يسوع إلى الوقوف والتأمل والتفكير:

١ - في هذه الصلاة القصيرة هناك عنصران كبيران: العبادة والانسحاق. تقوم العبادة في شطرها الأول: (أيها الرب يسوع المسيح ابن الله). أما الانسحاق (compunction) فيقوم في الأخير: (ارحمني أنا الخاطئ).
الأمران مؤكدان في هذه الصلاة. الحياة الروحية عبادة وتوبة متلازمان. هذه الصلاة تحمل عربون شكر على الخلاص الذي تم لنا بالمسيح، وتصوّر ضعف تجاوبنا مع الدعوة. في الصلاة توبة وفرح، محبة وثقة.

٢ - انها صلاة خريستولوجية الطابع موجهة إلى الابن، الأقنوم الثاني الإلهي. اسمها صلاة الرب يسوع. التركيز فيها على الرب المتجسد. في الصلاة تركيز على ناسوته والوهيته. يسوع هو ابن الانسان وأيضاً ابن الله. من يمارس هذه الصلاة لا بد أن يلمح يسوع التاريخي قائماً في صميم القصد الإلهي فادياً ومخلصاً. ولكن رغم الطابع الخريستولوجي فإن هذه الصلاة ليست مجرد دعوة للتأمل في أحداث حياة يسوع الأرضية. ليست غاية هذه الصلاة هكذا. ان اعتماد الصور الخيالية والمفاهيم العقلية ليس مستحباً ولا مقبولاً لا في هذه الصلاة ولا في سواها. هيكليتها واستعمالها ومضمونها تدعو من يمارسها إلى وقفة واعية وتركيز دقيق على القلب[١].

(١) راجع كتاب فن الصلاة - النص الفرنسي، باب صلاة الرب يسوع للقديس ثيوفان الحبيس.

٣ ـ ان الدعاء للاسم الإلهي الحبيب هو صلاة في غاية البساطة. انها صلاة يمكن لكل واحد أن يتبناها. ليس هناك معرفة خاصة أو تقنيات محدودة دون التعامل مع هذه الصلاة وتعاطيها. ليس هناك استعدادات واجبة قبل الاقبال عليها لممارستها. ما هو مطلوب ينحصر في استجماع الذهن وتركيز الصلاة والدعاء إلى الروح القدس كي يقود خطانا في سبيلها. المشي يبدأ بخطوة، وخبرة هذه الصلاة تبدأ بخطوة. ومن يبدأ بهذه الصلاة، عليه أولاً، أن يتعاطاها بمحبة وتكريم، وعبادة وسجود للإله المتجسد ربنا وفادينا يسوع المسيح. يتوجب على من يتعاطاها أن يلتصق بها. الالتصاق بيسوع شرطها الأول. في البداية لا بد أن نردد هذا الاسم ببطء وبنعومة وهدوء[١].

القديس ثيوفان الحبيس يشدد على طابع البساطة في هذه الصلاة. بالنسبة إليه، عمل الله في ذاته بسيط. الصلاة هي كلام بين الأبناء وأبيهم. انه كلام يخلو بطبيعة الحال من الحزلقات والفلسفة[٢].

ممارسة الصلاة، كل صلاة، لا سيما هذه هي فن قائم بذاته يتطلب الرغبة بالصراخ الدائم إلى الله[٣]. الآباء الاطهار يعلموننا اننا نحن معشر المبتدئين ما علينا الاّ أن نبدأ بهذه الصلاة ببطء وهدوء وصبر. علينا أن نردد كل كلمة من كلماتها بهدوء وتمعّن وتركيز. علينا أن نردد اسم يسوع بدون فلسفة وتعقيد. وعلينا أيضاً أن نكتسب صلاة تؤدّى داخلياً (inwardly). ومن اللائق التوقف برهة قبل البدء بترادها من جديد. بحسب القديس اغناطيوس بريانشانينوف نستطيع أن نردد صلاة الرب يسوع لمئة مرة في مدة نصف ساعة، والبعض من الناس يحتاجون إلى قرابة ساعة لتلاوة مئة مرة. هناك نصوص تدعو إلى ادائها بسرعة أكبر. في كتاب

(١) راجع كتاب، الدعاء باسم يسوع، راهب من الكنيسة الشرقية ـ لندن ١٩٥٠ ـ صفحة (٥ ـ ٦).
(٢) راجع فن الصلاة ـ باب: النمو في الصلاة لا حدود له، ثيوفان الحبيس.
(٣) راجع فن الصلاة ـ باب: ما هي أقصر طريق لبلوغ الصلاة الدائمة ـ ثيوفان الحبيس.

سائح روسي يقول الشيخ لتلميذه أن يرددها (٣٠٠٠) مرة يومياً[١]، بعدها يرتفع العدد إلى (٦٠٠٠) يومياً، وأخيراً (١٢٠٠٠) مرة يومياً، الأمر الذي يعني وجوب سرعة أكبر بكثير من تلك التي يدعو إليها بريانشانينوف.

بالإضافة إلى هذا، فإن الهدوئيين (hesychasts) أدخلوا منهجاً فيزيولوجياً بحيث يكون الرأس منحنياً باتجاه الصدر، وتكون اللحية ملتصقة بالصدر والعينان مسمرتان على القلب، ويصاحب ذلك تحريك التنفس بايقاع بحيث تكون التلاوة على ايقاع دقات القلب. هذه التقنية يعالجها مطولاً القديس سمعان اللاهوتي الجديد (من آباء القرن ١١). ولكن القديس نيكيفوروس المتوحد (من آباء القرن ١٤) معروف أيضاً بكلامه عن الصلاة المرفوعة على ايقاع تنفسي[٢]. ثيوفان الحبيس وبريانشانينوف يذكران بعض الأمور عن الايقاع التنفسي في الصلاة ولكن ليس من باب تحبيذها بل من باب رفضها وعدم الحث عليها، دون الاتيان على الأسباب الموجبة لهذا الرفض. عند القديس غريغوريوس بالاماس تشجيع عليها عند المبتدئين فقط دون أن يرى في التقنية التنفسية أمراً عقائدياً (dogmatised). ولكن في الواقع، ما جذب غير الأرثوذكس إلى هذه الصلاة، هو النسك الجسدي والطابع الترويضي الذي تتسم به. والقديس ثيوفان الحبيس يرى أن المغالاة في التقنية التنفسية أمر ينطوي على خطورة لا بد من شجبها. على كل حال، لا بد من كلمة نقيّم بها التقنية التنفسية. هناك أمور ثلاثة مهمة في هذا الصدد:

١ ـ التقنية التنفسية هي مجرد عامل مساعد، نحث عليه البعض، ولا نعمّمه على الجميع. مما يعني أن الصلاة يمكنها أن تقوم بدون تقنية تنفسية الأمر الذي ينسجم مع ما قاله بالاماس[٣].

(١) سائح روسي ـ ترجمة R.M. ـ لندن ـ ١٩٥٤ ـ صفحة (١٢ ـ ١٦).
(٢) راجع فن الصلاة ـ باب مكانة التقنيات التنفسية في الصلاة، تعريب الدكتور عدنان طرابلسي.
(٣) الأب يوحنا مايندورف ـ دراسة عن بالاماس (انكليزي) ـ صفحة ١٤٥ ـ باب: معنى التقنية السيكوفيزيولوجية ـ ١٩٧٤.

٢ ـ التقنية التنفسية تستخدم بحصافة وتمييز، إذ من شأنها الحاق الضرر بالمصلي إذا ما استخدمت عشوائياً وعلى نحو مغلوط. من حيث المبدأ، لا غبار على التقنية التنفسية، فالصلاة فعل ينبع من الانسان بكليته (نفساً وجسداً). للجسد دور في الصلاة لا يمكن الغاؤه. الجسد لا يحتقر في الحياة الروحية. إلا أن الافراط في التقنية التنفسية واعتمادها بدون تمييز قد يؤدي إلى حالة من الجنون كما يقول الأب كاليستوس (تيموثي واير). والتوجيه الأرثوذكسي العام يشترط الدخول في طاعة لأب روحي خبير وإلّا فالأفضل أن تصلي ببساطة دون التورط في تقنيات تنفسية تجهل ثمارها ونتائجها. يقول القديس بريانشانينوف: «لا ننصح أخوتنا بالتقنية التنفسية إلّا إذا كانت عفوية وتنبع من حياة صلاة (فن الصلاة ـ ص ٣٦).

٣ ـ تفترض صلاة الرب يسوع دخول المؤمن في عضوية جسد المسيح. العضوية شرط لها، أما التقنيات التنفسية فهي أمر هامشي وعارض. صلاة الرب يسوع تقوم على بساطة العلاقة مع الله لكنها تفترض أن يكون المسيحي ممارساً أصيلاً لحياته الليتورجية شكلاً ومضموناً. ويفترض القديس ثيوفان الحبيس أن اقتبال سر المعمودية هو شرط يسبق الدخول في عالم الصلاة وخبرتها. إلا أن بعض المنجذبين إلى صلاة الرب يسوع من مسيحي الغرب، هم أناس غير متجذرين في العبادة. لا يمكن النمو في صلاة الرب يسوع إلّا على قاعدة جسد المسيح، الكنيسة. وكما انه لا يبنى بيت بدون أساس، . هكذا، يستحيل الارتقاء بفعل صلاة الرب يسوع، بدون أساس هو يسوع نفسه. ان أضمن سبيل للاتحاد بيسوع هي المناولة لكنه فعل مساند لها.

يمكن تلاوة صلاة الرب يسوع في أي زمان ومكان. انها صلاة رائعة

(١) راجع أيضاً: المتصوفون الروس ـ المطران ثيوفان الحبيس ـ ص ٢١٢ ـ بولشاكوف (تعريب الدكتور عدنان طرابلسي).

في اطار ظروف الحياة المعاصرة. انها صلاة تصاحبها مسبحة هي بمثابة سلاح روحي عظيم كما يقول الأب خاريطون.

تقسيم الصلاة:

تتألف الصلاة من جملة قصيرة غنية وعميقة بمقدار ما هي قصيرة وبسيطة. (أيها الرب يسوع المسيح ابن الله ارحمني). أحياناً يضاف إليها عبارة (ارحمني). وأحياناً تحذف عبارة يا ابن الله).

للصلاة أشكال، لا شكل واحد فقط. ابسط أشكالها هو: (يسوع) أو يا يسوع. إلا أن عبارة (ارحمني) هي الأكثر قدماً. انها في ذاتها صلاة. استدعاء الرحمة هو أحد أهدافها (متى ٢٠ : ٣٠). فليس أبهى من أن يكون قلباً عارماً بالرحمة والمحبة (السامري الشفوق). صرخة الفتية الثلاثة تستمطر الرحمة من أعماق لهيب الأتون. انها صرخة موجهة إلى قلب الله. كتاب المزامير يقولها صراحة: (مزمور ٧٣ : ٢٥). كل ما نطلبه في الصلاة بهي، لكن أعمق ما فيها أن نرنو إلى قلب الله. (الرحمة) مضمون كتابي قائم في العهدين. إلّا أن القسم الأول (أيها الرب يسوع المسيح)، ينتمي تحديداً إلى العهد الجديد رغم ايماننا المطلق أن الرب يقبع في أعماق التاريخ، فهو بدايته ونهايته. أليس هو ألف الكون وياؤه (رؤ ١ : ١٨)؟

الملفت للانتباه في صلاة الرب يسوع هو أن الدعاء، للأقنوم الثاني، (الابن) لا للأول (الآب). العهد القديم يبحث عن جوهر الله فيجد ضالته في الابن الوحيد يسوع المسيح. لا أحد سبق له أن رأى الله. إلّا أن الله كشف عن نفسه في يسوع المسيح. فالذين يطلبون الآب، يجدونه في الابن (يو ١٤ : ٩). لا أحد يأتي إلى الآب إلّا بي (يو ١٤ : ٦). «من رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤ : ٩). يسوع هو الطريق إلى الآب. انه الطريق إلى الملكوت.

المرأة الكنعانية في صور وصيدا صرخت: (ارحمني يا سيد يا ابن داوود) (متى ١٥ : ٢٢). البرص العشرة على الطريق بين السامرة والجليل

طلبوا الرحمة من يسوع (لو ١٧ : ١٣). برتيماوس الأعمى طلب الرحمة (مرقص ١٠ : ٤٧).

إن الصراخ طلباً للرحمة هو واحد من أكثر الصلوات تضرعاً وانسحاقاً. طلب الرحمة لا يقوم على لجاجة في الطلب مقرونة بكثرة الكلام. ان عبارة (يا رب ارحم) هي رغبة في استمطار الرحمة الإلهية. طالب الرحمة يرضى بفتات البركات الإلهية. مراحم الله تتحدنا به. ان أعظم مراحم الله لمسناها في الحبيب يسوع. الله لم يرسل ابنه في بهاء وعنجهية، بل أرسله بتواضع عجيب. ولد المسيح في حالة من الاحتقار الدنيوي. بيت لحم هي مهبط الله المتواضع. انها مملكة مرذولة في عيون الناس. جاء الله انساناً اختار المزدرى وغير الموجود ليأتي بالوجود عبر غير الموجود (١ كور ١ : ٢٨). يسوع هو عطية الآب للناس. انه خبز الحياة الآتي ليحيي العالم (يو ٦ : ٣٥ ـ ٤٨). انه الطريق إلى الحياة والطريق إلى قلب الله (يو ١٤ : ٦). انه السامري الرحوم والشفوق الذي يعالج شؤوننا ونحن مرميين على قارعة طريق الحياة (لو ١٠ : ٣٠).

الدعاء باسم يسوع هو لب العقيدة المسيحية وجوهرها، فهو يختصر تعليم الكتاب عن يسوع. «يسوع» لفظة أطلقت على ابن الانسان. لم يكن ليوسف أو مريم رأي في التسمية. الملاك جاء بالاسم من السماء (لو ١ : ٣١) (متى ١ : ٢٠ ـ ١). مريم ويوسف اطاعا رسالة الملاك، وبعد الختانة سمياه يسوع (لوقا ٢ : ٢١) اسم يسوع يلخص رسالته في العالم (لأنه سيخلص شعبه من خطاياه) (متى ١ : ٢٢). لفظة «يسوع» لها معنى خاص. هذا ما يفتقر إليه المسيحيون اليوم. الآباء يختارون أسماء لأولادهم على أسس متباينة، فهذا الاسم أحلى وذاك أبشع. هذا اسم الوالد وذاك اسم الجد. الأسماء في الكتاب لها مقاييس واضحة. (يوحنا) المعمدان، لفظة تعني (الله حنّان أو حنون) (لو ١ : ١٣). يوحنا هو الشاهد على حنان الله طوال حياته. اسم يوحنا يلخّص دوره في مسيرة الخلاص. الاسم ليس مجرد يافطة أو أرومة، انه أكثر من هذا بكثير، انه هوية الشخص وكاشف دوره ورسالته.

«يسوع» هو من سيخلص. لا أحد قبله استحق هذا الاسم. هذا هو معنى اسم يسوع: (من يخلّص)، (المخلص). ومن الغريب أن لا ينشغل المؤمن بمعنى هذا الاسم. انه الاسم الذي حمل صاحبه خطايا العالم وسمّرها على الصليب. اسمه يشير إلى الآم حبه لنا. انه الحمل الذبيح. انه الكبش الذي دفع به الملاك إلى ابراهيم حين أقدم على ذبح ابنه. انه الحمل الفصحي الذي أشار إليه سفر الخروج. انه الحمل الحي الحقيقي. ذاك كان مجرد رمز لهذا. ليسوع اسم آخر، ما هو؟ انه المسيح.

«المسيح» لفظة يونانية تعني الممسوح (anointed). في كل أمة هناك ممسوح: ملك. الممسوح هو المسيح (Messiah)، فهو يُمسح لغرض ولرسالة. المسيح هو الرب. والذين يدعونه ربّاً، يجعلون أنفسهم تحت أمرته وقيادته. انه سيدهم وربهم. دستور الايمان يشير إلى هذا صراحة: (ورب واحد يسوع المسيح). الربوبية من صفات يسوع حتى قبل قيامته من بين الأموات (يو ٢١ : ٧). يسوع هو المسيح وهو الرب. والذين يدعونه رباً منسجمون مع الوصية (متى ٢٢ : ٣٧) ـ رؤية ٢ : ٤). لا يمكن أن يكون رباً إلا إذا كان حياً على الدوام ومنتصراً على الموت إلى الأبد. رجالات التاريخ مهما عظم شأنهم، فقد ماتوا. لا أحد منهم يستحق لقب (سيدي). إلا أن ربوبية يسوع تباين كل الربوبيات، فهي ربوبية لا تنتهي ولا تزول.

في صلاة الرب يسوع اعلان صريح بموت الرب وقيامته وصعوده إلى السماء. وصعود الرب لا يعني تخلّيه عن العالم. ان أيقونه الضابط الكل تجعل الرب قيّماً على الحياة كلها وتؤكد أن صعوده ليس تخلياً عن العالم، بل متابعةً لعمل الفداء على أكمل وجه. عقيدة الموت والقيامة والصعود، أمور بالغة الأهمية في صلاة الرب يسوع. فالصلاة هذه تنبع من أعمال الفداء. انها تسير قدماً ولا تعود القهقرى.

يسوع يدعى أيضاً (ابن الله). هذه العبارة هي الرابط بين قسمي الصلاة. فابن الله هو الذي سيرحمني. الله انكشف في شخص يسوع (يو

١٢ : ٤٥) وخلّصنا. الله صعد إلى السماء وما يـزال يحمل جـراحاتـه في جسده كعلامة أبدية أمام أبيه. انه يسكن في النـور الذي لا يـدنى منه (١ تيمو ٦ : ١٦). من خلال ابن الله، يستطيع الخطأة أن يتّصلوا بالآب. لهذا السبب فإن اسم يسوع هو عمل عبادة.

في الصـلاة الـربيـة نقـول: «. . . ليتقـدس اسمـك، ليـأت ملكوتك. . .». في هـذا القول يُلخص كـل الانجيل: الله أرسـل ابنه ليفتدي به الخطأة. ان كلمة واحدة من هذه الصلاة تكشف غنى هائلاً للذين يعرفون الانجيل بعمق. آمين.

القسم الثاني

١٢ : ٤٥) وخلّصنا. الله صعد إلى السماء وما يـزال يحمل جـراحاتـه في جسده كعلامة أبدية أمام أبيه. انه يسكن في النـور الذي لا يـدنى منه (١ تيمو ٦ : ١٦). من خلال ابن الله، يستطيع الخطأة أن يتّصلوا بالآب. لهذا السبب فإن اسم يسوع هو عمل عبادة.

في الصـلاة الـربيـة نقـول: «. . . ليتقـدس اسمـك، ليـأت ملكوتك. . .». في هـذا القول يُلخص كـل الانجيل: الله أرسـل ابنه ليفتدي به الخطأة. ان كلمة واحدة من هذه الصلاة تكشف غنى هائلاً للذين يعرفون الانجيل بعمق. آمين.

القسم الثاني

الفصل الأول

اليقظة في الكتاب المقدس

قلنا ان اليقظة والسهر ـ على الافكار والأحاسيس في قلوبنا ـ هي شأن جميع المسيحيين. وقلنا ايضاً بأن الكتاب المقدس، هو المصدر الاول للإلهام وتقويم اليقظة. الكتاب المقدس لا يتوجّه للرهبان فقط. انه لكل المسيحيين. واذا كانت اليقظة شأن الرهبان والنساك، ـ بداعي ظروف بيئتهم الطبيعية والروحية التي فيها يحيون ـ، الاّ ان هذا لا يعني ان المؤمنين عاجزون عن الاشتراك، حسب وسعهم، بحياة اليقظة وعطاياها. حياة اليقظة ليست سوى حياة جهاد دائم، حياة انسحاق، حياة فرح حزين وحزن مغبوط، حياة مواجهة ضد الاهواء، حياة تنقية ومحبة وتألّه.

وكثيرة المقاطع (الكتابية) التي تتناول اليقظة، وسوف نستعرض بعضها.

في العهد القديم آية هي بمثابة كنز مرتبط باليقظة (يقظوي): «احترز من أن يكون مع قلبك كلام لئيم قائلاً قد قربت السنة...» (تثنية ١٥: ٩). هذه الآية تركّز على يقظة النفس، والرقابة الدقيقة على اعماق القلب، الى اقصى درجات الوعي واللاوعي من الشخصية.

في سفر الامثال يقول الكاتب الملهم من الله: «... احفظها في قلبك...» (امثال ٤: ٦ ـ ٢٣). وفي الاصحاح (٢٥) من متى يسوق لنا الرب مثل العذارى العشر. ترى من يشك في الحقيقة ان هذا المثل متعلق باليقظة، بالنهوض الروحي، والاستعداد للقاء العريس؟ ترى ألم يكن

الرب يرمي، من خلال المثل، التشديد على جهوزية الذهن (النوس)، ويقظة القلب الدائمة في ظلمة ليل الاهواء، وظلمة عالمنا الخارجي والداخلي معاً؟ ترى ألم يكن المسيح، العريس الالهي، يقصد تصوير (وصف) حفظ اليقظة على انه حكمة حقيقية، وان غيابه هو بمثابة جهل؟

العذارى الخمس العاقلات كان عندهن زيت في مصابيحهن. الزيت هو المحبة ـ وكان عندهن نور ـ النور هو اليقظة والصلاة. اما الجاهلات، فلم يكن عندهن لا زيت ولا نور. المحبة والصلاة القلبية هما في الواقع متحدان متلازمان يؤلفان استعداداً لائقاً تجاه العريس. بدون محبة ملتهبة فيّاضة، كيانية، من كل النفس والقلب والقدرة، محبة كاملة نحو المسيح والقريب، من المؤكد انه يستحيل عليك ان تمتلك نور اليقظة والصلاة. بدون هذا النور لن تعرف اين انت، ولا اين تسير او تتوجّه، ولن ترى نفسك ولا اخوتك، ولا الشياطين، ولا العريس نفسه الذي يُقبل الى العرس. عندما تنقص المحبة، تنقص معها اليقظة والصلاة. عندما تنطفئ المحبة، تنطفئ معها اليقظة والصلاة. بدون اليقظة والصلاة، لن تستطيع ان تحتفظ، على الدوام، بمصباحك طافحاً عارماً بزيت المحبة.

واليك احلى نهاية وخاتمة لعمل اليقظة والمحبة: «... يأتي العريس، فيدخل معه المستعدون الى العرس...» (متى ٢٥: ١٠). اما خاتمة الكسل البغيض، فهي قدوم العذارى الخمس ـ (المتأخرات) ـ وهن يصحن: «يارب افتح لنا. فيجيبهن: الحق اقول لكنّ اني لا اعرفكن...» (متى ٢٥: ١١ ـ ١٢).

بعد هذا، فلنستمع لما يقوله «الفيلوكاليا» يقدمه لنا البار مرقص الناسك[1]: «... العذارى الجاهلات حفظن البتولية الخارجية فقط. لم تكن دينونتهن بسبب ذلك البتة، انما كانت، في قلة زيتهن في

(١) الفيلوكاليا ـ الجزء الاول ـ ص ١٣٠، ٢٠ ـ ص ١٣، ٤

مصابيحهن. فقد اشتركن ببعض الفضائل والاعمال الخارجية، وبعض المواهب. لهذا كان نور مصابيحهن الى حين. الا انهن لم يتنبّهن للكسل، فلم يتعرّفن على العريس ـ عند قدومه ـ بدقة. لا بل على العكس، فإن افكارهن تلوّثت بالاعمال الخارجية. كان ذهنهن يتقبّل الافكار (logismos). كنّ (العذارى) ينفسدن في الخفاء، بفعل حسد ممقوت يسودهن، وغيرة نصف صالحة، ومشاحنة، وقتل، وبغضاء، وغضب، وتمرمر، وضغينة ورياء وحنق وكبرياء ومجد فارغ مع عجب بالذات واكتفاء بها، ومحبة للمال وضجر وشهوة جسدية تولّد في الافكار، الاهواء والشك وعدم المخافة والجبن والحزن والخصومة والبلادة والنوم والدالة والبر والعجرفة والتشامخ والخلاعة والشطارة والجشع واليأس الذي هو الاسوأ بين كل افعال الشر المذكورة...».

لقد حرمن فرحة لقاء العريس، وبقين خارج الخدر. وعلينا ـ اذ نفكر بهذا ونفحصه ونختبره ـ ان نعي وندرك في أيةٍ من هذه المذكورة نحن مقيمون. يا ولدي، يتوجّب على من يريد ان يجني المعرفة والراحة، بادئ ذي بدء، أن يرغب في حمل الصليب والسير في إثر المسيح (مرقص ٨: ٣٤ ـ ٣٨) برقابة دائمة على الافكار في داخله، فينشغل بخلاصه بنشاط كثير في مسيرته نحو الله، لئلا يسلك بجهل فلا يدري اين يتوجّه ويسير في الظلمة وبدون نور المصباح.

ان نهاية المثل، هي لفتة من الرب، من اجل اليقظة والسهر: «فاسهروا لأنكم لا تعلمون اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها ابن الانسان» (متى ٢٥: ١٣).

في انجيل مرقص يقول الرب: «... انظروا، اسهروا، وصلوا...» (مرقص ١٣: ٦ ـ ٣٣). ان ما يلفت الانتباه هو عبارة (انظروا) التي تعني بكل تأكيد (تيقّظوا) وايضاً (انظروا). ترى ألم تكن تسمية الاباء لليقظة، بحق، على انها عين النفس؟

في انجيل لوقا يستعرض الرب احداث المجيء الثاني الرهيب، منوّهاً الى خطر مريع: «ان تثقل قلوبكم» (لوقا ٢١: ٣٤). القلوب تثقل لأسباب كثيرة مختلفة. ترى من يخلّصها من الشر الثقيل هذا؟ انه قول المسيح: «انتبهوا لأنفسكم». الانتباه، اي اليقظة، كما يتبيّن لاحقاً، هي الامر الذي سيؤكده الرب مجدداً: «اسهروا اذاً وتضرعوا كل حين كي تحسبوا اهلاً للنجاة...» (لوقا ٢١: ٣٦).

وفي مقطوعة اخرى: «يا من في كل وقت وفي كل ساعة...»، في كل لحظة وفي كل ساعة، في الليل والنهار، يكون الذهن (النوس) والقلب في حصنهما الساهر، في تضرّع (لوقا ٢١: ٣٦). تقترن اليقظة بالصلاة. وهذه الصلة والوحدة بين اليقظة والصلاة، يكشفها لنا الرب في عشية التسليم (متى ٢٦: ٢٦ ـ ٤٦). في تلك اللحظات الجهادية في الجثمانية، وبعد صلاته العنيفة الدامية، وجد يسوع تلاميذه نياماً، فقال لهم: «اسهروا وصلوا... «اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة» (متى ٢٦: ٤١). السهر هو اليقظة، «اسهر» تعني «اتيقظ».

ان جهاد الرب في الجثمانية يدعو اليوم بمرارة كل المسيحيين النائمين. دورهم اليوم هو الانسحاق والسهر في الساعة الاكثر ضيقاً وشدة، الساعة الحادية عشر من جهاد يسوع. فإلى المسيحيين النائمين، الينا، يوجّه السؤال: «أهكذا لم تقدروا ان تسهروا معي ساعة واحدة» (متى ٢٦: ٤٠)؟

«... يا للعار! ان فكر يسوع ونظرته في الجثمانية، لا تريح الاّ العائشين في اليقظة فقط. المسيحي التكنولوجي، يسلك وسط قلق وجودي (في عصره) يجعله عاجزاً في الثانية عشر، ساعة الدينونة...» (يوحنا كوروناراكيس ـ سير ابائية ـ ص ٩٧ ـ المقدمة).

ان كل تكتيك الحرب العقلية غير المنظورة مضمّن في عبارة الرب: «اسهروا وصلّوا... لئلا تدخلوا في التجربة» (متى ٢٦: ٤١). من جهة

ثانية، فان الرسول بولس، يتكلم في رسالته الاولى الى اهل سالونيك، عن اليوم المفاجئ، يوم مجيء المسيح، فيشبهه بلصٍ في الليل، ويقول بأن المسيحيين هم ابناء نور وابناء نهار (١ سا ٥: ٢ ـ ٥). ويضيف: «فلا ننم اذاً كالباقين، بل لنسهر ونصحُ...» ؛١ سا ٥ ـ ٦ ـ ٩)[1].

في هذا المقطع الرسولي، يمكننا ان نلحظ ثلاث ميزات هامة قيّمة: ١ ـ ذهننا (النوس)، وعموماً كل انساننا الداخلي، يتيقظ عندما يكون ساهراً، اي عندما يحيا في نور النهار الذي هو الحياة في المسيح. فالليل هو للنيام والسكارى. انتفاء اليقظة يجلب النوم، ثقل القلب والسكر، وهذه تتولد من الاهتمامات المعيشية والافكار السمجة، والاهواء. اليقظة تُلبس المجاهد سلاح الروح الذي بدونه يسقط (المجاهد) في الحرب العقلية غير المنظورة. وفي الرسالة الثانية الى تيموثاوس، يقول الرسول بولس وهو يسلّم تيموثاوس الامانة الابائية الرسولية والحكيمة: «اما انت فتيقّظ في كل شيء...» (٢ تيمو ٤: ٥). وفي رسالة بطرس الاولى نطالع مقطعاً ذا فحوى نادر ومميز يتعلق بعمل اليقظة: «لذا منطقوا احقاء ذهنكم صاحين فألقوا رجاءكم بالتمام على النعمة التي يؤتى بها اليكم...» (١ بطرس ١: ١٣). جميع الاباء القديسين متفقون على ان اليقظة والصلاة القلبية تمنحان نعمة الروح القدس وتهبان للنفس اعلان يسوع الذي يبقى ـ بدون الصلاة واليقظة ـ محجوباً. وفي الرسالة نفسها يرجو الرسول المسيحيين ويحثهم على ان «نهاية كل شيء قد اقتربت، فتعقّلوا واصحوا للصلوات» (١ بطرس ٤: ٧).

كل الرسل عرفوا قيمة اليقظة واختبروها سلبياً، فقد سقطوا في تجربة العار وهجران المعلم. وبطرس الرسول عرف ذلك اكثر من سواه، رغم حماسته ووعوده، فقد سقط في تجربة النكران (لوقا ٢٢: ٦٢) ـ (مرقص ١٤: ٧٢). لو ان الرسول (بطرس) كان اكثر يقظة وسهراً وصلاة، لما كان انكر المعلم (الرب) في تلك اللحظات العصيبة داخل دار

(١) هذه الاية (١ سا ٥: ٦ ـ ٩) تتطابق مع افسس (٦: ١٠ ـ ٢٠)، المعرّب.

رئيس الكهنة. فمن شأن اليقظة والصلاة، ان تبعثرا خوفه وجبنه، وتمدّاه بشجاعة المجاهرة، مقويةً محبته للرب. التجربة ألفتْ قلبه غير محصّن، فهاجمته وأسرت رضاه. لكن لحسن الحظ ان الأمر لم يدم طويلاً، في اي حال، فقد استفاق عالمه الداخلي، عالم نفسه، ليسترد من جديد سلاحه العقلي (الداخلي)، فخرج «وبكى بكاء مراً» (مرقص ١٤ : ٧٢). بسبب هذه الخبرة المريرة، يركز ثلاث مرات في رسالته، على اليقظة وثمارها الخيّرة: (١ بطرس ١ : ١٣) - (١ بطرس ٤ : ٧) - (١ بطرس ٥ : ٨). وفي الاصحاح الخامس من رسالته الاولى، يقدم لنا صورة حية معبّرة عن ابليس عدو النفوس، فيشبهه بأسد يجول ملتمساً من يبتلعه (١ بطرس ٥ : ٨). انه مملوء بغضاً وحسداً وشراً. لا يتعب. كلي الخبث والدهاء. كثير الانشطة (polymechanized)، ومفسد النفس. وكما يصفه الرسول، فهو وحش لا ينام (٥ : ٨). انه روح شريرة مملوءة سهراً ويقظة، وهذا للعمل المفسد والتدمير. عمله النجاسة والتشويش وتشتيت الذهن والقلب نحو الدنيّات. وتحقير وحدة النفس المغبوطة، بحياتها ونورها. اما من جهة مطاردة ابليس الدائمة (للنفس)، فالكلمة الموحاة من الله على فم الرسول تقول: «تيقظوا واسهروا فإبليس خصمكم كأسد يزأر يجول ملتمساً من يبتلعه» (١ بطرس ٥ : ٨). كذلك يمكننا ان نقول ان كل العظة على الجبل، (متى ٥ : ١ - ١٢) هي عظة يقظوية، حيث ان مخلصنا، (الله الانسان[1]) يحدد جذور الاهواء، وفي الوقت نفسه يغرس جذور الحياة الروحية الحقيقية. هنا يكمن عمل اليقظة على ادق حركات القلب التي تحرك كل شيء وتوجهه: الافكار، الاقوال، الذكريات والاحاسيس، الاعمال والافعال. على سبيل المثال: العفة او الزنى، من القلب تنبعثان. ثمة زنى روحي، وآخر جسدي. ويمكن ان يقوم الاول بدون الثاني. الرب يريد ان يطهر قلوبنا من كل حركة شهوانية (شهوة) تولّد فينا الزنى القلبي: «اما انا فأقول لكم ان كل من نظر الى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه» (متى ٥ : ٢٨). وكما في العظة على الجبل، هكذا - عموماً - في

(١) Theanthropos

كل تعليم المسيح، نرى الرب يجعل القلب نبع وأصل وام وبداية كل الثمار الجسدية والروحية معاً. «اذا كانت عينك بسيطة، فجسدك كله يكون نيراً. واذا كانت عينك شريرة، فجسدك كله يكون مظلماً» (متى ٦ : ٢٢).

دعونا نرى كيف يتكلم القديس غريغوريوس عن أصل الاهواء والتنقية: «ولئن كانت الاهواء موجودة في الاطفال - بالطبيعة - وقبل ان يصبح ذهنهم (نوس) شهوانياً، الا انها (الاهواء) لا تتضافر لإحداث عمل الخطيئة فيهم، بل لتكوين طبيعتهم، لهذا فليست هي شريرة. ولما كانت الاهواء الجسدية تبدأ من الذهن الشهواني، فلا بد ان يبدأ العلاج منه (الذهن). كحال الحريق. فمن اراد اخماد حريق، لا يرش الماء فوق السنة اللهب. هذا لا يجدي. لكن عندما يخرج مادة الحريق، للحال تنطفئ النيران. هكذا هو الحال مع الاهواء الجسدية. فإن لم تجففي نبع الافكار بالصلاة والتواضع، وتتسلحي ضد الافكار بالصوم والنسك الجسدي، فعبثاً تتعبين. اما اذا قدستي الجذور بالتواضع والصلاة، كما اسلفنا، فتتقدس الحواس الخارجية ايضاً (غريغوريوس بالاماس - فيلوكاليا - جزء ٤ - رسالة الى المتوحدة كسيني - ص ١٠٥). القلب الدنس، يولّد جسداً دنساً. القلب النقي، جسداً نقياً. القلب الشهواني، جسداً شهوانياً. القلب العديم الهوى، جسداً عديم الهوى...» الويل لكم ايها المراؤون لأنكم تنقون خارج الكأس والصحفة، اما من الداخل فمملوآن اختطافاً ودعارة. ايها الفريسي الاعمى، نقّ اولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما نقياً ايضاً (متى ٢٣ : ٢٥ - ٢٦).

القلب هو ورشة هادئة لا ضجة فيها. وما ينتج عن هذه الورشة، فذو قوة لا تحد، فإما هو فعل شيطاني قلبي مدمر، او هو الهي ومعتق. «... ما يخرج من الفم، فمن القلب يصدر، وهذا ينجس الانسان. من القلب تخرج افكار شريرة، قتل، زنى، فسق، سرقة، نجاسة، شهادة زور، تجديف، وهذه تنجّس الانسان. أما الاكل بأيد...» (متى ١٥ : ١٨ - ٢٠).

هذه هي خدمة اليقظة النشيطة: انها ضبط ورشة القلب، مع ايقاعها، بقوة النعمة الفائقة القدرة، واسم يسوع. باليقظة والصلاة القلبية، بالصلاة العقلية، يتقبّل القلب النعمة الالهية، تقبّله للاوكسجين، فيطرح الاهواء والشهوات جاعلاً حياتنا مفعمة بالنعمة.

الفصل الثاني

اليقظة في العبادة الالهية

اذا تأملنا بدقة في الغنى التعبّدي في كنيستنا، نلاحظ اموراً لا حد لها، تذكّر باليقظة. في الصلوات اليومية المقدسة نصف الليل، السحر، الساعات، الغروب، النوم الصغرى، القداس الالهي (افاشين)، القانون الكبير، وما هو في المعزي، التريودي والميناون.

وعبادة كنيستنا المستقيمة الرأي، هي عبادة انسحاقية، اي انها عبادة رجوع الى نفوسنا الحقيقية والعميقة. بكلام آخر، عبادتنا تقوم على اليقظة. في صلاة نصف الليل هناك مقطوعة (طروبارية) بديعة تنشد في اسبوع الآلام: «ها هو ذا الختن...» يليها مباشرة مقطوعة ذكصاستية (تبدأ بـ المجد)، ملهمة، مستوحاة من مثل العذارى العشر: «تفطني يا نفس بذلك اليوم الرهيب». وفي افشين، (صلاة) مأخوذ من صلوات نصف الليل، نطلب من الرب الراحة المسائية في مطلع اليوم الجديد، وأن يطهرنا جاعلاً ايانا هياكل للروح القدس، وان يهبنا قلباً ساهراً، وعقلاً مستيقظاً، كي لا نوجد غافلين في النفس، بل ساهرين وقائمين في العمل بوصاياه، لنتذوق فرح خدره الالهي: «ايها الرب الضابط الكل... امنحنا ان نجوز ليل هذا العمر الحاضر، بقلبٍ ساهر، وعقلٍ مستيقظ... كي لا نوجد ساقطين وغافلين، بل ساهرين...». وفي الافشين الثالث من الافاشين الاثني عشر في صلاة السحر، يصلي الكاهن بالنيابة عن المؤمنين ويقول: «... أنر عيون اذهاننا، لئلا ننام في الخطيئة الى الموت...». وفي افشين احناء الرؤوس في صلاة الغروب، يتضرع

الكاهن الى الرب ان يحفظنا» . . . من كل عدو، ومن كل فعل مضاد شيطاني . . .» . وفي افشين: «يا من في كل وقت وفي كل ساعة . . .» الذي يتلى في صلاة نصف الليل والساعات والنوم الصغرى والكبرى الخ . . . وعند عبارة «. . . قوّم افكارنا، نقّ نياتنا . . .» هناك طابع يقظة. في صلاة النوم الصغرى، نطلب الى الرب ان يهبنا: «. . . فكراً عاقلاً، قلباً مستيقظاً، ونوماً خفيفاً . . .» وافراً باليقظة والسهر في الحرب الروحية ضد الافكار الشيطانية الدنسة التي تهاجمنا في الاحلام الليلية. في صلاة النوم الكبرى هناك عبارات يقظوية، نورد منها اثنين: «أنر عيني ايها المسيح الاله، لئلا انام الى الوفاة . . .» . في هذه المقطوعة نطلب الى الرب ان ينير عيني النفس، لأنه كثيراً ما يغيب عن المجاهدين خطر كبير يتربّص بهم: نوم الموت. كأن يجدنا العدو غافلين، فيبث من خبثه في كل واحد منا: «قد قويت عليه». اي غلبته وهزمته. العدو يقظ كما تقول احدى المقطوعات في صلاة النوم: «يارب انت تعرف عدم رقاد اعدائي الذين لا يُرون . . .» . كل قطع الفوطاغوجيكا (ارسال النور) التي تتلى في فترة الصوم الاربعين، تتميز بطابعها اليقظوي. ان انواع اليقظة وطرقها عديدة هي. هذا ما نراه في طروباريات (المعزي) و(التريودي) التي تقدم تربية شاملة من اجل حياة اليقظة واليكم بعضها: «بما انه قضي علي بأوهامي الشريرة . . .» (ابوستيخن عشية الاحد ـ اللحن الاول). وايضاً: «لما استفحص ضميري المشجوب، اجزع . . .» (كاشما اللحن الثاني ـ صباح الثلاثاء).

الترانيم المسائية تحوي طريق رجعة مضمونة الى عالمنا الداخلي الضائع، وتقدم لنا، على الدوام، المخرج الوحيد للانسان من المصائب التي لا تحد والتي يقع فيها من جراء سعيه في القلق، ومن القلق الى اليأس. المخرج الوحيد هو عودة الابن الشاطر. لأن من يبتعد عن نفسه يتلف وحدته الداخلية، ويُسلّم الى الاخفاق بلا هوادة. وعلى العكس، فمن يقبل الدخول الى مخدع نفسه ويعود الى ذاته، يكتشف السلّم الداخلي الى الوحدة والانسجام نفساً وروحاً معاً. خارج ذاته، يرى اسراراً لا

تنتسى ويتعذر وصفها. لأن معرفة الذات هي ملء وقمة كل معرفة (يوحنا كورناراكيس ـ خواطر في البرية الابائية ـ سالونيك ـ ١٩٧٢). واليكم مقاطع انسحاقية (contritive)، تصوّر معرفة النفس القائمة على اليقظة: «عندما اتفطن كثرة افعالي انا الشقي، ارتعد من يوم الدينونة الرهيب . . .» (ابوستيخن اللحن الخامس). وايضاً: «ايها الرب اجمع ذهني المتبدّد، وطهّر قلبي البائر، وامنحني توبة مثل بطرس، وتنهداً كالعشار . . .» (ابوستيخن ـ اللحن الثالث ـ عشية الاثنين)، (ابوستيخن اللحن الثالث). وفي الافشين الثالث من المطالبسي، نضرع الى الرب أن يأتي ويسكن فينا مع اسراره، فنقول: «. . . ان يدخل لينير فكري المظلم . . .» . وايضاً: «اشكرك لأنك اهّلتني انا غير المستحق . . هب ان تكون هذه لي انا ايضاً لشفاء النفس والجسد . . . ولاستنارة عيني قلبي وسلامة قواي النفسانية . . .» وفي قداس الذهبي الفم نقول: «كي يكون . . . ليقظة النفس وغفران الخطايا . . .» (افشين الاستحالة). قبل المناولة الالهية وبعدها، نحتاج الى يقظة النفس والسهر. يقظة النفس بحسب الذهبي الفم هي ثمرة المناولة، الاولى. وفي قداس السابق تقديسه، في افشين الانتيفونا الثانية، يتضرع الكاهن الى الله ويقول: «. . . أنر عيون قلوبنا الى معرفة حقك . . .» . ان استنارة عيون النفس، اي اليقظة، هي عطية الهية تقودنا الى معرفة الحق الالهي.

وفي افشين المؤمنين الاول، نقول: «ايها الاله العظيم المسبح. يا من بموت مسيحك المحيي نقلتنا من البلى الى عدم البلى. انت اعتق حواسنا من موت الاهواء . . . وحصّن كل اعضائنا واذهاننا بنعمتك» (السابق تقديسه ـ ص ١٧١ ـ عربي).

ففي هذه الصلاة اليقظوية، العميقة والكلية البهاء، نرى كل حواسنا وذهننا محفوظة بنعمة الله، وقد اكتسبت تلك الحرية الروحية. ففي القلب يقيم الرئيس الصالح . . . فيجذب النعمة ويحمي الحواس.

ويرسم لنا البار ايسيخيوس الكاهن علاقة المناولة باليقظة بوضوح كلي، فيقول: «عندما نستأهل نحن غير المستحقين . . . اسرار المسيح الهنا

الرهيبة، فلنظهر انتباه اشد، ويقظة ادق، وسهراً على ذهننا، وتدقيقاً في الرقابة على الافكار، في سعينا الى النار الالهية، أعني جسد الرب الذي يحرق ادران النفس، الصغيرة منها والكبيرة. فالرب عندما يدخل الى قلوبنا، يطرد الارواح الشريرة منها، ويسامحنا على الخطايا السالفة. وهكذا يبقى الذهن (النوس) بدون اي انزعاج من الافكار الشريرة. واذا ما حفظنا ذهننا بعد هذا، وسهرنا في ساحة قلوبنا، فإن جسد المسيح الالهي سينير الذهن ويجعله ساطعاً... عندما نستأهل من جديد الاسرار الطاهرة» (الفيلوكاليا - الجزء الاول - صفحة ١٤١).

وفي القانون الكبير للقديس اندراوس الكريتي، هناك غنى يقظوى عظيم. فلنقدم لذهننا بعضاً منه: «ان الفكر الشهواني الكائن في البشرة، قد حصل لي بدلاً من حواء الحسية، حواء عقلية، يريني ويذيقني الملذات والمآكل المرّة على الدوام» (القانون، الاودية الاولى). وايضاً: «يا نفسي، انتبهي وتصفّحي افعالك التي صدرت منك، وأحضريها بازاء ناظريك... فتتزكي» (الاودية الرابعة). وايضاً: «يا نفس اهربي من الحريق. اهربي من سعير صادوم. فرّي من افساد اللهيب الالهي (الاودية الثالثة). وايضاً: «... فإن شئت ان تسيري بالعمل والمعرفة والشيوريا، فتجددي» (الاودية الرابعة). وايضاً: «يا نفس انهضي وحاربي اهواء البشرة كما حارب يشوع عماليق. واغلبي الجبعونيين، اعني الافكار الخداعة» (الاودية السادسة). وايضاً: «ان الشيطان جرّب المسيح اذ أراه الحجارة... فارعبي يا نفس من هذه المكيدة وانتبهي كل ساعة ضارعة الى الله» (الاودية التاسعة).

الانسحاق واليقظة متلازمان. فحيث الانسحاق هناك اليقظة، وحيثما تزرع الثانية، تنبت الاولى. النفس اليقظة، المنسحقة المتواضعة، والمصلية الى الله كل ساعة، تصبح «ذهناً يعاين الله على الدوام».

ويليق بنا ان نضيف استشيرة الاربعاء قبل الشعانين، فهي لوحة نسكية يقظوية نادرة: «انني غني بالاهواء ومتوشح حلة الرياء الخداعة. مسرور بشرور الاسراف. ومظهر عدم التحنن الذي لا يحصى، متغاضياً عن

ذهني وهو طريح دون ابواب التوبة، فقير الى كل خير، وسقيم بالكسل والتهاون. لكن انت يارب، اجعلني لعازر فقيراً من الخطايا، لئلا استجدي، فلا اجد اصبعاً ترطب لساني المكتوي في سعير لا ينطفئ. بل اسكنّي احضان ابراهيم ابي الاباء بما انك محب للبشر.»

كثيراً ما يتحول الجهاد، والعقل المجاهد اليقظ الى صرخة، الى علامةِ تأهبٍ، الى انذار قوي، فالنهاية باتت وشيكة. وقنداق القانون الكبير يعبّر باسلوب رائع عن زخم الوجود اليقظ في حصن الذهن والقلب:

«يا نفس يا نفس، انهضي، في اية حالة ترقدين؟ لقد قرب اوان الانقضاء. وانت مزمعة ان تنزعجي. فانتبهي اذاً كي يترأف عليك المسيح الاله الحاضر في كل مكان والمالئ الكل».

الفصل الثالث

اليقظة اساس الحياة الروحية

من المعروف ان عمالقة الشيطان الثلاثة التي تقوّض دعائم الحياة الروحية عند المجاهد، هي: «النسيان، الجهل، والكسل». الّا ان اليقظة اثبتت انها الاقوى من هذه المفسدات الثلاث معاً. فهي تستطيع ان تكبّلها وتأسرها. اذ كيف يمكن للراهب اليقظ، او للمسيحي في العالم، ان يُستعبد للنسيان، أعني ان ينسى قذارته الداخلية، حقل القلب الممتلئ بالدنس والاشواك؟ كيق يمكنه ان ينسى نعمة الله التي تخلّص وتؤله وتعيد الصورة الانسانية الممزّقة، الى بهائها القديم؟ كيف يمكنه ان ينسى الحقائق السماوية، الحنان الالهي، التجسد، الانجيل، الصلب، وقيامة ابن الله المعلن؟ كيف يمكنه ان ينسى نعمة ومحبة وشركة الثالوث الأقدس؟ كيف يمكنه ان ينسى الخطايا السالفة، النجاسة التي التفكير فيها يولّد الألم، والندامة، والتواضع المقدس، والتوبة؟ عندما ينير مانح اليقظة كل هذه الامور، فيدخل الى اكثر الاعماق ظلمة عند المجاهد، كيف عندئذٍ سينسلّ لص النسيان ـ مهما عظم شأنه على فعل الشر والدمار، ـ دون ان يُدرك؟

بالسهولة ذاتها، تمسك اليقظة بالعملاق الثاني، الجهل الروحي الفاعل في مسرح القلب. وكثيرة هي الاضرار الناجمة عن الجهل، ولا تحصى الضحايا التي تسقط بفعل تآزر النسيان مع الكسل في عالم معاصر يزعم معرفة كل شيء، لكنه يجهل ان «الحاجة هي إلى واحد» (لوقا ١٠: ٤١ ـ ٤٢). اليقظة لا تسمح للجهل ان يظهر، فبالجهاد ومؤازرة قوة الصلاة القلبية، تستمد من الرب المعرفة، معرفة الله، ومعرفة ذواتنا.

المعرفة الروحية هي عطية الروح القدس. واليقظة تسبق العطية. بدون السهر واليقظة، لا ينكشف الجهل، بل يقبع، يختفي، لأنه مفعم بالانانية، لا سيما في الانسان التكنولوجي المعاصر. الجهل والانانية يشيعان غشاوة وضباباً. اما نور اليقظة، فيفضح عري الاثنين معاً. بنفس الطريقة، تسحق اليقظة العملاق الثالث (الكسل)، فتخنقه وتلملم النفس وتنهض الارادة وتشد اعصابها من اجل حفظ وصايا المسيح، معيار المحبة الحقيقية، حسب قوله: «من احبني حفظ وصاياي».

ويستطيع المسيحي ان يظل حراً من قيود الجهل والنسيان، دون ان يكون ذلك كافياً للحصول على ضمير نشيط. في الحياة الروحة تتلازم النظرية والتطبيق. المسيحي عامل نشيط، يثابر على حفظ الوصايا الالهية. فلا يتبرر بأعماله وحسب، وهو يعرف ذلك حق المعرفة. المسيحي يجتذب النعمة، عندما يتذكر الله في المعرفة والعمل، على اساس الصلاة القلبية، فيصرخ على الدوام من القلب طالباً رحمة الله.

اليقظة تكبّل أعداء الحياة الروحية، وتحقق معرفة الذات جذرياً على قاعدة الذنب الشخصي. بدون معرفة الذات، تبقى النفس عديمة الحركة والتأثير تجاه التنقية المنشودة. معرفة الذات أمر تحققه اليقظة. اليقظة والسهر هما أشبه بمثقب ينزل إلى أعماق اللاوعي sub-conscious، فيتمكن بفعل الصلاة، من اخراج نجاسة اللاوعي، حتى تحل محلها سواقي النعمة الإلهية التي تروي على الدوام كل وجودنا الروحي. «سأل أحد الأخوة الآب بيمن قائلاً: ان أفكاري تزعجني وتحثني على اهمال خطاياي والانشغال بنواقص أخي. فحدثه الشيخ عن الآب ديو سقورس انه كان يبكي في قلايته بينما كان تلميذه في القلاّية المجاورة. فلما مضى إلى الشيخ، وجده يبكي، فقال له: لما تبكي يا أبت؟ أجابه الشيخ: أنا أبكي خطاياي يا بني. فقال له تلميذه: ليس عندك خطايا يا أبتي. أجابه الشيخ قائلاً: اعلم يا ولدي انه إذا تركت نفسي ترى عيوبي وخطاياي، لا أكتفي بثلاثة أو أربعة للبكاء عليها معي. فإذا تجاسرنا على ترك نفوسنا ترى الخطايا، ربما احتجنا إلى العشرات من الناس للبكاء على الخطايا». «ان من يعشق

اليقظة ويجسّدها، يعرف انه في القطاعين ـ الإلهي والانساني ـ المتكاتفين معاً من أجل خلاص النفس، وان هذا هو أمر خاص. فعمل نعمة الله هو أن تسامح وتعتق، بينما عمل الناسك فهو أن يلتصق حياتياً بذنبه الشخصي (personal guilt). فعندما يثبت في عيش ذنبه، فهو لا ينكر بركة النعمة الإلهية، ولا يشك بقدرة الله. انما يعبّر فقط عن ضعفه الإنساني، فيقدم لله ما يقدر على تقديمه، أي ـ عيش ذنبه ـ. بهذه الطريقة يقهر العدو ويغلبه. بهذه الطريقة يحيا في اليقظة، محصّناً نفساً وروحاً ـ كآلة منيعة ـ فيسخر من حيل العدو والاعيبه» (يوحنا كوروناراكي: سير ابائية عن الساعة الحادية عشر ـ ص ٧٩).

إن غياب اليقظة يجعلنا نتوقف عن الاهتمام بذواتنا أولاً، ومن شأنه أن يدفعنا إلى الانشغال بالآخرين، ثانياً، فنسقط غالباً في الأمور الحقيقية أو تلك التي تبدو هكذا. وقد اطلعنا الآب ايليا على شيء مماثل من خبرته الشخصية، فقال: «بدا لي أنني رأيت انساناً يضع في الخفاء، تحت ثيابه، قنينة نبيذ. فلكي أخجل الشياطين بأن هذا كان وهماً وخداعاً لا أساس له، قلت للأخ: أرجوك دعني أرى ما بداخل معطفك، فكشف ثوبه، فتبيّن انه لم يكن يخفي شيئاً. هذا قلته حتى انكم إذا رأيتم شيئاً بأم أعينكم، أو سمعتم عنه بآذانكم، لا تصدقون. ثم أردف الأب قائلاً: ليكن انتباهكم على أفكاركم وذكرياتكم، عالمين أن الروح الشرير، من هناك يأتي، وذلك كي يضعف النفس، جاعلاً اياها تثق بما يؤذي فقط، فينشغل الذهن به، فنبتعد عن خطايانا، وعن الله».

من شأن اليقظة والرقابة الدقيقة على حياتنا الروحية، أن تساعدنا على تقويم الأعمال والضمير الطاهر بمقاييس الهية انجيلية. «جاء مرة بعض الأخوة إلى الأب بمفو، فسأله أحدهم قائلاً: يا أبت. اني أصوم يومين وأكتفي بخبزتين. فهل اخلص بما أفعل، أم أني مخدوع؟ ثم قال له الآخر: يا أبت. اني أجني من عمل يدي قطعتين نقديتين صغيرتين كل يوم، فأحتفظ لنفسي بالقليل، وأتصدّق بالباقي. فهل اخلص بما أفعل، أم اني مخدوع؟ ورجواه كثيراً أن يجيبهما. فلم يفعل. وبعد أربعة أيام، همّا

بالرحيل، فعزّاهما الرهبان قائلين: لا تحزنا، فأجركما من الله. الأب بمفو اعتاد الصمت، وهو لا يتكلم بسهولة بدون أن يُعطى علماً روحياً ينطق به. فذهبا إلى الشيخ بمفو وقالا له: يا أبانا، صلّ لأجلنا. فقال: وهل تنويان الرحيل؟ قالا: نعم. عندها نهض وكتب على الأرض وقال: بمفو يصوم يومين، ويكتفي بخبزتين، لكن هذا لا يؤهّله أن يصبح راهباً. بمفو يجني من عمله قطعتين نقديتين في اليوم، ويتصدق بها، فهل يجعله عمله هذا راهباً؟ ثم قال لهما: حسنة هي الأعمال. لكن ليس من خلاص بدون ضمير نقي طاهر ازاء القريب. فلما تزوّدا بالضروري من العلم الداخلي، غادرا المكان بفرح».

اليقظة تتابع أعمالنا الخارجية، وفوق كل شيء، ترقب حركات الأفكار وترصدها. هنا مركز الثقل عند الآباء القديسين. «سأل أحد الأخوة الأب بيمن عن تأثير الأفكار وأضرارها، فأجاب: هذا يشبه انساناً يحمل بيسراه ناراً، وبيمناه وعاء ماء. فإذا اشتعلت النار في يسراه، أخمدها بالماء الذي على يمناه. النار هي بذار العدو. أما الماء فهو أن يجعل ثقته كلها بالله». «وقالوا عن الأب سيسوي الذي من الطيبة انه عند انتهاء الصلاة في الكنيسة، كان يتوجّه إلى قلايته فوراً. فقالوا: به شيطان. أما هو فكان يكتفي بعمل الله وأعني اليقظة والصلاة». «سأل بعض الأخوة الأب سلوان قائلين: أي نسك بذلت يا أبانا حتى بلغت هذا التعقّل؟ أجابهم: في الحقيقة يا أخوتي أني لم أترك في قلبي فكراً يغضب الله».

اليقظة هي بمثابة ضابط استعلامات مسؤول في الوقت ذاته عن الأعمال الحربية. فهو يعرف دائماً أن يدعو ويستدعي عون الرحمة الإلهية الكلية القدرة، القادرة أن تضعف كل عدو خارجي وداخلي وتجرده من سلاحه، وتراقبه بعد تجريده منه. اليقظة لا تنام في السعي إلى الهدف. انها عين النفس التي لا تنام. انها العدسة التي تتابع كل حركة في العالم النفسي وذلك كي تبقى تربة القلب نقية، معطاءة، وقابلة للنعمة، وفعل الروح القدس.

ان غاية الحياة في المسيح ـ كما يعلّمنا جميع الآباء القديسين، وكما

يذكر القدس سيرافيم ساروف في حديثه إلى تلميذه موتوفيلوف ـ هي اقتناء الروح القدس. كذلك فإن غاية اليقظة الداخلية والصلاة، هي أيضاً اقتناء الروح القدس. ان من يقتني حياة اليقظة، يبلغ هدف الحياة في المسيح.

الحياة في المسيح، هي الحياة الانسانية المتألهة بالنعمة، في المسيح. غاية اليقظة الروحية ليست هي، إلا تألّه المؤمن، وسكنى الثالوث الأقدس في القلب المتطهر من الاهواء والشياطين. فكيف لا تكون اليقظة من أهم دعامات الحياة الروحية؟ «سأل أخ الأب بيمن قائلاً: ما الأفضل، الصمت أم الكلام؟ أجابه الأب: من يتكلم حباً بالله، فحسناً يفعل. ومن يصمت حباً بالله، فأيضاً حسناً يفعل». «سأل أخ الأب بيمن قائلاً: كيف يستطيع المرء أن يتجنّب الاساءة ضد القريب؟ أجابه الأب: نحن واخوتنا صورتان: عندما ينتبه المرء لنفسه ويلومها، فإنه يرى أخاه جديراً بكل احترام. لكن عندما تبدو له نفسه صالحة، فإنه ينظر إلى أخيه كأنه شرير. لقد كتب القديس اسحاق السرياني بمنتهى الحكمة يقول: «إذا حفظنا ناموس اليقظة الروحية، وعمل التمييز، بمعرفة روحية، فإن حياة المسيح تنمو فينا، فتتوقف هجمات الأهواء على الذهن».

الغنى الروحي وصحة النفس، يتولّدان من اليقظة والجهاد. ومهما تقدمت الأيام بالانسان، فإنه يظل بحاجة إليهما، وذلك كي يحفظ كنزه ويصونه. أما إذا تخلى عن ذلك، يصبح ضحية الاستلاب (يمرض).

ولا يليق أن تعمل روحياً بقصد قطف الثمر. إنما عليك أن تجاهد حتى الرمق الأخير، فكثيراً ما يتلف البَرَدُ فجأة الثمرةَ التي آن وقت قطافها.

الفصل الرابع

الصلاة القلبية وخلاصنا

«وليس بأحد غيره الخلاص. لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطي بين الناس، به ينبغي أن نخلص» (أعمال ٤ : ١٢). المسيحَ يسوع حاضر في اسمه، ومخلص لكل العالم، لا سيما عالمي أنا، شخصياً. ان لفظة «يسوع»، تعني «مخلص» أو «خلاص». اسم يسوع كما ألفظه بمفرده، أو مع سائر كلمات الصلاة: «أيها الرب يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطئ»، يصبح الرباط، الصلة التي توحّدني بالرب نفسه، ويفتح لي طريق الخلاص، محركاً قدمي للسير بثبات. هذا الاسم يأتي بالخلاص، وأعني المسيح، في داخلي. لقد خلقني المسيح من العدم. انه حياتي وقيامة وجودي (يو ١٥ : ٦).

يسوع هو أكثر من معطٍ بالنسبة للجميع. نحن وسوانا بحاجة إليه. انه العطية أيضاً، الاثنان معاً: المعطي والعطية بآن. فيه تقوم كل الصالحات (يو ٦ : ٦٨ ـ ٦٩). إذا جعت، كان هو طعامي. وإذا بردت، كان دفئ وحرارتي. إذا ما اضطهدت، كان هو عتقي وحريتي. وإذا كنت مدنساً، فهو طهري ونقاوتي (١ كور ١ : ٣٠).

جميعنا نريد الخلاص. لكن علينا أن ندرك ان دون ذلك عاملين: الإلهي والإنساني: النعمة الإلهية، وارادتنا البشرية. علينا أن ندرك مقدار المرض في طبيعتنا، ومقدار الضعف أيضاً. كثيراً ما نجعل نصب أعيننا هدفاً، وهو، أن نسير إلى الأمام، فأجنحة ارادتنا ضعيفة. محاولاتنا ضعيفة. أساسات بنائنا الروحي، متهالكة ومتداعية. لكن عندما ندرك

وهن جهودنا، ينسكب على شفاهنا قول المرنم: «ان لم يبن الرب البيت، فباطلاً يتعب البناؤون. إن لم يحفظ الرب المدينة، فعبثاً يتعب الحراس» (مزمور ١٢٧ : ١).

باطل هو كل بناء روحي وكل حصن روحي، بدون حضور الرب. باطل بالتالي كل عملنا بدون صلاة. الصلاة من شأنها أن تحيي حضور الرب فينا، وتحوّل كل عمل ـ كان من الممكن أن يكون بدون جدوى ـ إلى نور ومجد الآب السماوي. لهذا السبب يدعو القديس يوحنا السلمي، الصلاة، أم كل الفضائل. الصلاة تلد، وتغذي، وتقوي وتزيد كل فضيلة، في المسيحي. «استعبد الأم فيدين لك كل أولادها»، أي الفضائل. ارادتنا تصبح قوية، فقط عندما تتحد بالمعونة الإلهية. وعندما تردّد على الدوام: «أيها الرب يسوع المسيح ارحمني»، فإنك ستشعر في قلبك بالقوة الكبرى. وهذا ليس غريباً. فالقوة ليست قوتك، انما هي قوة المسيح الذي يأتي ويسكن فيك، ويسطع في وجودك، الأمر الذي نراه بوضوح في الحياة الإلهية والأقوال الملهمة التي نطق بها بولس الرسول «أنا قادر على كل شيء في المسيح الذي يقويني» (فيليبي ٤ :١٣). طبيعي هو ذكر الله بحرارة، ذكر يسوع الذي نناديه بقلب ملتهب، وتوجّع صادق، كي يغسل دنس الأفكار والمعاني والأقوال والخيالات والصور القائمة، بكلام آخر، كل ما يهاجم النفس ويدنو منها ليبتعلها. باستدعاء اسم يسوع، كل شيء يتبدد للحال، فقد قال: «بدوني لا تقدرون أن تعملوا شيئاً (يو ١٥ : ٥) ـ (البار فيلوثيوس ـ الفيلوكاليا ـ الجزء الثاني ـ ص ٢٨٢، ٢٢). وهذا نراه في حالة بطرس الرسول الذي كلما كانت عيناه مسمرتين في وجه السيد، كان يمشي على الأمواج براحة. لم يكن ذهنه يجد صعوبة في تذكّر الرب (المسيح)، وتذكّر محبته، واعتماده عليه. فهو الذي أعطاه النعمة أن يسير على البحر دون أن يغرق. ان دنو الرسول من المعلم، وارتباط نفسه به، كان صلاة. فكلما ضعفت الصلاة، ضعف ايمانه، فكانت تحيط به الشكوك وقلة الايمان. في سقطته، كان فمه وقلبه في صلاة. لم ينس قلبه الصلاة التي من شأنها أن تخلص الانسان على نحو

عجيب. كان يصرخ: يا رب، نجّني. اسم يسوع يخلصنا عندما نتلفّظ به بشوق وانسحاق مع تنهد داخلي». الخطأة سيجدون الرب من جديد». هذا ما يقوله الأب ليف جيله في كتابه: «الدعاء لاسم يسوع». في تلك اللحظة يأتي إلينا يسوع، وكما نحن، فيبدأ من حيث تركنا، أو بالأحرى من حيث تركناه نحن. وعندما نقول بنفس الطريقة: «يا يسوع»، وبعد واحدة من الخطايا، أو بعد مرحلة من الغربة، فالرب يطالبنا أن ندمج شخصه واسمه بكل تفاصيل ورتابة حياتنا، فنغرس الاسم والشخص في مركز كياننا ووجودنا. وإذا ما قرنّا الاسم بالايمان بمن هو الشفاء لكل الناس من خطاياهم، سنجد فيه، علامة العتق والحرية تمتد إلى كل الأزمان، وإلى كل الكون. في هذا الاسم نجد: «الحمل المذبوح عن خطايا العالم» (يو ١ : ٢٩) ـ (١ يو ٢ : ٢) ـ (رؤ ٥ : ٦و١٢ . . .).

يا أخي، يمكن لكل لحظة من لحظات حياتك أن تخلّصك، كما ويمكنها أيضاً أن تدمرك إلى الأبد. لهذا فاصرخ منادياً يسوع في كل لحظة. ليكن ذلك عملك الدائم وشغل ذهنك استدرار رحمة الرب، فتطبع خلاصك بالمسيح، بختمٍ أصيل يلائم حاضرك ومستقبلك بآن. على رحمة الرب تتكل الخليقة، كلّ الزمان، كل خلاصنا، فلنضرع إلى الرب، أن تكون رحمة مسامحة، رحمة توبة، رحمة تطهير، رحمة استنارة ونور لعيون أذهاننا المغمضة العمياء. بدون الرحمة الإلهية يكون الانسان سائحاً يائساً ينزل من أورشليم إلى أريحا ليس له سامري شفوق أو استشفاء في فندق. . . ، يكون الانسان أعمى يجهل مجيء الرب وعبوره. أعمى لم يعرف بعد أن ينادي: «يا يسوع يا ابن داوود ارحمني.»، حتى ولو طالبته الشياطين والناس بالصمت.

ترى ماذا ينتظر هذا المخلوق الضعيف، من نفسه حتى يخلص؟ يتعذر على الانسان اقتناء الايمان بدون صلاة، الأمر الذي يحصل لدى اقتناء الأعمال الصالحة الأخرى. لماذا الانتظار؟ لماذا لا يتحرر المرء ويتقوى كي لا يفقد خلاصه، بل يستبقيه ويحفظه؟

الكتاب المقدس يعلّمنا أن الإنسان وكل الخليقة، يتجهون نحو العدم، كرهاً لا طوعاً، متنهّدين ومتوقعين حرية أبناء الله (رومية ٨: ٢٢). أليس التنهد الميستيكي ـ الذي تعيشه كل الخليقة، ونزوع النفس الداخلي، نحو الهها، ـ شكلاً من أشكال الصلاة القلبية؟ الانسان دون علمه، يحمل هذه الصلاة في أعماقه، بالقوة (potentially). ان هذا التنهد ـ المتمركز حول المسيح (christocentric)، والقائم في العمق على الدعاء إليه، ـ هو طبيعي فينا، يكفينا أن ننقّب بحثاً عنه في أعماقنا، فهو كنز مدفون لم يُستثمر بعد (متى ١٣: ٤٤ ـ ٤٦). الله نفسه سيعيننا لبلوغ الصلاة القلبية، صلاة اسم يسوع الكلي الحلاوة. الصلاة هي عطية النغمة كما يقول القديس مكاريوس. الله يريد استعدادنا. انه يريدنا أن ندعوه كي يفعل (في قلوبنا).

من يشك بأن الرياضات الروحية والجسدية ـ، الأتعاب، الأصوام، الاسهار والصدقات وسائر الأمور الصالحة الأخرى ـ لا تجدي، إذا كانت لا تقوم على تنقية القلب والذهن؟ لا أعرف كيف يمكن أن تتطهر جذورنا الروحية وحياتنا، بدون الانغراس في المسيح، ليكون المسيح طينتها وعصبها وهيكلها.

المسيح هو زهرة جذورنا وثمرتها بآن.

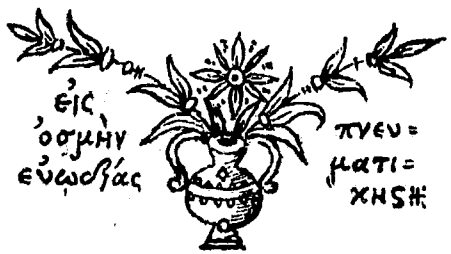

الفصل الخامس

سوط المسيح

إن مشهد (رؤية) التجار، وسوق الحيوانات في الهيكل، كان أمراً غير لائق بقدسية المكان. فالحالة مهينة لله. أن يتحول الهيكل إلى اسطبل، إلى مركز دنيوي، إلى مكان للصرافة، فهو أمر غير مقبول، لا سيما من يسوع نفسه الذي كان يرى بيت أبيه، وقد تحوّل إلى بيت للمتاجرة: «ورأى في الهيكل باعة البقر والغنم والحمام والصيارفة جالسين إلى مناضدهم . . . » (يوحنا ٢: ١٤). البقر والغنم والحمام الخ . . . والأوساخ الناتجة عنها، بالإضافة إلى أوساخ سادتها وأصحابها، كانت كلها في الهيكل، فصار المكان سوقاً للبيع والشراء، مما حرّك غيرة الرب الشرعية، فصنع سوطاً من حبل و. . . . . (يوحنا ٢: ١٥ ـ ١٦). كان موقف المسيح جريئاً، حاسماً، ينم عن رجولة. يسوع وحده كان يقدر أن يفرض مثل هذا التدبير. وحده فقط، كان يقدر أن يحسم الأمر مع التجار والصيارفة، بدون أن يخشى مقاومةً أو ردة فعل. كان صاحب سلطان. كان رب البيت. بيت أبيه بيته، وهيكل أبيه هيكله. لذا فإن استعمال التجار للهيكل، لم يكن فقط عملاً اجرامياً وغير لائق، بل كان غير شرعي أيضاً، فصنع يسوع سوطاً أخرج به الباعة والحيوانات من الهيكل، وقلب موائد الصيارفة. لم يكن ممكناً أن يرى كل هذا الانحراف دون أن يقوم بعمل يصحح به الوضع، ويعيد الوقار والاحترام. النبي قال: «غيرة بيتك أكلتني» (مزمور ٦٨/٦٩: ١٠). لقد تذكر التلاميذ (يوحنا ٢: ١٧) غيرة المسيح، محبته، شوقه، حبه للنقاوة، جمال الهيكل، فهذه كلها التهمت الرب كالعشب.

ان هذا المقطع المتعلق بطرد الصيارفة من الهيكل على يد الرب، يمكن فهمه، (تفسيره) بسهولة، على صعيد روحي. قلب كل انسان هو هيكل. انه هيكل حي لإله حي «ألستم تعلمون ان جسدكم هيكل للروح القدس الذي لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم؟» هيكل قلوبنا خُلق، كي يسبّح الله ويعبده ويحبه، كي يخفق شوقاً إلى العريس. خُلق كي يسكنه الله نفسه المثلث الأقانيم، الآب والابن والروح القدس، بنوره وقواه غير المخلوقة.

لهذا فإن الحاجة هي إلى هيكل واحد، وقلب واحد، ينجليان بالنقاوة والانضباط الروحي. لكن يالشقاوة قلبنا غير المصنوع بيد، الذي تفوق قيمته قيمة هيكل سليمان. ليس هو من حجارة ورمل وطين. انه هيكل روحي كثيراً ما نجعله سوقاً للمقايضات والمتاجرة والصيرفة. بدل المواهب الروحية والفضائل، يقتبل الحيوانات (الأهواء). بدل الملائكة، الشياطين. وبدل أن يقتبل الله على مائدته المقدسة ويعبده، يعبد الشيطان وأصنامه على مائدة اللصوص. وحالة هيكلنا الخفي تبعث في العادة على اليأس. فهي أسوأ من الهيكل العبراني الذي صادفه الرب. في هيكل قلبنا تجار أشرار انجاس. فيه قذارة ونجاسة ممقوتة. أفكار نجسة، أفكار الجبعونيين (اندراوس الكريتي). أفكار من أعماق القلب مع شهوات، شرور، أطماع، أنانيات، وخطيئة من كل نوع تعشش وتتربى فيه (استعمل الكاتب عبارة تشتق من لفظة جنين). فيه اعداء وقراصنة، ظلمة وقتام وفوضى تجعله بيتاً للمتاجرة، شهوانياً ومادياً وشيطانياً. كيف يتطهّر هيكل القلب إذا ويتجدد؟ كيف ستغادره الحيوانات (الأهواء) مع نجاساتها؟ كيف سيغادره التجار الأشرار مع تجارتهم الشيطانية؟ ما هو السوط القوي الذي يأتي بالنقاوة؟ اسم يسوع هو السوط الذي يجلب حضور الرب القوي، الإلهي، والرهيب. هذا الاسم يضرب الشياطين، فيبدد الأوساخ ونجاسة الأهواء. المسيح يأتي إلى هيكل القلب حاملاً سوطاً. السوط هو المسيح نفسه. اسمه هو السوط[1]. الصلاة باسمه هي السوط. ويقول

(١) وقال في موضع آخر: «هؤلاء الانجاس سيهربون من صلاتك لأنها تجلدهم كما =

القديس يوحنا السلمي: «باسم المسيح فلنضرب المحاربين. وذكره، فليلازم تنفسنا». وعندما نصرخ إلى المسيح بحرارة على الدوام، فإنه يرفع عنا يد الشياطين، فلا تعود تدخل إلى قلعة النفس، وهذا ربح كبير (لنا). فالشياطين اعتادت أن تلقّن النفس الشرور خفية، مع الأفكار. ويقول القديس ذياذوخوس فوتيق بأن الشياطين عندما تدخل إلى القلب، تحتفظ به جيداً، ومنه تشن حربها محاولة ايهامنا بسخرية أن هجومها هو من خارج. المجاهد الروحي، المسيحي الحقيقي، يستمد من يدي المسيح السلاح ضد الاعداء، فيصرخ بنشوة الظفر: «كل الأمم أحاطت بي وباسم الرب قهرتها».

بين هيكل سليمان وهيكل قلوبنا بون كبير. ما هو؟ هناك دخل الرب بدون دعوة. أما هنا، فيحتاج إلى أذن للدخول. انه يريدنا أن نفتح له ليدخل. يريدنا أن ندعوه. يريدنا بالأحرى أن ندعوه على الدوام، بالحاح، بحرارة، وبدون توقف.

«غيرة بيتك أكلتني». هل فكرنا يوماً بمقدار حب الرب وشوقه وغيرته على بيته، أعني قلوبنا؟ بكل تأكيد، فغيرة الرب قوية جداً. محبته لا تحد. انها ملتهبة أكثر بكثير مما بدا منه عندما طرد الباعة في الهيكل العبراني. انه يقول: «ها أنا واقف على الباب اقرع. فإذا سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعشى معه ويتعشى معي» (رؤ ٣: ٢٠).

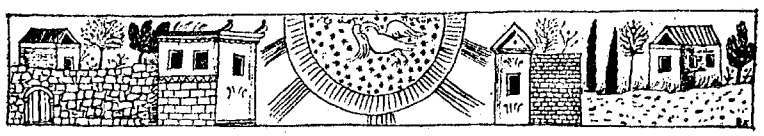

= بنار» (السلم ٢٨: ٦٣). وقد كرر هذا الكلام كالستوس واغناطيوس بريانشانينوف.

الفصل السادس

يسوع الكل في الكل

صلّوا على الدوام باسم يسوع، فهو الأمر العذب والاسم الحلو وميرون السماء: «لرائحة أدهانك الطيبة. اسمك دهن مهراق. لذلك أحبّتك العذارى. اجذبني وراءك فنجري. ادخلني الملك...» (نشيد الأنشاد ١: ٣ ـ ٤). للصلاة الدائمة فائدة كبيرة جدية وعملية. فأنت تستطيع أن تصلي بدون انقطاع مهما كنت تعمل، وحيثما كنت. في كل آن ومكان. في البيت يمكنك أن تصلي. في المعمل. في الطريق. أثناء تناول الطعام. في الباص. أثناء السير. ليلاً ونهاراً. فالصلاة هذه تؤمّن لك يوماً مباركاً، كاملاً، سلامياً، ويوماً لا خطيئة فيه. انها تنثر نور المسيح على درب حياتك، وتعطّر وجودك بشذى عبيره.

يا أخي، صلّ بلا انقطاع، فاسم يسوع يجعل لوقتك قيمة، ويبارك عملك وتعبك، وينير ذهنك، ويطهّر قلبك مضرماً فيه المحبة. أأنت كادح أم تاجر؟ صلّ بلا انقطاع، فالمسيح يقدّس عملك وتجارتك. أأنت مزارع أم فنيّ؟ صلّ بلا انقطاع، فالمسيح يقدس حقلك وفنك. أأنت تلميذ أم طالب؟ صلّ بلا انقطاع، فالمسيح يقدّس مدرستك وجامعتك. أأنت عالِم أم موظف؟ صلّ بلا انقطاع، فالمسيح يقدّس علمك ووظيفتك. أأنت جندي، أم مغترب، أم بحّار؟ صلّ بلا انقطاع، فالمسيح يقدّس جنديتك وغربتك والبحار والمحيطات التي تجوبها. أأنت أب أم أم؟ شاب أم فتاة؟ صلّ بلا انقطاع، فالمسيح يقدّس عائلتك وشبابك وتطلعاتك. المسيح هو الشباب الأبدي، والفتوة الدائمة. هل حدث ان كنت في غبطة، اطلب

يسوع في الصلاة، فهو ديمومة سعادتك، انه الفرح الإلهي. هل أنت حزين، اطلب المسيح، فهو تعزيتك وسلوتك. هل أنت يائس وتقضّك مشاكل وهموم ونزاعات؟ اطلب المسيح، فهو الرجاء والنور. هل أنت مريض؟ اطلب المسيح في الصلاة، فهو الصحة والعافية. أأنت يتيم أم فقير؟ اطلب المسيح، فهو الأب والأم. انه الثروة التي لا تنضب. أأنت حكيم أم أمّي؟ اطلب المسيح، فهو الحكمة التي من فوق. أأنت على عتبة الموت؟ اطلب المسيح، في الصلاة، فهو الحياة والقيامة.

يتّسم عصرنا بالقلق والضيق والغموض. انه عصر الآلة والتكنولوجيا الضاغطة ـ بضراوة ودونما هوادة، ـ على حياة القلب. المادية، العدمية، الفردية، الخشونة والعنف، الشك وغياب الأمان، موت الله، موت المحبة، دينونة حياة الروح، الانتفاخ بالانا الجسدي، العطش إلى المعرفة الدنيوية، المجد الفارغ، احتقار المعرفة الروحية، نسيان الانسان للصورة الإلهية فيه. هذه كلها وسواها، جعلت المعاصرين يحيون ويتحركون في فراغ وفوضى. المسيح يسوع هو في الحقيقة، السلام الوحيد والفريد لكل عصر وجيل، لكل زمان ومكان. ان استدعاء اسم يسوع ـ لا سيما اليوم ـ هو ضرورة ملحّة، يمليها علينا الفراغ الانساني المتفاقم. المسيح يناديكم: «سلامي أعطيكم، لا كما يعطيكم العالم...» (يوحنا ٤: ٢٧). وإذا كنا قد جعلنا المسيح ـ عبر الصلاة الدائمة ـ حياة لنا في كل لحظة، وطلبناه على الدوام، بحماسة ملتهبة، فإننا لن نقضي سويعاتنا عبثاً في أفكار لا تجدي وأحاديث دنيوية لا تنفع، وأعمال أثيمة، من شأنها أن تزيد من قلقنا واهتماماتنا الدنيوية، وتبعدنا عن ميناء السلام الإلهي.

الناس اليوم باتوا تعساء للغاية، أشقياء جداً، عصبيين، وقد ولجوا ايقاعاً من الحياة يدور أبداً حول أناهم، لا حول المسيح. يتمحورون حول ذواتهم. انسانهم مركزهم، لا المسيح. انهم يعانون من قلاقل واضطرابات نفسية لا تحصى. الناس يدفعون ثمن ضياع الذهن والقلب معاً. يبعزقون زمانهم في عبادات كثيرة لا جدوى منها. ويغيب عنهم المسيح مصدر العتق والحرية. يغيب اسمه. تغيب الصلاة المرفوعة باسمه

والتي من شأنها أن تعيد الانسان إلى مساره الحقيقي ودربه الطبيعي. بدون المسيح، يعاني الناس انفصاماً في القلب. في العالم كثيرون مصابون بهذا الدواء، ويطوفون في الشوارع بأعداد تفوق عدد الذين يقيمون في المصحّات العقلية بشكل رسمي.

من شأن الصلاة القلبية أن تصون للإنسان سلامة شخصيته، فيجانب التمزق. من شأنها أن تساعده كي يجد أصله الإلهي، ويكتشف في ذاته الفرح غير الموصوف وهو أن «ملكوت الله في قلوبكم» (متى ٣:٢) - (لوقا ١٧:٢١).

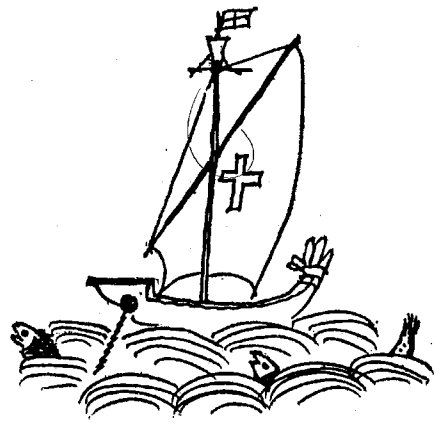

الفصل السابع

كم وكيف ينبغي أن تصلي

نعرف أناساً كثيرين يمكنهم أن يسيروا في ضوضاء المدينة، وسط صخب العاصمة، وذهنهم حر طليق وغير مشتّت، لا تكبّله سوى الصلاة الدائمة. الأمر الذي يعني ان هذه الصلاة خلقت في نفوسهم شوقاً الهياً الى المسيح، فجذبتهم السماء وحياتها. «ان من استطاع ان يكتسب الصلاة الحقيقية، وصار كيانه مغموراً بها - بسبب محبة المسيح - لا يعود عبداً لأحاسيسه، ولا يفضّل أي أمر آخر عليها» (نيكيتا ستيثاتوس).

يا اخي، صلّ ببساطة. صلّ بسلام وهدوء. وكما تتنسّم الهواء، هكذا صلّ مع أنفاسك. فقط يعوزك ان تجمع حواسك وارادتك حول اسم الرب القدوس. «دع اسمه ينتشر في ارجاء نفسك انتشار نقطة الزيت على قطعة قماش. سلّم كل كيانك له، واحبسه في الاسم القدوس.

الاّ انك لن تلطّف نفسك، ولن تجعلها أرضاً صالحة، مثمرة ومخصبة، ما لم تعلّمها اولاً البكاء والنوح والتخشع عند صليب الرب، وأمام خطيئتها، فتشعر من صميم القلب بالمسؤولية.

مراراً، وقبل أن تبدأ صلاتك، أو أثناء اقامتها، أو خلال الاستراحة، وبعد جهد وتعب، فُضّ الكتاب الالهي - لبرهةٍ، جائلاً في مروجه، - تجدْه مربض خضرة ترتع فيه. ستجد فيه المناخ الطبيعي الذي تنشده نفسك، فيرتوي عطشها وجوعها الى المسيح. المسيح هو محور الكتاب. لذا فالصلاة القلبية ستجعلك تحتضن الكتاب شوقاً اليه. الكتاب المقدس سيعيد اسم المسيح - عفوياً - الى قلبك والى فمك. ولكي

تكون كل صلاة مقبولة لدى الله، ومثمرة، فهذا يستوجب تركيز الذات وجمعها. واذا كنت ذا اهتمامات كثيرة في عملك، فاجعل اسم المسيح في ذهنك، مع الصلاة الدائمة التي تقويك وتحميك كي «لا تخنقك اشواك الاهتمام» (متى ١٣ : ٧).

وفي الساعة المحددة لتلاوة القانون «اطرح كل اهتمام دنيوي» رافعاً ذهنك وقلبك الى الرب، فكل عصفور اذا ما همّ بالطيران، فإنه يستجمع قواه اولاً. ان أعظم نجاح من اجل فلاحة الصلاة القلبية، هو بالضبط استجماع الذهن وتحريره من كل امر دنيوي يشدّه. نحن معشر المبتدئين، نحتاج الى لجم الذهن، والبقاء داخل ذواتنا منشغلين بكلمات الصلاة التالية: «أيها الرب يسوع المسيح يا ابن الله ارحمني». كثيرون من الآباء القديسين، والقديس نيقوديم الآثوسي أيضاً، ينصحون المبتدئين باحناء رؤوسهم وضبط تنفّسهم قليلاً كوسيلة تساعد على استجماع الذهن للصلاة: «أيها الرب يسوع المسيح»، للشهيق. و«ارحمني»، للزفير. وهذا يمكن أن يدوم لمدة قصيرة حتى يتم استجماع الذهن. بعد ذلك، ندع الصلاة تجري على سجيّتها، مع كل تنفّس، ناعمة، هادئة، كجدول رقراق يروي على الدوام اعماق كياننا ووجودنا. ليكن انتباهنا منصّباً على كلمات الصلاة. وكما قلنا، دعونا نرغم ذواتنا على تلاوة «الصلاة»[1] بصوت مسموع أو تمتمةً، لكن على ايقاع رشيق، وذلك لكي لا يتمكن الذهن من تشكيل أي فكر للتشتيت. وعندما يطول بقاء الذهن في الصلاة، عندها يألفها داخلياً، ويستعذبها كما لو كانت عسلاً في الفم. بعدها نطلب ترداد صلاة «أيها الرب يسوع المسيح ارحمني». واذا حدث وتوقفنا، فإننا سنحزن من جراء ذلك. ذهننا (النوس)، هو مغذي النفس. عمله هو ان ينقل كل ما يراه ويسمعه، الى القلب الذي هو مركز الوجود الجسدي والروحي في الانسان. وعندما نتلو صلاة الرب يسوع، دون ان نتخيّل شيئاً آخر، فعملنا يقتصر على الانتباه لكلماتها، عندها فإن الذهن بارادته وقوته، سينزل الصلاة الى القلب بينما نحن نتنفس. وهناك

(١) الصلاة هنا هي صلاة الرب يسوع.

في القلب، يحتفظ بها ليرددها ايقاعياً. وهذا يحصل الى ان تخيّم نعمة الله على النفس. ان نعمة الله قوة محرّكة تقوم بكل شيء.

في البداية تكون نعمة الصلاة للتنقية، ثم ما تلبث ان تصبح للاستنارة. وتأتي النعمة بعد جهاد طويل وتغصّب مع دموع ونوح. أما من جهتنا، فيكفي ان نصلي على الدوام: عندما نمشي، ونستلقي، وقوفاً، ونحن نعمل، في الليل والنهار. عندما يتعب الذهن، يتلقّفها اللسان، وينقلها الى الذهن حتى يرتوي منها ويشبع، عندها تصبح الصلاة فعلاً وطاقة. أي ان النعمة تعمل عندئذٍ بدون ارادة الانسان. وهكذا يستطيع المرء أن يأكل وينام ويعمل ويمشي، بينما تبقى الصلاة في داخله مستيقظة وصارخة فتملأه سلاماً وفرحاً سماويين. عندما تصلي زماناً طويلاً ـ حسب ايثارك ـ يمكنك أن تتوقف عند كلمة أو اثنتين من الصلاة، لترتاح روحك وتنسكب الحلاوة في قلبك. بعدها، دع ذهنك وشفتيك يرددان ببطء: «يا يسوع، يا يسوع، يا يسوعي، أو يا ربي»، بشوق يستدر الدموع والندامة والمحبة. «الذهن الذي لا يتشتت نحو الخارج، ولا ينجر نحو العالم الخارجي عبر الأحاسيس، يمكنه ان يعود الى ذاته، ومن خلالها يرتقي الى الله» (القديس باسيليوس الكبير). وبعودة الذهن الى ذاته، ودخوله الى القلب، نجد ملكوت الله، لأن ملكوت الله في داخلنا (متى ٣ : ٢) (لوقا ١٧ : ٢١). عندما يعود الانسان الى نفسه، يشعر بشوق لا يوصف، وحنين الى الجمال الاول يحتجب في اسم وشخص يسوع المسيح.

ان كل كلمة من كلمات هذه الصلاة تحوي في اعماقها ملء معرفة الله وحكمته. باسم يسوع يمكننا أن نحيا فيه وفي كل الانجيل، وكل نعمة الهية، وفي محبة الآب وشركة الروح القدس، وفي كل سر الكون. ومن أعماق الصرخة طلباً للرحمة الالهية، نحس بكل عظمة التجسد الالهي، ووجع السقوط، وغبطة التبنّي.

والجهاد من أجل الاحتفاظ بالصلاة، داخل ذهننا، ليس هو بسبب الضعف الطبيعي في الذهن وحسب، أو بسبب نزوعه الى التمزق والانكسار، انما هو بسبب هجمات العدو الجامحة والخبيثة. لكن صبرنا

سينتصر. فذهننا في الأصل ينتمي الى الله، لذا يجب أن يتحوّل تدريجياً ليصبح «ذهن المسيح».

ان دعوة الذهن الى ذاته ـ ومنها الى القلب ـ هو ما يسميه القديس ديونيسيوس الاريوباغي: (حركة الذهن الدائرية غير المخدوعة). فكما ان محيط الدائرة يدور حول نفسه، فيتّحد، هكذا حال الذهن، فبالحركة الدائرية، يعود الى نفسه ويصبح واحداً (غير ممزّق). هناك في القلب، لا تدع ذهنك يقف بدون حركة. لا تدعه يتوقّف عن الحركة، اذ عليه ان يجد «الكلمة الروحية» التي بها نفكر ونشكّل الأعمال الروحية، فنحكم على الداخل مرة تلو الأخرى، ونطالع كتباً كاملة دون ان ينطق الفم. الذهن عندما يجد تلك «الكلمة الروحية»، عليه ان يتمسّك بها، وان يتوقف عن كل شيء ما عدا: «أيها الرب يسوع المسيح ارحمني». وكما ان الله هو خارج وفوق كل الأمور الحسية والعقلية، هكذا، على الذهن أيضاً ان يصير خارج وفوق كل حسي وكل عقلي، كي يتّحد بالله. فلتلازمْ ارادتك كلمات الصلاة، بمحبة، حتى تصبح هذه الثلاثة (الذهن، العقل، الارادة)، واحداً، وحتى يصبح هذا الواحد، تلك الثلاثة. بهذا يكون الانسان أيقونة الثالوث حسب قول القديس غريغوريوس بالاماس: «عندما تصبح وحدانية الذهن الثلاثة، وتبقى الوحدة، عندها يتّحد الذهن بالثالوث المثلث الأقانيم، فيتلاشى كل خداع ويسمو الذهن فوق الجسد والعالم والشيطان سيد هذا العالم (القديس غريغوريوس بالاماس ـ الفصل الثاني ـ في الصلاة). اما كمية الصلاة فتعتمد على الارادة حصراً. ويتعذر على المرء ممارسة صلاة القلب الكاملة بدون تكريس وقت طويل لها. هذا ما يقوله الآباء القديسون. كم اذاً ينبغي ان نصلّي؟ الجواب: بدون انقطاع، بدون توقّف. فما دام ابليس، عدو النفس، يحاربنا بدون انقطاع، عندها علينا ان نستخدم الاسم الالهي سلاحاً رهيباً كلي القدرة، بدون انقطاع.

وما دمنا معرّضين للسقوط في الخطيئة كل لحظة، فنحزن الرب، فعلينا ان نردد على الدوام هذا الاسم الفادي. دعونا نتضرّع وندعوه طالبين رحمته. القديس ذياذوخوس فوتيق يقول بأنه عندما يدعو الانسانُ

اسمَ الله، مراراً وتكراراً، وعلى قدر طاقته، فإنه لن يسقط في الخطايا بسهولة. وما دمنا نشتاق ان يكون المسيح بيننا، دائماً فلنصرخ اليه بلا انقطاع. وطالما نحن نرغب في ان يلتهب قلبنا بنار العشق الالهي غير المادية، فلنضرمها بالصلاة الدائمة. واذ نرغب في ان ينعتق ذهننا من الأفكار الخبيثة غير النافعة، فلنجعله ينشغل بما فوق، بالصلاة الدائمة. ليكن هذا «تبدّلاً صالحاً» للذهن، متعة له، شهوته وغذاءه، أعني اسم يسوع الأطيب من العسل. من شأن المداومة على الصلاة يا أخي، أن تجلب لك الثمار المشتهاة. فلا تقلق اذ كنت تشعر بجفاف داخلي رغم كل جهودك. واظب فقط، فالثمار هي عطايا الروح القدس. والروح القدس عندما يريد، وحيثما يريد، يهبّ، فتسمع صوته، لكنك لا تعرف من أين يجيء ولا الى اين يذهب (يوحنا ٣: ٨). الله يطالبنا بالصلاة، انه يطالبنا ان نصلّي بمقدار ما نتنفّس.

لسنوات كثيرة ينبغي ان نسعى وراء الصلاة، بنظام ونسك وتغصّب. فذهننا يتشتت، ولا ينجمع في مركزه، في هدفه، في سعادته التي هي المسيح، بسهولة. لكن سيأتي زمان مبارك، حيث انه بدل ان نسعى وراء الصلاة، تسعى هي الينا، تركض، تفيض، وتتدفق من القلب، مبهجة الذهن بالاسم الذي يفوق كل اسم (أفسس ١: ٢١). تأتي ساعة مباركة، حيث ـ بينما نكون نعمل ونتحدث ونأكل وننام ـ يتكلم قلبنا بالمسيح، الختن المعبود: «أنا نائم لكن قلبي مستيقظ» كما يقول الكتاب.

علاوة على جهادنا من أجل الصلاة على الدوام، في كل مكان وظرف، علينا أن نخصص وقتاً مجدّداً كل يوم، في ركن هادىء، نمارس فيه الصلاة القلبية على نحو منتظم. هذا يسمى «قانون»، يساعدنا الأب الروحي على ترتيبه وتطبيقه. ومن شأن الترداد الدائم، أن يجعلنا نتمرس على اليقظة. ومقدار الصلاة، يمكنه ان يقودنا، حتماً، الى نوعية الصلاة. فإذا اردت ان تتعلم امراً ـ أيّاً كان ـ واظب عليه قدر المستطاع. الرياضي الطامح الى الفوز، يجاهد ويدرّب نفسه على تحسين عطائه بالمثابرة مرة بعد أخرى حتى

يضمن الفوز. العالِم في مختبره يعاود التجربة مراراً وتكراراً، حتى ولو أخفق حيناً، وذلك بغية بلوغ النجاح في ميدانه، سواء كان الطب أو الفن أو سواهما. . . . الرسّام يقوم برسم اللوحة ذاتها مرات ومرات قبل ان يتمكن من تقديم لوحة جميلة.

وهكذا، فالأمر نفسه يحصل للمسيحي الذي يريد أن يكون رياضياً وفناناً ورساماً في الصلاة. فهو يردد كلمات الصلاة «أيها الرب يسوع المسيح ارحمني». في البداية يتعب ويحتمل حالة ذهنه غير المروَّض، الاّ انه بشوقه وثباته، سينقلب انسانه العتيق ويفوز باسم يسوع، خاتماً اياه بختم الصلاة.

امبروسيوس احد النساك الكبار اللامعين في الكنيسة الروسية، جاهد طويلاً للفوز بصلاة الرب يسوع. يوحنا كاتب السلم الى الله يقول: «اجلد باسم يسوع كل اعدائك، لأنه ليس في السماء ولا على الأرض سلاح أمضى من هذا الاسم القدوس»، فاجعل هذه الصلاة قانوناً لحياتك.

لقد قيل الكثير للتشديد على الصلاة القلبية. وبين ما ذُكر، قصة، فاسمعوها:

كان لإنسان مسيحي ببغاء في بيته، كان يدربه على الكلام. كان هذا المسيحي يواظب على الصلاة القلبية فيرددها باستمرار، مما جعل الببغاء نفسه يتعلمها ويردّدها. وفي احدى أيام الصيف، لمح الببغاء نافذة الغرفة مفتوحة، فقفز عبرها الى الشارع. رآه صقر شرس كان يحلّق في الفضاء، فانقض عليه. صُعق الببغاء لما رأى الصقر مقبلاً اليه. لكنه بدل ان ينعب، تلفّظ بالصلاة، فابتعد الصقر للحال، كما لو كان هناك من يطارده. ماذا نلاحظ هنا؟ قال الناسك امبروسيوس: «ان صلاة يسوع حتى ولو قيلت باللاوعي، فهي ذات نتائج مذهلة، ومن شأنها أن تجعل المستحيل ممكناً». جاهد اذن يا اخي بكل قوتك، كي تصلّي بلا انقطاع. كلما ازداد اصرارك، ألِفتَ الصلاة بسرعة أكبر. لسانك وشفتاك ستألفانها. واذا حدث وتوقفت عن ترددها، فإنك ستشعر ان امراً ينقصك

دون ان تدري ما هو. ذهنك سيطلب المسيح بشوق. ومن شأن الصلاة الدائمة ان تخلق فيك عادة قوية، كهذه، سرعان ما تصبح فيك طبيعة ثانية، وهنا بيت القصيد.

لا تسمى مسيحياً اذا لم تكن تصلي كثيراً. جميع القديسين يصلّون بحرارة وعلى الدوام. فكن أنت أيضاً مصلياً بلا انقطاع. وهذه الصلاة ستمنحك نوراً لذهنك، فتجد نفسك على الدوام في حضرة هذا الاسم الذي هو شمس العدل ونور العالم. «هنيئاً لمن التصق بصلاة الرب يسوع ورافقها متّحداً بها اتحاد الهواء بالأجساد، واتحاد اللهب بالشمعة.

«الشمس عندما تبلغ كبد السماء، يطلع النهار. واسم يسوع المكرّم والقدوس، عندما يسطع على الدوام في اذهاننا، فإنه يولّد شموساً لا عدد لها ولا تحصى» (البار ايسيخيوس الكاهن ـ الفيلوكاليا ـ المجلد الأول ـ ص ١٧٢ ـ ١٠٨).

الفصل الثامن

الصلاة القلبية والتطويبات

قال تلميذ احد النسّاك الشيوخ الكبار بأن من شأن الصلاة الدائمة ان تجعل الانسان مغبوطاً بمقتضى التطويبة التي امتدحها المسيح في الانجيل الشريف (متى ٥ : ١ ـ ١٢). والحق انها هكذا. فالصلاة القلبية تجعل الانسان فقيراً في الروح، نوّاحاً، وديعاً، عطشاناً وجائعاً الى القداسة، رحوماً، نقي القلب، محباً للسلام، مغبوطاً في الاضطهاد والشدة من اجل اسم الرب. المسيحي الذي يصلّي على الدوام، يتذوّق هذه السعادة الفردوسية، فهي غبطة يسوع المسيح. من يصلي بالذهن والقلب، يحيا حياة يسوع المسيح، والمسيح يحيا فيه: «من يثبت فيّ وانا فيه، يأتي بثمر كثير» (يوحنا ١٥ : ٥ ـ ٨).

بين الفينة والأخرى، يتذكر ذلك الناسك لغة أبيه الحلوة والعذبة، فيتحسّر ويندم. كان أبوه يتحلى بموهبة البراءة والطفولة، شيخاً جليلاً غطى الشيب رأسه. كان ينتصب امامك، يكلمك وهو يحدجك نظرات تنم عن طلعة ملائكية بريئة. كان محيّاه يطفح بالبساطة والتواضع.

ذات صيف، أمضيت في منسكه بضعة أيام قاصداً الاستجمام الروحي والاختلاء الى نفسي. كنت أرغب في ان اتنشق عبير البرية الزكي، فأسمع شيئاً عن الصلاة العقلية واليقظة.

كان المنسك هادئاً، في سكون، بعيداً عن الضوضاء، رهبانياً كشأن كل المراكز الهدوئية في جبل آثوس. كان يربض بين جبلين صخريين شاهقين. ولئن كان المشهد موحشاً، مقفراً، الّا ان علامات الفرح

السماوي كانت بادية عليه. واذا نظرنا الى أسفل، تمتد امامنا، على امتداد النظر، صخور ضخمة مترامية تصل حتى مشارف البحر كأنها سد منيع في وجه ذلك العباب. كان اختيار المنسك مثالياً. فمن اليمين واليسار، تطل منه على منفذين جبليين. من الأمام، تنكشف لك رؤية البحر الهادئ. أما المنفذ الوحيد المكشوف للعيان، فهو السماء. والحق انه موقع رائع لعشاق الصلاة القلبية وطلابها. فمن أعماق تلك البقعة الجميلة، ينطلق حنين روحي الى السماء. جلسنا في ركن صغير من المنسك. أما أنا فرجوته ان يطلعني على أحاسيس أبيه في التطويبات، بينما جلس ذاك يصلي. وقبل ان يشرع في الكلام، نهض كالأبطال، وبمحبة بريئة لا غش فيها، يتميز بها النساك الهدوئيون، امتدت يده الى الدالية لتقطف لي أجمل عنقود فيها، ما لبث ان دفعه إلي على طبق خشبي، مع كوب من الماء الصخري العذب، وقال: لا بد أن تأكل هذا العنقود، انه يافع وطيب المذاق. فقلت له مرتين على التوالي: «ليكن مباركاً ـ ليكن مباركاً». فكانت الأولى بمثابة تعبير عن قبول البركة (من الناسك)، والثانية، لأنها ثمرة البرية. أرأيت يا ولدي كيف ان كل شيء يأتي في أوانه. فهذه الدالية بحاجة الى وقت كي تثمر وتجود علينا بثمر. هكذا هي الحال مع الصلاة. فالمرء يحتاج الى وقت طويل، وصبر ونسك وتغصّب، حتى تنضج الصلاة فتجود بثمارها على النفس. وثمارها هي التطويبات. قلت: أرجوك يا أبتي، ليتنا نبدأ بالكلام عن الثمرة الأولى، أعني تطويبة «الفقراء بالروح» التي تكلم عنها الرب: (متى ٥ : ٣). أجابني الناسك قائلاً: ليكن مباركاً. سأقول لك ما قاله لي أبي. أنا لم أفلح بداعي كسلي وتهاوني في بلوغ ذرى مشاهداته الروحية، فلم أجنِ أية فضيلة. الّا اني ما أزال حتى الساعة اذكر كلامه الصالح الذي يشدّني. فتعليمه هو لي أنا البائس، ويحركني ويوقظني في جهادي كل يوم.

١ ـ تطويبة التواضع:

بعد استدرار الرحمة الالهية، شرع يقول: نشعر اننا خطأة، ساقطون، جرحى، خروف ضال، فنتواضع وننوح كلما تذكرنا خطايانا، ونفكر كم نمرمر المحسن الينا يسوع المسيح. نحن شبيهون بأعمى الانجيل الذي كان يصرخ: «يا يسوع يا ابن داوود ارحمني» (متى ١٥ : ٢٢) ـ (متى ٢٠ : ٣٠) ـ (مرقس ١٠ : ٤٨). نتضرع اليه أن يفتح عيون نفوسنا لنرى النور، لنرى الله. الأعمى عاد يبصر لما أخذ الدواء. ترى ما هو الدواء؟ انه قوة المسيح في حفنة التراب، البصاق، والنزول الى بركة سلوام. وانا أؤمن ان المسيح يقدر ان يفتح عيني بدواء مماثل. ليتني أصير منسحقاً ووضيعاً كالتراب. ليتني أقبل إساءة الناس والشياطين. هذا هو معنى «تفل» أو «بصق». بعد ذلك استحم في البركة المقدسة، بركة الدموع. هذا ما كان يردده أبي المغبوط. التوبة تستحيل بدون تواضع. بدونها، كيف تتأكد من خلاصك؟ «أثمروا ثمراً يليق بالتوبة» (متى ٣: ٨). ان توبة دائمة، ثابتة، حارة، واعية، هي شرط خلاصنا الأول. هذا يؤكده لنا العشار والزانية واللص (الشكور)، والابن الشاطر، والرسول بطرس. جميع هؤلاء عبروا اتون التوبة. جميعهم اختبروا ألم البعد والانفصال عن الله، فبلغوا فرح الخلاص وغبطة العودة. وربما ليس هناك أجمل وأقوى ـ كصلاة توبة ـ من «أيها الرب يسوع المسيح ارحمني». فاستدرار رحمة الله، يفوق في العمق والزخم والقوة، المزمور الخمسيني نفسه، (مزمور التوبة). ان تلاوة مزمور الخمسين، تملأ النفس غبطة وحيوية، وهذا يدوم الى حين. أما الصلاة الدائمة، فتملأ النفس، احساساً بالفقر والخطيئة، فتصبح الحياة هذه، حالة داخلية توطد الاحساس العميق المتين بالانسحاق، وتجعل مخافة الله فيك، جالبة التوبة الدائمة في جو من الحزن المبهج والنوح المغبوط. ثم أخذ بيديه الفيلوكاليا، وفضّها بورع ووقار، وتلا عليّ مقطعاً للقديس ايسيخيوس: «لنتمسك بالصلاة والتواضع واليقظة، فهذه أسلحة فتاكة ضد ابليس... واذا ما سلكنا على هذا النحو كل يوم، نتمكّن من التعييد قلبياً وميستيكياً كل يوم وكل ساعة...»

(القديس ايسيخيوس ـ الفيلوكاليا ـ الجزء الأول ـ ص ١٦٩ ـ ١٧٧). هذه هي تطويبة «الفقراء بالروح» وتطويبة «التواضع». فقلت له: افهم من كلامك ان التواضع يجلب النوح المغبوط؟ قال: نعم. ولكن قد يحدث العكس أيضاً. فمن شأن النوح المغبوط ان يقود الى التواضع. وهذه كلها تدور في دائرة روحية مباركة.

٢ ـ تطويبة النوح المسبّب للفرح:

أتسمح يا أخي أن نقتبس من أعمال البار غريغوريوس بالاماس؟ فقلت: ليكن مباركاً يا أبتي الناسك. ان فرحتي ستزداد ما دمت ستكلمني الآن عن عطية الصلاة المعروفة بالنوح. اذاً، فرح في النوح، هكذا ينبغي ان يكون شعورك. فهو يُسمى النوح الجالب الفرح. اسمعني وانا أقرأ. ثم مد يده الى نظارته العتيقة، وجعلها على عينيه، وشرع يقرأ من الفيلوكاليا بلهفةٍ وشغف كما لو كان يتناول عسلاً: «... أم اللاقنية هي عدم الاهتمام الدنيوي. وأم عدم الاهتمام الدنيوي، هي اليقظة والصلاة. وأم اليقظة والصلاة، هي النوح والدموع، وهذه من شأنها أن تولّد الفرح والغبطة في النفس، فتجعل أقوال الله طيبة المذاق في الحلق، وكالعسل في الفم...» حسب قول المرنم: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب». انه سرور الأبرار وبهجة المستقيمي القلوب وفرحة المتواضعين وتعزية النائحين.... ان الدموع الاولى الآتية من الصلاة القلبية، هي دموع نوح، وانسحاق، وألم. انها كالدموع التي فاضت من عيني الرسول بطرس بعد ان انكر الرب في دار رئيس الكهنة. هذه الدموع هي دموع توبة. ان قساوة قلوبنا تحتاج إلى مثل هذه الدموع كي تلين، فري الأرض العطشى يحتاج الى ماء كثير. هكذا النفس أيضاً، فإنها تحتاج الى أمطار دموع مع تنهدات كي ترتوي بنعمة الله وتزهر (البار ايليا الكاهن ـ الفيلوكاليا ـ الجزء الأول ـ ص ١٠٦ ـ ٣١٠).

ان دموع الصلاة القلبية شبيهة بعاطفة الأم، وبنار السيف الذي جاز في قلب مريم الكلية القداسة، أمام الصليب. دموع الصلاة أخذت

شيئاً من قلب الأبرص الشكور، وشيئاً من الشوق الملتهب الحار الذي عند التلميذ الحبيب، وشيئاً من فرحة التلاميذ الذين رأوا الرب الناهض من بين الأموات. ويتحوّل النوح الى فرح لا يوصف. فدموع الصلاة القلبية، دموع عشارية انسحاقية، شكورة، محبة، وقيامية. ومن شأنها ان تجعل صلاتنا مماثلة لها. فهي تارة صلاة عشارية، وأخرى عشقية، وطوراً آخر قيامية. وليس في العالم لغة تقدر أن تصف كيف ولماذا يبكي الانسان من الفرح أثناء الصلاة، ولدى ذكر اسم يسوع. فمن الصعب وصف تلك الساعة السماوية. وعندما تستحم النفس بدموع التعزية والراحة الناجمة عن الصلاة، عندئذٍ تتقدم من الرب بدالة وتقول له: «ليأت حبيبي الى جنته ويأكل ثمره النفيس» (نشيد الأنشاد ٥: ١). أشكرك يا أبتي؛ لقد فهمت الآن وأحسست بجلاء معنى قول الرب: «طوبى لكم أيها الباكون فإنكم ستضحكون» (لوقا ٦: ٢٢) - (متى ٥: ٤).

٣ - تطويبة الوداعة:

فنظرت الى وجه الناسك المشرق (الأبيض) بينما لاذ هو بالصمت. كانت عيناه تنمّان عن توبة وانسحاق. كانت هيئته تفيض صلاحاً، وتنمّ عن وداعة وغبطة. ولما كان يعيش بمقتضى قوله، فقد استطاع ان يتكلم عن كل هذا من خبرة شخصية. ثم قال لي: الوداعة الناجمة عن الصلاة الدائمة، من شأنها أن تروي كل وجودنا. والرحمة التي يهبها الله للودعاء، هي رحمة ميراث الأرض الجديدة، أعني ملكوت السموات. الودعاء هم الأكثر حظوة، والوارثين لله حسب قول الرب: «طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض». (متى ٥: ٥). ثم سألته: وكيف يكون التعبير عن تطويبة الوداعة يا ابتي؟ قال: انها خبرة يتعذر وصفها، لكنك تستطيع تلمّس معالمها، وحسنها وسماحيتها. كيف تشعر النفس التي تصلي وتتقبّل نعمة الوداعة؟ (غلاطية ٥: ٢٢ - ٢٣). تتكاثف الوداعة وسلام المسيح في الداخل، ومن هناك تستمد الوداعة قوتها، فتجعل حلاوتها عذوبة بالدعاء الدائم للاسم الالهي. «الوداعة هي مادة التواضع» كما يقول البار بطرس

الدمشقي في الفيلوكاليا. ثم قال لي: فضّ الكتاب واقرأ ها هنا حيث يتكلم عن الوصية الثانية، فأخذت الفيلوكاليا بين يدي وقرأت منه بصوت مسموع: «في وقت الضيق يضطرب...». ثم أردف الناسك معقّباً: «الوديع»، «الّا انه يفرح اذ قد وجد فرصة للربح والحكمة، وأدرك ان التجربة التي حلّت به، لم تكن بدون سبب. فهو إما ان يكون قد أحزن الله، أو أنه أساء الى القريب، أو الى انسان ما، عن جهل أو عن معرفة. وها قد وجد الآن فرصة للمسامحة...».

بكلام آخر، الكاتب يريد أن يقول بأن الوديع لا يضطرب يا أخي. فهو يرى في تجربته سبباً لغفران خطاياه، إذ سبق ان اساء إما الى الله، أو إلى الاخوة. الوديع لا يضطرب، بل يفرح، ان هذا فرصة لربح روحي عظيم. أرأيت كيف ان الوداعة هي الطريق الأقصر لغفران الخطايا، وكيف انها تقود الى الفرح الحقيقي؟

٤ - تطويبة الجوع والعطش الى الله:

اسمح لي يا أبتي ان أنقل لك ما أشعر به، فأنا اعتقد ان تطويبة الجياع والعطاش الى البر (متى ٥: ٦)، ليست مجرد ثمرة للصلاة القلبية، انما هي جوهرها وقوامها. نعم يا اخي، انت على حق. فعندما تقول: «ايها الرب يسوع المسيح ارحمني»، تشعر بجوع وعطش روحيين. الصلاة القلبية عنيفة. انها جوع حلو، وعطش عذب. انها اشتياق الى المخلص الكلي الحلاوة. الصلاة هذه جوع الى من هو غذاء العالم، وخبز الحياة. انها عطش الى من هو الماء الحي، نبع الحياة والخلود. عاش ويعيش أيضاً اناس اغتذوا بالصلاة الدائمة، دون أن يشعروا بالجوع والعطش الماديين «فليس بالخبز وحده يحيا الانسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله» (متى ٤: ٤). هكذا كان حال أبي. وعندما تبلغ النفسُ هذه القامة، فإنها تردد كلمات المسيح: «أتيت لأصنع لا مشيئتي، بل مشيئة الآب الذي أرسلني» (يوحنا ٥: ٣٠ - ٣١). ومشيئة الآب بالنسبة للمصلي، هي الصلاة الدائمة. بمقدار ما يصلّي المرء، يعرف الله، ويعرف أسرار الله. وبمقدار ما

يعرف أسرار الله، يجوع ويعطش. وكلما عرفه أكثر، ازداد عطشه، وتحرّقه اليه، وجوعه. الله لا يُدرك، والانسان سيبقى في عطش دائم. هذا ما يقوله البار الدمشقي (فيلوكاليا ٣ ـ ص ٢٣، ١٠، ١٥). وهنا سألته: لكنه لا يقول بأن العطاش الى الله سيشبعون. فكيف يبقى عطشاناً، من يصلي على الدوام؟ فقال: من شأن الجوع والعطش الى المسيح ـ الذي هو القداسة الوحيدة والبر الحقيقي ـ ان يُشبعا الانسان ولا يشبعانه بآن. ان هذا شبع لا شبع فيه. فبمقدار ما تأكل المسيح وتشرب دمه، يزداد طلبك له. وبمقدار تذوّقه، يكون شوقك اليه. الصلاة القلبية الدائمة، تمنحنا الجوع والعطش ـ المغبوطين ـ الى رحمة الرب، والى قداسته ونعمته. مغبوط، ومغبوط ثلاث مرات، المسيحي الجائع والعطشان الى المسيح. انه يصلي على الدوام ـ في الليل والنهار ـ لهذا الاسم.

٥ ـ تطويبة الرحمة:

كما ان الله شفوق ورحوم وطويل الاناة وكثير المراحم، هكذا تكون النفس التي تصلّي على الدوام. فإنها تقتني تطويبة الرحمة، ليس فقط تجاه الفقراء والمتألمين، بل أيضاً تجاه كل الناس الذين تعتبرهم اخوة. والنفس تكون رحومة تجاه الخليقة، العاقلة وغير العاقلة على السواء. وبحسب كلام الرب «طوبى للرحماء فإنهم سيرحمون»، (متى ٥: ٧)، فكلما كان قلبنا اكثر رحمة، فهو يتقبّل الرحمة الالهية ميستيكياً، ويردد على الدوام، بألم (توجع)، وشوق: «أيها الرب يسوع المسيح ارحمني». وبمقدار ما يكون القلب رحوماً، فإنه يُرحم. ومن شأن تطويبة الرحمة، ان تجعل قلبنا منفتحاً، كبيراً، حنوناً، وطويل الأناة. عندما يتكلم الرب عن الرحمة والرحماء، هل يقصد الرحمة المادية فقط؟ بالطبع لا. فأنت تستطيع ان ترحم قريبك بدون مال. «الرحمة» لفظة ذات معنى واسع. انها احتضان الهي في القلب، لكل انسان. ويرتبط هذا الاحتضان في كل أبعاده، بمحبة الله والقريب. الرب يقول: «اني أريد رحمة لا ذبيحة»، وذلك كي يُظهر لنا انه يطالبنا بالمحبة المترفقة ـ المملوءة حنواً، والتي لا تحسد، ولا تحتد،

ولا تفعل السوء...» ـ اكثر من رغبته في الأشكال الدينية الظاهرية، الخارجية، المادية، والعبادة البرّانية الشكلية (١ كور ١٣: ٦). لا يقيم الرحوم للخيرات المادية وزناً، عندما يرحم صورة الله (القريب). البعض يوزّعون أموالهم على المساكين. البعض الآخر يعتني بالمرضى والشيوخ. تذكّر ذلك القديس الذي أوى محتاجاً صادفه على قارعة الطريق، فخدمه بصبر ونكران ذات. يكفي ان تكون المحبة في نفوسنا، حتى نكون رحماء بالعمل والقول والحضور البسيط أيضاً. من شأن الصلاة القلبية، ان تغرس هذه الرحمة المقدسة في قلوبنا. بدونها، تنطفىء مصابيحنا (متى ٢٥: ١١ ـ ١٢). وفي النهاية نسمع الصوت القائل: «لا أعرفكم» (يو ١٠: ١٤ ـ ١٥).

٦ ـ تطويبة انقياء القلوب:

هل تعرف يا أخي ما هو أهم عمل للصلاة القلبية؟ لقد فاجأني (الناسك) بهذا السؤال، بعد فترة صمت. قلت له: وما هو يا أبتي؟ قال: انه نقاوة القلب. «طوبى لأنقياء القلوب فإنهم لله يعاينون» (متى ٥). في هذا ينبغي ان يكون كل اهتمامنا. في أيامنا، يا أبتي، نتكلم في كل مكان، عن تلوّث البيئة والجو والبحر. التلوث في كل مكان. فإذا كان التلوث الحسي محدوداً، فإنه في البيئة الروحية المعاصرة، كبير جداً (طولاً وعرضاً). سيد العالم (الشيطان)، وكل قوى الظلام، صار لها في أيامنا تأثير هائل على وسائل الاعلام، والطباعة والسينما وسواها. فكيف يستطيع المسيحي في مثل هذه البيئة الفاسدة والملوّثة، ان يبقى في القلب نقياً طاهراً؟

أنا لا أقول يا ولدي، ـ أجاب الناسك بهدوء ـ، ان البيئة لا تؤثر على المسيحي. الاّ ان من يتلوّث بسهولة، في البيئة الخارجية، فهو بالنسبة إلي، كمن لم يقتن النقاوة القلبية بعد. ان كل جهاد اليقظة والصلاة القلبية، هو، النقاوة القلبية. ومن شأن نقاوة القلب ان تطهّر حواسنا

الخارجية أيضاً. هذا ما يقوله الآباء القديسون. لا بل ان التلوّث يندحر عندما يحاول الانسلال الى عالمنا الداخلي. اليقظة والصلاة، تنقيّان الهواء الروحي الملوّث. لذا فأنا اعتقد انه لا يليق بك ان تحزن لأنك تحيا في بيئة ملوّثة، ـ فتقلق وتضطرب، وتتساءل عن عدم ايجاد السبيل الى تنقية قلبك بعد ـ . لقد طُبّقت طرق عدة وما تزال تطبق حتى الآن. واحدة فقط هي الأضمن والأسلم والأكثر ثمراً بالنسبة للتنقية: انها اليقظة الدائمة والصلاة، مع المناولة الالهية والاشتراك في حياة المسيح. القلب النقي، هو بنعمة المسيح نقي، حتى ولو أقام في بيئة فاسدة. انه كشعاع الشمس، أو كلؤلؤة مدفونة في الأوحال. تذكّر القديسين أصحاب القلوب الكلية النقاوة، وعديمي الهوى. تذكّر ذلك القديس الذي لما لمح المرأة الساقطة، شرع يبكي بسبب كسله، كونه لم يُرضِ الله بعد.

القلب يمد سائر أعضاء الجسم بالدم، بما في ذلك أصغر الأنسجة. هكذا هو الحال في الحياة الروحية. فعندما يكون القلب حراً من أية خطيئة، نقياً طاهراً عديم الهوى أو أي فكر شهواني آخر، فإن كل الأعضاء الحسية تكون بدورها نقية. والسبب، هو انها تتغذى بالدم الآتي من قلب نقي.

القلب النقي ـ كما يقول القديس سمعان اللاهوتي الجديد ـ لا يتنقى بفعل (حفظ) وصية أو اثنين أو عشرة، إلا بعد تضافر كل الوصايا معاً. القلب ـ في أي حال ـ لا يتنقى إلا بدخول الروح القدس اليه. فكما ان الحداد بحاجة الى نار ومعدات لإتمام عمله، هكذا المسيحي، يحتاج الى فضائل (معدات)، الاّ انه بدون النار الروحية التي تنقي من الأوساخ والادران، يبقى غير نقي في القلب. وهنا سألته: وما هي أعظم قذارة تلحق بالقلب يا أبتي؟ أجاب: انها الكبرياء. «دنس أمام الرب كل مترفّع القلب» (لوقا ١٦: ١٥). أليس كذلك؟ فمن الكبرياء تأتي كل النجاسات. لهذا فالقلب المتخشع المتواضع هو الأكثر طهراً ونقاوة. كنت أود ان تخبرني عن أمر آخر. ما الذي تنقيه الصلاة أولاً، أهو الذهن أم القلب؟ في الأول يتنقى الذهن من الأفكار الدنسة الشريرة. لكن ومع

الوقت تصير النقاوة في الاثنين معاً. ينبغي على الذهن والقلب ان يتّحدا ويسيرا جنباً الى جنب في درب صلاة الرب يسوع. بمقدار ما يتنقى القلب، يستنير الذهن. وبمقدار نقاوة الذهن، يكون لمعان القلب واشراقه. كما ان الأطعمة الفاسدة تزعج من يتناولها، هكذا هو الذهن الذي يقبل الأفكار الشريرة ويشعر بمرارتها، الاّ انه يقدر بسهولةٍ وبمعونة صلاة الرب يسوع ـ «من الأعماق صرخت اليك يا رب. . .» ـ ان يطردها (البار ايسيخيوس الكاهن ـ الفيلوكاليا ١ ـ ص ١٧١).

ان قوة الصلاة القلبية، هي قوة منقية. ولا يستطيع اي مسيحي ان يبلغ التنقية من الأهواء، بدون صلاة قلبية دائمة. فهي تبدد السحب والضباب الناجمة عن الأفكار الشريرة. عندما يتنقى الجو الداخلي، يستحيل ان يظل نور المسيح الالهي محجوباً، الا اذا كنا ممتلئين من المجد الفارغ والكبرياء. ويسوع لا يساعدنا في هذه الحال. فالرب يمقت هذه الأهواء، كونه مثال التواضع ونموذجه (البار ايسيخيوس الكاهن ـ الفيلوكاليا ١ ـ ص ١٦٨ ـ ١٧٥).

بنقاوة القلب، يأتي اللاهوى المبارك ـ كما يقول القديس سمعان اللاهوتي الجديد. عندها ترى أمور هذا العالم وكأنك لا تراها. فقلب المسيح وذهنه وارادته، قد امتصّت ذهنك وارادتك. وكي يصبح هذا واقعاً، لا بد من جهاد كثير ونسك وتغصّب، مع الجسد. ولا بد من صبر كثير في الصلاة، حتى يبتلع المسيح نفوسنا ونبتلعه نحن.

لكن ليس هناك يا أخي لحظة أكثر غبطة من تلك التي يجعلها الروح القدس في قلوبنا بقوة الصلاة القلبية الدائمة، حيث يفرح القلب ويبتهج، فكل قواه قد تنقّت وتطهّرت. واقتناء الروح القدس هو الغاية الأخيرة من الصلاة القلبية واليقظة معاً. مجيئه الى قلوبنا هو الحدث الأكثر رهبة ومهابة. القلب النقي هيكل للثالوث الأقدس حسب قول الرسول: «لا أحد يقول يسوع رب، الاّ بالروح القدس» (١ كور ١٢: ٣)، «من أحبني، أحبه أبي، وإليه نأتي ونجعل مقامنا» (يوحنا ١٤: ٢٣).

كم من القديسين، المعروفين والمجهولين - عندما انفتحت آفاق نفوسهم، وخيّم المعزي روح الحق على دواخلهم، فطهّر كل ادران نفوسهم - تمتّعوا على هذه الأرض، بنور ثابور غير المخلوق، نور الالوهة المثلثة الشموس.

٧ - تطويبة السلام:

عندما يصلي القلب، تتفتّح اذناه الداخليتان لسماع أنغام الكلمات الالهية: «لا تضطرب قلوبكم.. سلامي أعطيكم» (يوحنا ١٤: ١ - ٢٧). كيف نقدر يا أبتي ان نمتلك هذا السلام نحن الذين نعيش في عالم الاستهلاك والاتصالات الآلية، والضجيج والقلق، والقلاقل... حيث تهيمن الآلة على كل مرافق الحياة اليومية، فيتشوّش العقل وتتقهقر النفس والروح معاً، بانزعاج؟ اعتقد يا أخي ان الرب يعرف احوال عصرنا وعالمنا وظروف حياتنا. وهنا يمكن للصلاة القلبية الدائمة، ان تجترح معجزتها الكبرى. عندما تقود هذه الصلاة يومنا، - قدر المستطاع -، وترافقنا في شتى أوجه أعمالنا ونشاطاتنا ومشاغلنا، حتى ولو كان الجميع حولنا يتزاحمون، وكل شيء يختنق، والعالم نفسه في سباق مع العدم، فإن سلام المسيح واسمه سوف يشيعان السكينة والهدوء على الذهن والقلب معاً. لكن دون ذلك، جهاد في الصلاة، كبير، مع سهر روحي على الذهن. بكل تأكيد، كيف سنفوز بأكليل السلام بدون عناء وتعب؟ ان سلام المسيح الداخلي، هو انتصار على الأفكار الشريرة، سواء كان المرء في البرية، ام في ضوضاء العالم. تقول التطويبة: «طوبى لصانعي السلام». فسألته: وما معنى هذا يا أبتي؟ قال: عندما يتجذر السلام الداخلي في الذهن والقلب، عندئذ يصبح الانسان «صانع سلام»، فيشيع السلام نحو الخارج أيضاً. الانسان بحضوره، بنمط حياته، بأقواله، سيجتاز ساعات صعبة، عصيبة وضاغطة مع حالات ومواجهات قاسية. سيصادف اناساً على قدر كبير من الاضطراب والقلق. سيواجه تجارب شيطانية أيضاً. وكل هذه سوف يواجهها بسلام المسيح الذي فيه شجاعة لا توصف وبطولة

عظيمة. الانسان الصانع السلام، هو ابن الله، وسلامه هو عطية قيامية من يسوع الناهض من بين الأموات. ثم أردف يقول: فُضّ الفيلوكاليا واقرأ من البار نيكيتا ستيثاتوس. ففضضتها حيث أشار الي الآب وقرأت: «سلام جزيل للذين يحبون ناموس الله وليس أمامهم ما يعثرهم» (مزمور ١١٨، ١٦٥). ما يرضي الله، قد لا يرضي الناس... أي ان هناك سلاماً جزيلاً للذين يحبون ناموس الله دون أن يرتبكوا في شيء. فالذين يرضون الناس، لا يرضون الله. والذين لا يبدو أنهم صالحون، هم صالحون جداً بعيون ذاك الذي يعرف طبيعة وأسباب الخلائق والحوادث معاً».

ان هذا السلام العميق - يا ولدي ويا أخي - اظنه يولد وينمو بفعل الصلاة القلبية الدائمة. لا شيء يغذي ويجدّد مثل هذا السلام، كإسم الرب. وبالاضافة الى هذه الحالة السماوية التي في السلام الذي فيه المسيح، هناك الصبر وتطويبة الاضطهاد وغبطة التعيير، التي تحصل من أجل اسم الرب (حباً بالرب). فكثيرون من المسيحيين، يخشون اليوم الاضطهاد والتعيير. اما القديسون فكانوا يطلبونه، لأن المسيح يغبطه. في المجتمع المدعو «مجتمع مسيحي»، من يريد ان يحمل اسم يسوع، يتوجب عليه القبول بنير الاضطهاد والتعيير، كبركة وعلامة لمسيحيته الأصيلة. الصلاة الدائمة هي التي تهبه القوة من اجل احتمال نير المسيح. المسيحي يُضطهد ويقبل الاهانات والتعييرات بأشكال عديدة، والصلاة القلبية ستبدد خوفه وجبنه. الصلاة الدائمة ستولّد فيه الاحتمال، والأهم، الغبطة، أمام هذه الشهادة النفسية. وفي النهاية، من هناك تنبع تطويبة الفرح. انه فرح الصلاة، فرح الله الموجود كله في رحمة الله داخل القلب المصلي.

٨ - تطويبة الفرح:

الفرح، هو فرح الروح القدس. الفرح هو ثمرة الروح القدس، ومنه يولد (غلاطية ٥: ٢٢). انه حالة لا توصف قائمة في النفس التي

تصلي على الدوام. انه فرح كامل، لأنه فرح المسيح الذي يصير فرحاً لتلاميذه أيضاً: «. . . كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم» (يو ١٥ : ١١).

لقد عرفنا أناساً كهؤلاء تسطع وجوههم بفرح المسيح، فشرعوا ينثرون حولهم بهجة النعمة الالهية. وأنا مقتنع ان نور هذه الاطلالة الأبدية الذي يفيض من هؤلاء الملائكة الأرضيين، انما هو مرآة قلوبهم التي تصلي بلا انقطاع. ان فرح الصلاة الدائمة هو فرح كل الخليقة، فرح التجسد الالهي. فرح الفداء. فرح الصعود الى السموات. وفرح المجيء الثاني المجيد. ان فرح الصلاة الدائمة، هو فرح كنيسة المسيح الظافرة والمجاهدة[1]. انه فرح الأنبياء والرسل والشهداء والنساك، بإيماننا. هذا الفرح يستقطب الجميع ويكافئهم ابدياً. الاسم الالهي الذي في هذه الصلاة، يحييهم: وأعني اسم يسوع. عندما يتجذر اسم يسوع في ذهننا وقلبنا. عندها فإن احداً لن ينزع فرح يسوع منكم. ان أفراح هذا العالم هي أشبه بالظل والسراب، بالنظر الى الربح الأبدي الذي يفرح المسيح. الانسان المعاصر يموّه القلق والضجر المميت الناجم عن حياة لا اله فيها (حياة بدون الله)، مستبدلاً بها مسرات رخيصة غطاء لانفلاشه (نزوعه الى الخارج)، من شأنها ان تفرغه كله، لا بل تسقيه خل الشهوة. ان فرح المسيح يهب الملء، وذلك لأنه فرح كامل. «. . . ما طلبتموه من الآب باسمي يعطيكموه. .» (يوحنا ١٦ : ٢٣ - ٢٤).

(١) ليس في العهد الجديد والآباء القديسين تفريق بين كنيسة السماء وكنيسة الأرض، كنيسة ظافرة وكنيسة مجاهدة، هذا تحديد دخيل. قال الأب كرونستادت: «سيدتنا والدة الاله والملائكة وكل رهط القديسين هم كلّي القرب مني عندما استدعيهم بقلب نقي، قريبون قرب نفسي مني، يسمعونني، فنحن كلنا أعضاء جسد المسيح. فالأعضاء يتعاونون ويتعاضدون. وعندما نتّحد مع الرب بالصلاة، نصبح واياه روحاً واحداً، والروح الفاعل فيّ، يفعل أيضاً فيهم. «حياتي في المسيح» يوحنا كرونستادت، صفحة ١٩٦. (المعرّب).

كان حديثي مع الأب الناسك لا ينتسى. وما دوّنته ليس سوى القليل مما قاله لي. وقد حفظت هذه في ذهني. مر الوقت حتى بلغ منتصف الليل. كانت السماء الصيفية مرصّعة بالكواكب. ساد على المكان صمت مطلق، وهذا رمز الى السلام النفسي الخالي من الاضطراب، عند المتوحدين. كان البحر هادئاً حالماً تلاعب أمواجه أهداب الشاطىء النائم. جلسنا بدون حراك ونحن نصلي داخلياً زماناً طويلاً مسلمين ذواتنا الى سر الصمت. هناك خارجاً، في تلك الفسحة النسكية، جلسنا على مقاعد خشبية صغيرة. كانت نفسي عامرة بالنشوة. وكنت أتشوق الى مقطع يكلمني عن الصلاة القلبية ببساطة، يكون هدية لا للرهبان وحسب، بل لكل المسيحيين في كل أنحاء العالم. علّ العالم يتمكن من ان يحيا المسيح كما يحياه أولئك الملائكة الأرضيون، الرهبان، عبر الصلاة القلبية الدائمة. تركت أنفاس الصلاة تلطّفني وتنزل الى اعماقي أنا وذاك الأب الجليل. أما ذاك فكان قد أغمض في تلك الساعة عينيه، وانحنى الى الأمام وراح يتمتم بإيقاع. كان يصلّي كي يعلمني كيف أصلّي. ثم ان دمعتين تدحرجتا ببطء على وجهه المشرق الساطع. وبعد قليل، تنهّد وقال: لكن هناك يا أخي تطويبة أخرى لم أذكرها بعد. أنها الأجمل والأعذب وإليها يكون شوقنا أكثر، ومن شأن الصلاة القلبية ان تقودنا اليها، بعطش لا يوصف، ولذة الهية. فرفعت عيني ونظرت اليه وقلت: وما هي هذه التطويبة يا أبتي؟ قال: «من يأكل جسدي ويشرب دمي، يثبت فيّ وأنا فيه» (يو ٦ : ٥٧). أفهمت؟ أجل لقد فهمت. انها الجوع والعطش الى المائدة المقدسة. ثم تابع يقول: هيّا اذاً، توجّه الى قلاتيك وصلّ. وبعد ساعة سأدعوك الى الكنيسة لنقيم صلاة السحر[1] مع الصلاة القلبية، وبعدها نقيم القداس الالهي ونتناول اللؤلؤة السماوية التي لا تثمّن، أعني يسوع المسيح.

لم أشعر في حياتي يوماً شعوري في تلك الاستراحة. لم أتذوق القداس الالهي يوماً، بعمق وبساطة، تذوقي له في ذلك الحين. لم أحس

(١) Orthros

وأتذوق بمثل تلك القوة، المطالبسي والتطويبة الأبدية الالهية. . هناك، في تلك الكنيسة الصغيرة المتواضعة بجوار المنسك، وقد تحوّلت الى فردوس حقيقي.

الفصل التاسع

ثمار الصلاة القلبية

لماذا نصلّي؟ هل نصلّي الى الله بدافع المحبة والشوق والعشق الالهي، ام اننا نصلّي اليه طمعاً بمكافأة يرسلها الينا الرب مع التعزية وعذوبة النعمة؟ الصلاة حاجة أساسية لوجودنا. انها ضرورية ضرورة التنفس. الصلاة هي الجو الطبيعي لكل نفس، وبدايتها ونهايتها هي محبة الله. الاّ اننا لا نستطيع بشكل من الأشكال الاّ ان نتوقع الثمار التي تجعل من يتذوقها يصل بأكثر سهولة، الى أصله الالهي، وأعني اتحاده بالمسيح، الذي هو بداية واصل كل خير.

يقول القديس مكاريوس المصري: «عندما نغرس كرماً، فإننا نتوقع ان نقطف منه العنب. لكن عندما لا يعطينا الكرم ثمراً، تذهب أتعابنا وجهودنا سدى. هكذا يحدث في الصلاة. فنحن ان لم نتطلّع الى الثمار الروحية: المحبة، السلام، الفرح، الراحة، تكون اتعابنا بدون جدوى. . .».

ثمار الصلاة القلبية كثيرة ومتنوعة، وهذا مرتبط بالعمل والجهد وتنقية كل نفس. كما ويرتبط أيضاً بكم وكيف ستتجلّى نعمة الله لكل نفس. النعمة الالهية تجتذب الصلاة. عندما تلج النعمة الى داخلنا، فإنها تفعل بطرق مختلفة: «الروح يهب حيث يشاء وتسمع صوته ولكن لا تعرف من أين يأتي أو إلى أين يذهب» (يوحنا ٣: ٨). ان زمان ومكان اقتناء النعمة الالهية هما في الواقع فردوسيان. النفس تعيش ساعات مأساوية عندما تُحرم من النعمة، تربوياً، أو بسبب طيش النفس وتقاعسها.

حضور نعمة الروح القدس يجلب حالات الهية، مواهب مقدسة، سيرة سماوية، وأمور أخرى يتعذر النطق بها. حضور النعمة الالهية، يمنح الانسان ثمار الروح القدس التي هي: «المحبة، الفرح، السلام، الوداعة..» (غلاطية ٥: ٢٢ ـ ٢٦). وأيضاً: الفرح، الدمعة من القلب، والانسحاق، غبطة عميقة في القلب، حرارة وحماسة يتعذر وصفها، فهم الكتب المقدسة، معرفة لغة الخلائق، رأفة وليونة في القلب تجاه كل المخلوقات، وكل الطبيعة العاقلة وغير العاقلة. كذلك: الشجاعة، التنقية في الأهواء، التحرر من العدم، معرفة الهية حلوة بها نجد الله، معرفة أسرار الله المحتجبة، المعرفة والثيوريا، المعرفة واللاهوت، معرفة المحبة الالهية، واستنارة الذهن، التواضع واللاهوى والتمييز، اشتراكاً في القوى غير المخلوقة، نور الاستنارة الالهية، انخطاف الذهن بالمحبة والمعرفة، محبة مغبوطة، وعشقاً الهياً. وأيضاً: باقة أخرى من العطايا الالهية والحالات الروحية التي لا توصف ولا تحصى، وأسراراً لا تنتسى.

ان نعمة الله هي أشبه بأم تضم رضيعها وتقبّله، عندما تظهر له. والانسان الذي يتقبلها كطفل صغير، يبتهج، يفرح، ويُسر ممتلئاً عذوبة لا توصف. لكن عندما تنسحب النعمة، عندها يبكي الطفل (الانسان) وينوح لأنه يجهل حكمة الله الذي بالمعرفة والتجارب والاختبارات ـ يطلب خلاصنا. وعندما يرى الرب اننا نطلب خلاصنا بشوق أكثر حرارة، يعود ويرسل لنا نعمته من جديد. وهذه النعمة هي أم روحية تهبنا نبع الفرح الذي لا يحد، والمحبة، فنشتاق نحن أولادها، أن نكون بقربها[1] على الدوام.

(١) سمعان اللاهوتي الحديث عالج هذا الموضوع مطوّلا وتكلم عن اشراق النعمة واحتجابها وما يصحب المرء بين الحالتين. وفي هذا المقال يحذّر الكاتب ضمنا من المظاهر الروحية الكذابة. فالشيطان يحتال علينا في هيئة ملاك نور (٢ كور ١١: ١٤). يسوع حذّرنا من الأنبياء الكذبة ومن الذين يتنبأون باسمه ويطردون الشياطين باسمه ويصنعون باسمه بينما هم فاعلو إثم وذئاب خاطفة (متى ٧: ١٥ ـ ٢٣) =

بهذه الصورة يصف لنا الآباء القديسون ـ الذين اختبروا عبير الروح القدس المتعدد الوجوه، ونسيمه ـ حضور نعمته.

ان روح الضلال لا صلة لها بهذه الحالات. فروح الضلال (الخداع) تقدم علامات معاكسة تجعل النفس شرسة، وتجلب الاضطراب والكبرياء والخشونة. لذا فإنني أعود وأكرر ان المرشد الروحي[1] ضروري في فن الصلاة القلبية المقدس والفريد.

= قال يسوع: «من ثمارهم تعرفونهم» (متى ٧: ١٦). فثمار الشيطان في هذا المجال ليست حياة تلألؤ بالروح القدس وثماره، بل كما يقول الكاتب هنا: «يهشّم النفس ويجعلها شرسة متكبرة وقاسية». من هنا فان الأب الروحي هو قائد الحياة الروحية الذي يكشف لتلميذه ألاعيب الشيطان فيجعله يرفض الظهورات الشيطانية وخداع الشيطان، فيميّز حالات النور الالهي من النور الشيطاني الذي ذكر كثيرون من الآباء انه يلمع كثيراً ليخدع الذين ما زالوا في منتصف الطريق الى الله. الطريق السليم هو ما وصفه لنا السلمي يوحنا في نهاية الدرجة ٧ (صفحة ٧٩): لن نلام الا على عدم البكاء الدائم على خطايانا.

البكاء على الخطايا أهم من الظهورات. قد تكون الظهورات في حياة الأبرار وقد لا تكون. أما البكاء على خطاياهم فهو سمتهم. في «بستان الرهبان» (ص ٤١٤ ـ ٤٢٤) و«أقوال الشيوخ» نصوص ممتازة عن الموضوع. فصول الصلاة (صفحة ٤٣: ١١٥ ـ ١١٦) (المعرّب).

(١) راجع الأبوة الروحية

الفصل العاشر

الصلاة القلبية والعشق الالهي

بمقدار ما يبتلع المسيح روحك، وأنت تبتلع المسيح، تزداد الحرارة الداخلية فيك، وتضطرم المحبة، ويمتد الشوق ويبتهج القلب. المسيح خالقك. من العدم أوجدك. انه مخلصك وصديقك وأبوك وأخوك. انه عريسك. بالصلاة القلبية واستدعاء الاسم القدوس، تشعر انك من الآن تلج الى خدره: «في بهاء قديسيك. . .» بمقدار ما يدعوه قلبك، ويحيا معه ميستيكياً (داخل القلب)، ـ تجرحه سهام العشق الالهي الحلوة.

النفس التي تعشق الرب، تفتش بتعب وجهاد عن عريسها، حتى تجده (نشيد الانشاد) «اني أطلب من احبته نفسي. أطلبه ولا أجده. دعوته ولم يستجب لي. وقفت في الصلاة لأدعوه. ان نفسي ستشبع من مشاهدة مجده» (البار ايليا الكاهن ـ الفيلوكاليا ـ الجزء الثاني ـ ص ٣٠٨).

ان جهاد الصلاة القلبية، هو جهاد العشق الالهي. ومن شأنه ان لا يدع القلب هادئاً، ولا الذهن أو الفم، بل يحثها على الصراخ الى هذا الاسم المشوق اليه. المحبة تنسكب من كل النفس، ومن كل القوة، ومن كل الذهن. عندئذ يحب الانسانُ المحبةَ التي هي الله، وكل الخلائق التي أبدعها الله، فيرى الناس جميعاً كأيقونات الله، وكل المخلوقات والكائنات، كتعبير عن مجده الالهي، فيدمّع باكياً من أجل الخليقة كلها.

ان ميل القلب العشقي نحو المسيح يطالب الانسان في كل لحظة، بالصراخ اليه واستدعائه، كالعروس (النفس) التي تطلب لقاء عريسها (المسيح) (راجع نشيد الأنشاد). انه كيوحنا الحبيب البتول، والتلميذ

المحبوب لدى الرب والذي أُعطي ان يتكئ على صدره، وان ينتصب عند صليبه. انه كالرسول بولس الذي آثر الموت كي يعيش على الدوام بقرب محبوبه يسوع (فيليبي ١: ٢٠ ـ ٢١).

النفس تتعطش الى الرب، وكلّما طلبته، أحبته. وكلما أحبّته، تعطّشت اليه. وكلما تعطّشت اليه، طلبته. وهذه المحبة تزداد. النفس تضطرم وتلتهب ويصير لها أجنحة. العشق الالهي يأسر الذهن. القلب يتألم على نحو عذب يتعذر وصفه. ألمه مستبد، عشقي، ويقوم على جهاد. ومن شأن الصلاة المرفوعة الى الاسم الالهي، ان تغمر كل الوجود فيصبح أكثر دينامية وحيوية. انها تستدر الحضرة الالهية التي هي المحبة. عندها ترى عين النفس كل ما بداخلها، وخارجها، السماويات، والأرضيات، الحسيات، وغير المنظورات. الاحساس الروحي يتحرّك متجهاً الى هدف واحد هو محبة الله. ذاك هو العاشق، والنفس هي المعشوقة التي تصرخ: «. . . على فراشي طلبتُ من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته» (نشيد الأنشاد ٣: ١). أين أنت يا رب؟ النفس تلح في طلبه على نحو ما جاء في (نشيد الأنشاد). انها تلح في طلب ختنها المحبوب. وتتخلى عن كل مخلوق لتصل الى الكائن والقائم في الغمام، في توجّه اليه. «. . . تنعتق من كل دنيوي، وتصير خارج العالم. تعرّي الذهن من كافة الخيالات. . النفس تستسلم الى الله بشوق ملتهب بعد أن وحّدت قواها، وصار ذهنها خالياً من الخيالات والصور والمعرفة والاحاسيس. . .» لكن أين هو الله؟ انه في نطاق الشوق حيث لا وجود الّا للمحبة الملتهبة. في هذا تكمن المحبة الملتهبة وغير المحترقة. هناك معاينة الله. في النطاق الملتهب، هناك يصير اللقاء الميستيكي الذي يفوق الادراك، بين الله المحب والنفس المحبوبة[1]. ويستحيل على القلب ـ المصلي على الدوام ـ، ان يمقت الله. القلب المحب لله، يصلّي على الدوام.

(١) لاهوت الصلاة القلبية ـ الراهب ثيوكليتوس ذيونيسياتو ـ سالونيك ١٩٧٥ صفحة ٣١.

ملاحظة: النص مكثّف جدا. انه يلخّص اللاهوت الصوفي منذ أباء القرن الرابع =

ان سواد المسيحيين، ما عادوا يحبون الله. هذه هي خطيئتنا العظمى. انها مصيبة، ومصيبة مسكونية. لقد وزّعنا محبتنا على الآلاف من الأمور، وحوّلناها الى مجموعة محبّات (جمع محبّة)، مجموعة من ألوان العشق. لقد وجهناها الى اهتمامات دنيوية، الى العلوم والفلسفات والفنون. لم نترك لله ركناً صغيراً في قلوبنا. قلوبنا امتلأت من كل شيء، لكنها فرغت من العشق الالهي. لم نعد نصلي، وذلك لأننا لم نعد نحب. صار قلبنا صلباً قاسياً كالجليد، بدون الله. ترى كيف سيُقرع بعد اليوم؟ (رؤ ٣: ٢٠). نحن نهدد طاقات الذهن والأفكار، طاقات القلب والرغائب، في أوهام متعددة: في البرّانيات والخارجيات. والكنيسة تصرخ: «لنرفع قلوبنا الى فوق». الرسول يصرخ: «اهتموا بالسماويات، لا بالفانيات» (متى ٦: ٣٣) - (يو ٦: ٢٧). نحن نحب العالم وأموره». . . العالم يزول، وتزول شهوته معه» (١ يو ٢: ١٥ - ١٧). كيف سنحب الله ونحن في هذا التمزق؟ كيف سنحبه والذهن والقلب مشتتان؟ بالصلاة القلبية واليقظة، يمكننا أن نجمع شمل ما تشتت وتمزق -، أعني الذهن والقلب، - فندنو من الله. عندما يتحرك ذكر الله في الذهن، للحال يتحرك القلب نحو محبة الله، فتنهمر الدموع بغزارة. ومن عادة المحبة ان تسكب الدموع كما يقول القديس اسحق السرياني.

هكذا نستطيع ان نتذوّق كلمات داوود العشقية: «كما يشتاق الأيل الى ينابيع المياه، هكذا تشتاق نفسي اليك يا الله» (مزمور ٤١: ١ - ٣). ترى متى سأعاين وجه الهي»؟

= مروراً بمكسيموس المعترف والسلمي واللاهوتي سمعان الحديث وروحانية الجبل المقدس (اثوس). وهو يشمل حالات الاختطاف وحالات الاستنارة، فيغيب الروحاني عن واقع الأرض ويخلو ذهنه من شتات أفكار الدنيا وصور المرئيات ليقف مجرداً منها عارياً وحاصراً كل شعوره وعشقه بالله (١ كور ٢: ٩ - ١٦) (٢ كور ١٢: ٦). (المعرّب).

الفصل الحادي عشر

اليقظة والصلاة بحسب أيسيخيوس الكاهن

عاش البار أيسيخيوس الكاهن في أورشليم أيام الأمبراطور ثيوذوسيوس الصغير. كان استاذاً كبيراً في الحياة الروحية، وراعياً للمسيحيين. رقد بالرب سنة ٤٣٣.

وضع ايسيخيوس هذا أعمالاً كثيرة. وقد اخترنا منها واحداً بعث به الى مسيحي يدعى عبدالله، يتكلم فيه عن اليقظة والفضيلة. يقع هذا العمل في (٢٠٣) فقرات موجود بكامله في الفيلوكوليا، الجزء الأول، صفحة ١٤١ - ١٧٤. انه مقالة نافعة - كما يقول فوتيوس الناقد - للذين لا ينحرفون في جهادهم ولا يتقهقرون، بل يجدّون بنشاط سعياً لتحقيق أعمال النسك.

والمقطع الذي اخترنا، - هو غيض من فيض وغنى هذا البار - نقدمه منقولاً الى المسيحيين ببساطة. اخترناه من أعمال هذا البار نظراً الى كونه الأكثر تعبيراً عن شخصه، ويأتي ليعبّر عن معنى وقوة اليقظة والصلاة القلبية: «اليقظة منهج روحي، يحرر الانسان - بالله - من الأفكار الشريرة، ومن الأقوال والأفعال الخبيثة». تتصف اليقظة بالاستعداد الدائم والكثيف. ومن شأنها كلما نمت، ان تمنح المعرفة الأكيدة عن الله غير المدرك، وحل الأسرار الالهية الغامضة، قدر المستطاع.

اليقظة تساعدك كي تحيا كل الوصايا الالهية في العهدين القديم والجديد. اليقظة تمنحك خيرات الدهر الآتي.

وهذه في الأساس نقاوة القلب، التي لعظمتها وجمالها، أو بأكثر دقة،

بسبب كسلنا، تندر اليوم بين صفوف الرهبان. الرب يغبطها بقوله: «طوبى لأنقياء القلوب فإنهم لله يعاينون» (متى ٥: ٨).

ثمن اليقظة هذه، مرتفع جداً. فاليقظة التي تبقى في الانسان على الدوام، تصبح دليلاً الى حياة مستقيمة تليق بالله. هذا هو «المرقاة الى الثيوريا». اليقظة تعلمنا كيف نحرك أقسام النفس الثلاثة، بالفضيلة، ونحفظ حواسنا بأمان. في كل يوم، تنمي اليقظة الفضائل العامة الأربع في من يحيا بيقظة.

موسى المشرّع العظيم، أو بالأحرى، الروح القدس، هو الذي يعلن سمو فضيلة كهذه نقية، عميقة ولا عيب فيها، فيعلمنا كيف نبدأ بتحقيقها بقوله: «احترز من أن يكون مع قلبك كلام لئيم قائلاً...» (تثنية ١٥: ٩).

«الكلام اللئيم» هو تركيز ذاتي على كل أمر شرير يمقته الله. وهذا ما يدعوه الآباء «هجوم»، يدخل الى القلب بفعل الشيطان. وما أن تظهر هذه الهجمات أمام الذهن، للحال تبدأ الأفكار في محاورتها بلذة. اليقظة هي السبيل الى كل فضيلة ووصية الهية. وتسمى (الهدوء القلبي). عندما تكتمل دون أن ترتبط بأي تخيّل، تدعى: (سجن النوس) أو (الرقابة عليه). نور الشمس لا يراه من هو اعمى منذ مولده. هكذا فإن من لا يسلك سبيل اليقظة، فإنه لن يعاين بوضوح لآلئ النعمة التي من فوق، ولن يتحرر من الأعمال والأقوال والصور الشريرة التي يمقتها الله، والتي لا تستطيع الشياطين نفسها أن تمرّرها خلسة الى النفس. اليقظة هي صمود القلب وثباته أمام الفكر logismos. الذهن اليقظ يرى اللصوص الذين يدخلون، ويسمع ما يقوله ويعمله اولئك القتلة. الذهن اليقظ يرى ويسمع الأمور الخداعة التي ترسمها الشياطين لتخدع الذهن بها، بفعل التخيل[1]. وفي الواقع، فإننا اذا عملنا كل ذلك - تتكشف لنا خبرة الحرب الداخلية بطريقة مذهلة. وهذه اليقظة هي وليدة خوف مزدوج: هجران الله، والتجارب التي تزيدنا تعقلاً وحكمة. اليقظة الدائمة هي في

(١) راجع الخيال والتخيّل.

(ذهن) الانسان الذي يحاول ان يطوّق مصدر الأفكار والأعمال الشريرة. من أجل هذه اليقظة، يحصل هجران الله والتجارب غير المتوقعة، وذلك بقصد تصحيح حياتنا، لا سيما الذين ذاقوا الراحة الناجمة عن هذا الخير، لكنهم يتقاعسون.

المثابرة تلد العادة. والعادة، من شأنها ان تلد درجة ما من اليقظة. وهذه من شأنها ان تلد - بهدوءٍ - معاينة الحرب (الداخلية). أما الاصرار على صلاة الرب يسوع، فيساعد على اقتبال هذه المعاينة (ثيوريا). حضور يسوع يخلق حالة النفس وهدوء الذهن الحلو، الخالي من اي تخيّل. عندما ينتصب الذهن ليدعو المسيح على (الاعداء)، ويسرع اليه، فإنه يشبه حيوانا حاصرته كلاب كثيرة، الا انه بمعونة عربة - أفلت - ليرى من بعيد، بعينيه الداخلتين جنود العدو العقلي الكثيرة العدد. وبسبب لقائه الدائم بالمسيح، صانع السلام، الذي يضربها (الاعداء)، يبقى الذهن معافى من هجماتها.

أنظمة البحار تتألف من كميات هائلة من الماء. اما نظام اليقظة والاتزان الداخلي والهدوء النفسي العميق، وسعة المعاينات، والتواضع الصاحي، والاستقامة، والمحبة، فهي باليقظة الدقيقة المقرونة بصلاة يسوع المسيح بدون أفكار، وعلى نحو دائم، وبكثافة، ودون كلل أو تعب. «ليس من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات لكن الذي يعمل ارادة أبي...» (متى ٧: ٢١). ارادة الآب هي ان الذين يحبون الرب، يمقتون الشرور. لذا فلنمقت الشرور باستخدام صلاة الرب يسوع، ونعمل مشيئة الله. الرب بتجسده، يقدم لنا مثال ونموذج كل فضيلة، ومثال الجنس البشري، فيمنحنا النهوض من السقطة القديمة، دامغاً حياته الأرضية بسيرته الكلية الفضيلة. وبالاضافة الى الأمور النافعة الأخرى التي أظهرها الينا، هناك التالي: عندما خرج بعد المعمودية الى البرية، بدأ جهاده الروحي بالصوم، فتقدم ابليس ليجربّه ظاناً انه انسان عادي. اما هو، فبطريقة انتصاره، علّمنا نحن المبتدئين كيف نحارب أرواح الشر بالتواضع، والصوم والصلاة. لقد علّمنا ما لم يكن هو نفسه بحاجة اليه، كونه هو الله، واله كل الآلهة. وبحسب رأي، كثيرة هي

طرق اليقظة التي تمكننا من تنقية ذهننا تدريجياً من الأفكار الشهوانية. ولن أتقاعس عن اعلانها لك بكلمة بسيطة. فأنا لم أجد حسناً ـ أثناء الحرب الروحية، ومن خلال هذه الكلمة ـ ان اخفي المنفعة النفسية بهذه الكلمات الصعبة الفهم لا سيما بالنسبة للبسطاء. «أما انت يا ولدي تيموثاوس فانتبه لما تقرأ» (١ تيمو ٤ : ١٣).

ان واحدة من طرق اليقظة هي ان تفحص التخيّل بتدقيق، اعني ان تدرك السبب، لا سيما أن الشيطان لا يستطيع بدون التخيّل[١] أن يخلق الأفكار فيعلن للذهن أموراً كاذبة بهدف تضليله.

الطريقة الثانية، هي ان يكون لك قلب متجذر على الدوام في السكينة والهدوء[٢]، بعيداً عن الضوضاء الذي يحدثه الفكر. وان تصلي أيضاً.

الطريقة الثالثة، هي التضرع الى ربنا يسوع المسيح على الدوام، بتواضع كي يرسل لك معونته. أما طريقة اليقظة الأخرى، فهي ان يكون في نفسك «ذكر الموت»[٣] على الدوام. فكل هذه الأعمال يا عزيزي، من شأنها أن تحول دون دخول المعاني والصور الشريرة الى داخلك. وينبغي ان ترنو الى السماء وتحتقر الدنيا كلا شيء، الأمر البالغ الأهمية، الذي يضاف الى سابقاته. وعندما يهبني الله قولاً آخر ـ في موضوع آخر ـ انقله اليك. واذا ما انشغلنا بالمعاينات الروحية دون ان نتوقف عند هذه ـ لتكون عملنا الأساسي ـ ونقطع لأمد قصير فقط، أسباب الأهواء، فإننا بسهولة سنسقط في الأهواء الجسدية. من هناك لن نقطف أي ثمر ما عدا ظلمة ذهننا والضياع في الأمور الدنيوية. وعلى المجاهد في الحرب الروحية ان يمتلك هذه الأمور الأربعة في كل لحظة: التواضع واليقظة، المقاومة والصلاة. اما التواضع فلأن مواجهته هي ضد الشياطين المتعجرفة التي تقاوم التواضع وتناهضه. وعليه ان يلتقط بيد قلبه معونة المسيح، فالرب يمقت المتكبرين (امثال ٣ : ٣٤). واليقظة، فلكي يمنع عن قلبه أياً من الأفكار، حتى ولو

(١) راجع الخيال والتخيّل
(٢) راجع الهدوء
(٣) راجع ذكر الموت

بدت له صالحة. والمقاومة، فلكي يصد الشرير على الفور، بحزم وغضب، عندما يدرك انه يهاجمه. ثم يجيب ويقول: انقذني من أعدائي يا الهي. من مقاوميّ احمني...» (مزمور ٥٩ : ١). فالصلاة هي كي يصرخ الى المسيح بتنهدٍ بعد المقاومة. بعدها سيرى المجاهد ان العدو يضمحل ويتلاشى بقوة اسم يسوع المسجود له ـ كالتراب الذي تهب فيه الريح، أو كالدخان الذي ينتشر ويتبدد مع رؤيته الخداعة الكذابة.

من لا يملك صلاة نقية خالية من الأفكار الشريرة، لن يكون لديه سلاح في الحرب، أعني صلاة تفعل على الدوام داخل قدس أقداس النفس. باستدعاء اسم يسوع، يُجلد العدو ويحترق، كونه يحارب نفوسنا في الخفاء. وعندما تدركهم، للحال تسحق بالمقاومة رأس الأفعى. وفي نفس الوقت، اصرخ الى المسيح بقوة وتنهدٍ، فتنال خبرة العون الالهي غير المنظور، فترى بجلاءٍ، الاستقامة التي اكتسبها قلبك.

وكما ان من يمسك بيده مرآةً، وينتصب وسط حشد كبير من الناس وهو يحدق فيها، فيرى ما هو عليه وجهه، وما هي عليه وجوه الآخرين المتحلّقين حوله من خلال المرآة، هكذا هو حال من ينحني ليغوص في أعماق قلبه، فإنه سيرى فيه، حالته وما هو عليه، وأيضاً سيرى وجوه الوحوش العقلية القاتمة، أعني الشياطين. لكن الذهن لا يستطيع بقواه الذاتية ان يغلب خيالاً شيطانياً واحداً. عبثاً يسعى بمفرده من أجل ذلك. فالشياطين الكلية الشراسة، تتظاهر بأنها هُزمت، الاّ انها سرعان ما تقوى علينا في موضع آخر ـ بالمجد الفارغ. لكن باستدعاء اسم يسوع المسيح لا تعود تقوى على الصمود من أجل العمل على إفساد نفسك. فانتبه (لنفسك) الاّ تتكبّر كالشعب الاسرائيلي قديماً، لئلا تسلّم مثلهم الى الأعداء العقليين. الشعب ذاك تحرر بقوة الله من المصريين، الاّ انه ابتكر صنماً مسبوكاً يعينه (خروج ٣٢ : ٤). والصنم المسبوك هو ذهننا الضعيف، الذي كلما دعا يسوع المسيح ضد الأرواح الشريرة، يتمكن من طردها بسهولة، وبفن منظم، يغلب قوى العدو غير المنظورة. لكن عندما تكون ثقة الذهن بنفسه كاملة، فإنه يهوي كالطير (مزمور ٢٧ : ٧). من

غير الرب سينهض ويقف الى جانبي ضد الأفكار الشريرة التي لا تحصى؟ ان من جعل ثقته بنفسه، لا بالله «تكون قوته جائعة والبوار مهيأ بجانبه» (أيوب ١٨ : ١٢). واذا رمت ممارسة نظام الهدوء القلبي، فاتخذ العنكبوت قدوة لك، والاّ فلن تهدأ في داخلك كما يجب. فالعنكبوت يطارد الحشرات الصغيرة، واذا ما حذوت حذوه، وعملت مثله، فإنك بتعبٍ، ستهدأ داخل نفسك، ولن تكف البتة عن قتل أطفال البابليين[1] (اعني هجمات الأرواح الشريرة التي تكون قد نمت وتولّدت). بمثل هذا القتل يغبطك الروح القدس الناطق على لسان داوود «الذي ضرب مصر مع أبكارها. . .» (مزمور ١٣٦ : ٩).

وكما انه يتعذّر على المرء ان يرى البحر الأحمر من السماء، من بين النجوم، أو ان يسير على الأرض دون ان يستنشق الهواء، هكذا يتعذر علينا ان ننقي قلوبنا من الأفكار الشريرة، ونطرد الأعداء العقليين منها، بدون استدعاء اسم يسوع المسيح على الدوام. واذا كنت تقيم في قلبك، سالكاً درب الذهن الضيق والمفرح، بعقل متواضع مع ذكر الموت ولوم الذات واستدعاء يسوع المسيح بيقظة، روحية، فإنك بهذه الأسلحة (المذكورة) ستأتي الى الثيوريا المقدسة التي يعرفها القديسيون، فتستنير بالمسيح، في الأسرار العميقة «ففيه تكمن جميع كنوز الحكمة والمعرفة» (كولوسي ٢ : ٣) وفيه أيضاً «يحل ملء الألوهية بالجسد» (كولوسي ٢ : ٩). لأنك بنعمة يسوع ستشعر ان الروح القدس انسكب على نفسك، فهو ينير ذهن الانسان كي يرى «بأن ما من أحد اذا ألهمه روح الله يقول إن يسوع ملعون. ولا يقدر أحد ان يقول ان يسوع رب، الاّ بإلهام الروح القدس» (١ كور ١٢ : ٣). أي انه يؤكد ـ الرب المنشود ـ ميستيكياً.

علاوة على ذلك، ينبغي على محبّي التعلّم ان يفهموا ويدركوا ان الشياطين الخبيثة الحاسدة، كثيراً ما تختفي وتتوارى، لتكون في هدنة

(١) «طوبى لمن يمسك اطفالك ويضرب بهم الصخرة». يسوع هو الصخرة التي عليها نضرب الأرواح الشريرة والأهواء (المعرّب).

مؤقتة إبّان الحرب العقلية ضدنا. انها تحسدنا على المنفعة التي نجنيها من الحرب، وعلى المعرفة والارتقاء الى الله، وذلك للايقاع بالذهن فجأة عند تكاسله وتقاعسه. وهكذا تجعل البعض يهملون يقظة الذهن ولا يكترثون بها.

ان هدف الشياطين وعملها، فهو ان لا تدع قلوبنا تحيا في اليقظة. فهي تعرف الثروة الروحية التي نجنيها بها. اما نحن فبتذكّر الرب يسوع المسيح نتسلّح بالثيوريا الروحية. ان حرب الشياطين هي ضد الذهن (النوس). أما نحن فعلينا العمل بمقتضى ارادة الرب مع تواضع كثير.

علينا تحاشي الدالة تحاشينا لسم الأفعى، والابتعاد عن كثرة المخالطات، فهي «أفاعي وأولاد أفاعي». ومن شأنها ان تقودنا عاجلاً الى نسيان الحرب الداخلية، والى الابتعاد عن الفرح السامي الآتي من نقاوة القلب. النسيان اللعين يعاكس اليقظة، معاكسة الماء للنار عدوها. انه عدوها في كل لحظة وفي كل ساعة.

وفي الواقع اننا من جراء النسيان، نأتي الى التواني والكسل. بالتواني نأتي الى الاحتقار فالتراخي مع الشهوات غير العاقلة، فنبلغ قول الكتاب: «عاد الكلب الى قيئه» (٢ بطرس ٢ : ٢٢).

لنهرب اذاً من الدالة هربنا من سم الموت. ان النسيان الشرير وكل ما ينجم عنه، يَنسحق بحصن الذهن الدقيق، والاستدعاء الدائم لربنا يسوع المسيح، «لاننا بدونه لا نقدر ان نعمل شيئاً» (يو ١٥ : ٥).

من المؤكّد انك لا تستطيع خطب ودّ أفعى فتجعلها في حضنك. هكذا يستحيل ان تراوغ فتحب الجسد وتخدمه في غير الضروريات، بينما انت عاكف على ممارسة الفضيلة السماوية. من البديهي ان الأفعى ستلسع من يداعبها، والجسد سيفسد بالشهوة والملذات، من يلاطفه ويجاريه. أما أنت، فروّض (اضرب) كل ما يتسبب به الجسد ـ دون هوادة ـ كما لو كان عبداً هارباً سكيراً. دعه يختبر الرب كسوط. لا تدعه يطيش. لا تجعل هذا الوحل الفاسد، والعبد الليلي، يجهل سيده.

لا تجارِ جسدك الى آخر نسمة من حياتك، فمشيئة الجسد عداوة لله. الجسد لا يطيع ناموس الله، لا بل يشتهي ما هو ضد الروح. العائشون للجسد عاجزون عن ارضاء الله. اما نحن فلسنا في الجسد، بل في الروح (رومية ٨: ٦)، (غلاطية ٥: ١٧).

نحن لسنا أقوى من شمشوم، ولا أحكم من سليمان. لسنا أكثر معرفة من الاهي داوود، ولا نحب الرب اكثر من بطرس الهامة. لذا لا يجوز ان نتساهل مع ذواتنا. والكتاب يقول: «تكون قوته جائعة، والبوار مهيأ بجانبه. يأكل أعضاء جسده...» (أيوب ١٨: ١٢).

دعونا نتعلّم من المسيح التواضع، ومن داوود الانسحاق، ومن بطرس الدموع، في ما يحل بنا. دعونا لا نيأس، على غرار شمشوم ويهوذا وسليمان الذي كان حكيماً جداً.

الشيطان وكل اتباعه، هو في الواقع «كالأسد يجول ملتمساً من يبتلعه» (١ بط ٥: ٨). لا تتوقفنّ اليقظة لحظة، ولا صلاة القلب - التي هي خصم الأفكار الشريرة - المرفوعة الى يسوع المسيح الهنا. فليس لك معين كيسوع في كل حياتك. فهو وحده الرب والاله، ويعرف حيل الشيطان، وفنونه وألاعيبه.

ليكن اهتمام النفس كله منصبّاً على المسيح. روّضها على طلبه دون جبن أو خوف، فالنفس لا تحارب لوحدها، بل بمعيّة الملك يسوع المسيح المرهوب، خالق كل الكائنات (التي في الجسد والتي بدون جسد)، (المنظورة منها وغير المنظورة).

في الواقع، كما ان المطر بهطوله على الأرض أكثر، يرطّبها، هكذا بريّة قلبنا تبتهج وتفرح باسم يسوع القدوس عندما ندعوه ونصرخ اليه على الدوام بقوة وحزم. وكما انه يستحيل عبور نار وماء في اسطوانة واحدة، هكذا يستحيل دخول الخطيئة الى القلب قبل ان تقرع بابه بالخيال وهجمته الشريرة. هناك الهجوم أولاً، والتناغم، ثانياً، وأعني أفكارنا التي تختلط بأفكار الشياطين الشريرة. ثالثاً، هناك الرضوخ والتنازل. والذين يفكرون

بالشر، كيف يكونون بين هذين (اللونين) من الأفكار؟ رابعاً، تحصل ممارسة الخطيئة فعلياً. فإذا كان الذهن (النوس) الذي يتيّقظ، يبقى ساهراً وصاحياً كي يطرد الهجوم باستدعاء الرب يسوع، عندها لن يثمر كل ما ينتج عن الهجوم. الشيطان الشرير، العقل غير المادي، لا يستطيع ان يخدع النفوس الاّ بالخيال والأفكار (logismos)[1]. وداوود يقول عن الهجوم: «باكراً أبيد جميع أشرار الأرض لأقطع من مدينة الرب كل فاعلي الاثم» (مزمور ١٠١: ٨). موسى العظيم يقول عن التنازل: «لا تقطع معهم ولا مع الهتهم عهداً» (خروج ٢٣: ٣٢).

كم هي صالحة وحارة ومفيدة وحلوة وجميلة وساطعة وبهية فضيلة اليقظة التي تفوح منك أيها المسيح الهنا. نحن نسلك بتواضع كثير، عندما يكون الذهن البشري في يقظة. أجل، تمتد حتى البحر والثيوريا أغصانها: «مدّت الى البحر قضبانها، والى النهر فروعها. لماذا هدمت جدرانها فيقطفها كل عابري الطريق». (مزمور ٧٩: ١٢). اليقظة تروي الذهن الذي أحرقه أتون عدم التقوى بملوحة الأفكار والأرواح الشريرة، وبعقل الجسد المرعب الذي هو الموت. اليقظة تشبه سلّم يعقوب الذي الله في أعلاه بينما الملائكة تصعد وتنزل عليه (تك ٢٥: ١٢). اليقظة تبدّد كل شرير فينا. من شأن اليقظة ان تقطع دابر الثرثرة والنميمة والوقيعة والاغتياب وكل قائمة الشرور الحسية. اليقظة لا تحتمل كل هذه، حتى ولا لفترة قصيرة، فهي لا ترضى ان تفقد عذوبتها الخاصة وحلاوتها.

لنستخدم اليقظة بنشاط يا اخوتي. لنحلّق بمشاهداتها (ثيوريا) بذهن نقي بالمسيح يسوع. لنتأمل خطايانا وحياتنا الأولى. بتذكّرها، ننسحق ونتواضع ممتلكين معونة المسيح يسوع على الدوام، في الحرب غير المنظورة. وإذا حُرمنا معونة يسوع، بداعي الكبرياء، أو المجد الفارغ، أو حب الذات، فإننا نُحرم نقاوة القلب التي بها نعرف الله بحسب وعد الرب: «طوبى لأنقياء القلوب فإنهم لله يعاينون» (متى ٥: ٨). معرفة الله ورؤيته هي السبب الثاني. أما الأول، فهو النقاوة.

(١) راجع باب الأفكار في القسم الأول من الكتاب.

الذهن الذي لا يتقاعس في العمل الداخلي، ولا في الصالحات الأخرى التي يجدها نتيجة عمله وتحصّنه الداخلي المستمر، من شأنه ان يجمّد الشرور الخارجية والحواس الخمسة. فهو ينتبه الى فضيلته ويقظته على نحو كامل، ويريد أن يستمتع بمعانيه السامية (representations)، فهو لا يحتمل استلاب الحواس الخمسة له (alienation) عند هجوم الأفكار الدنيوية والباطلة (على كيانه). لكن عندما يدرك مكرها وخداعها، فإنه يوجّه حواسه ـ بكل قوة ـ الى أعماق كيانه.

لقد جنينا في الحقيقة خيراً عظيماً من الخبرة. ومن يريد ان ينقي قلبه، عليه ان يستدعي الرب يسوع ضد الأعداء العقليين. انظر كيف ان ما ذكرته ـ وهو نابع من الخبرة ـ يتفق مع الشواهد الكتابية: (عاموس ٤: ١٢). الرسول يقول أيضاً: (صلوا بلا انقطاع) (١ سا ٥: ١٧). الرب يقول: «بدوني لا تقدرون ان تعملوا شيئاً» (يوحنا ١٥: ٥). وأيضاً: من يثبت فيّ وأنا فيه...» (يوحنا ١٥: ٦). الصلاة القلبية خير عظيم، ويمكنها ان تدرك كل الخيرات، فهي قادرة ان تنقي القلب الذي منه وفيه يرى المؤمنون الله.

وكما ان الملح المادي يجعل الخبز شهياً، والطعام المطبوخ طيّب المذاق، ويحفظ اللحوم من الفساد، هكذا ـ بنفس الطريقة ـ يحدث لحصن ذهننا، وللعمل العجيب الذي يجلب العذوبة الداخلية، اذ من شأنه أن يطيّب الانسان الداخلي والخارجي، على نحو الهي، فيطرد نتانة الأفكار الشريرة، ويحفظنا ثابتين في الدرب الروحي الصحيح. بالهجوم تأتي أفكار كثيرة. من الأفكار تأتي الممارسة الفعلية الشريرة[1]. فمن يسحق بيسوع،

(١) عندما يصلي المبتدئون، لا يتجرد ذهنهم من الصور والتصورات والأفكار والتخيلات. ولكن المران الطويل يجرّدهم من التصورات، فلا تمثل في ذهنهم صور الأشياء. الراهب في ديره، غائب عن الأهل وسواهم. الشيطان يذكّره بهم عن طريق الذاكرة، فتلوح صورهم له. في نهاية المطاف، الروحاني يصل الى غياب الصور والأشكال. سمعان اللاهوتي الحديث أخذ ذلك عن مكسيموس المعترف وايفاغريوس البنطي وسواهما. الا انه قال في النور الالهي الذي يتلألأ في =

الهجوم الأول، يتحاشى اللواحق، مغتنياً بالمعرفة الالهية الحلوة التي بها يجد الحاضر في كل مكان (الله). وعندما يقوّي في داخله مرآة الذهن، يستنير على الدوام، ويصير كالزجاج النقي أمام الشمس الحسية. عندما يصل الذهن الى نهاية الرغبات، يستريح من كل مشاهدة (ثيوريا) أخرى في داخله.

ان كل فكر ـ (logismos)، ينسل الى القلب بخيال ـ مرتبط بأمور حسية. والذهن بانعتاقه الكلي عن كل الأفكار، يصبح بدون شكل أو هيئة، فيستنير بنور الألوهة المغبوط. وهذه النورانية تعتلن في الذهن، بكل تأكيد، عندما يتجرّد من كل الصور الأخرى والمعاني (representations). كلما انتبهت الى ذهنك بتدقيق أكبر، كانت صلاتك الى يسوع مقرونة بشوق. وكلما توانيت وتهاملت، فإنك ستبتعد عن يسوع. وكما ان الرب منذ البداية ينير افق ذهنك، هكذا بنفس الطريقة، فإن ذهنك يظلم بالكلية عندما تكف عن اليقظة والانتباه واستدعاء اسم يسوع الحلو. ان هذا هام، كما اسلفنا، والأمور لا تكون بخلاف ذلك. هذا تتعلمه من الخبرة عندما تنتبه الى نفسك. الفضيلة لا تلقّن ولا تُعلّم ـ، لا سيما عمل اليقظة الحاملة النور مع الصلاة ـ، انما تُعطى بالخبرة (لمن يريد). ان استدعاء يسوع على الدوام، بشوق مفعم فرحاً وحلاوة، هو سبب يملأ القلب فرحاً وهدوء، وهذا يكون نتيجة ليقظة ذهننا. أما تنقية القلب فتعود الى يسوع المسيح ابن الله، الله، فهو خالق وعلة كل الصالحات، وهو يقول: «أنا الله صانع السلام» (أشعيا ٤٥: ٧). النفس التي يحسن اليها يسوع ويحليها، تشعر نحوه بالبهجة والمحبة والتمجيد، فتقدم الشكر

= قلبه: نور بلا شكل، بلا صورة، وان كان له شكل. طبعاً هو يقصد ان النور حقيقي ومحسوس روحياً، ولكن لا صورة له ولا شكل لأنه نور روحي لا مادي.

أما في حالات الاستنارة، فيتجرّد الذهن من كل صورة، فلا تبقى سوى صورة النور الالهي الساطع في كل كيانه روحاً وجسداً. وهذا نفسه روحي لا مادي كما رأينا في فكر سمعان اللاهوتي: فالله يُضحي وحده ملء الانسان. (راجع كتاب فصول الصلاة ـ منشورات النور).

والابتهالات بفرح، شاكرة الرب، ومتجهة اليه بالدعاء، لأنه يمنحها السلام، فتدركه واقفاً في الداخل، في الوسط، يبدد خيالات الأرواح الشريرة. بهذه الطريقة تتعاون اليقظة وصلاة الرب يسوع، كما أسلفنا. اليقظة تدعم الصلاة الدائمة، والصلاة (بدورها) تدعم اليقظة والانتباه. ان ذكر الموت على الدوام، هو المربي الخاص للجسد والنفس معاً. وعلينا ان نضع نصب أعيننا الموت، وسرير الاحتضار الذي سنستلقي عليه ويستحيل يا اخوتي ان ينام ذاك الذي يريد ان يبقى معافى غير مجروح. أمامه واحد من اثنين: إما ان يسقط وينتهي متعرياً من الفضائل، وإما ان ينتصب متسلحاً بذهنه على الدوام، فالعدو ينتصب مستعداً للحرب هو وكل جنده. ان حالة الهية تحل في ذهننا بالذكر الدائم[1] واستدعاء ربنا يسوع المسيح، عندما لا نهمل التضرع الداخلي الدائم مع اليقظة القوية وفعلها. في الحقيقة ان هذا امر نقوم به على نسق واحد عندما نتمسك باستدعاء ربنا، فنصرخ بحرارة من كل النفس، وذلك كي نتقبّل اسمه القدوس. الاستمرار في الفضيلة كما في الرذيلة، هو ام العادة، والعادة (بدورها) تسود، كي تصبح طبيعة. عندما يبلغ الذهن هذه القامة، فإنه ينهض ليبحث عن الأعداء كما يبحث كلب الصيد عن الأرنب، بين الأشجار الكثيفة. وكلما تكاثرت فينا الأفكار الشريرة، فلنواجهها باستدعاء ربنا يسوع المسيح، فتتلاشى للحال كالدخان في الهواء. وعندما يبقى الذهن وحيداً فلنتابع الصلاة مع اليقظة، الأمر الذي نقوم به كلما تكاثرت فينا الأفكار لسبب من الأسباب. وكما يتعذر على المرء ان يحارب وهو عارٍ، أو ان يسبح في البحر بثيابه، أو أن يعيش بدون ان يتنفّس، هكذا يستحيل بدون التواضع، والابتهال الدائم الى المسيح، ان يتعلّم الحرب الخفية العقلية، وأن يطرد ابليس ويصدّه بفنٍ قتالي. ان نسيان الله يسحق حصن

(١) ذكر الموت دعامة روحية كبيرة تسند المرء في مسيرته الروحية. بدون الموت يظن المرء ـ وهو مخدوع ـ ان الحياة لا تنتهي. الموت الحقيقي هو الابتعاد عن الله. الموت ليس في ذاته نهاية الحياة، بل ان قبوله يؤدي الى الانفتاح عليها. (راجع باب ذكر الموت).

الذهن، تماماً كما تطفىء الماءُ النارَ. الاّ أن صلاة يسوع على الدوام، تبدّد النسيان من القلب بفعل يقظة قوية دائمة. الصلاة تحتاج الى يقظة كحاجة المصباح الى شمعة مشتعلة. علينا ان نتعب في سبيل حماية الأمور السامية التي تحفظنا من كل رذيلة عقلية أو حسية، وتحفظ حصن الذهن باستدعاء يسوع المسيح. علينا ـ اذا ما أردنا النظر على الدوام الى أعماق قلوبنا ـ ان نهدأ داخل ذهننا بإزاء أفكار اليمين. وعندما نتعب، فالرب سيرسل التعزية التي هي بقربنا.

من الواجب ان نردّد اسم الرب يسوع المسيح على الدوام داخل القلب كترداد اللمع في الهواء قبيل هطول المطر. وهذا يعرفه حقيقةً من عندهم خبرة الذهن، وخبرة الحرب الداخلية. هكذا نقود حربنا بانتظام. في بادىء الأمر نحتاج الى يقظة. بعدها نحتاج ان نعرف الفكر المعادي الذي يهاجمنا، والذي نطالب ان نطرده بحزم وغضب من أعماق قلوبنا. لنصلِّ ضده ضاغطين على القلب باستدعاء يسوع المسيح بغية تحطيم الصورة الشيطانية كي لا يصاحب الذهنَ خيالٌ يخدعه كما ينخدع الطفل أمام ممثل يقدم عروضاً خيالية (سحرية). لنتعب كداوود صارخين الى ان يُسمع صوتنا (مزمور ٦٨: ٤).

عندما نتذكّر مثل قاضي الظلم ـ الذي حدّثنا عنه الرب كي نصلي على الدوام دون يأس ـ سنجني الربح والانتقام (ضد الأعداء). وكما يستحيل ان يظلم وجه من يحدّق الى الشمس، هكذا يستحيل ان يظلم من يلج بالصلاة الى رحاب قلبه. وكما يستحيل على المرء ان يحيا في هذا العالم دون أن يأكل ويشرب، هكذا يستحيل ـ بدون يقظة في ذهننا ونقاوة في قلبنا ـ ان تبلغ النفس درجة روحية مرضية لله، أو ان تتحرر من الخطايا العقلية حتى ولو ارغم المرء نفسه ـ بالخوف من العقوبة ـ كي لا يخطىء. والعجيب المذهل هنا، ـ من جهة منفعة الذهن ـ ، يأتي من السكينة[1] أي ان كل الخطايا، تضربنا بادىء ذي بدء، بالأفكار (logismos). فإذا

(١) hesychia (راجع باب الهدوء).

قبلها الذهن، تصبح حسية وضخمة. اليقظة تقطع دابر جميع الخطايا من الانسان الداخلي، ولا تسمح للأفكار بالدخول كي تتحول الى افعال شريرة. ان هذا يتم بمعونة ربنا يسوع المسيح ونعمته.

العهد القديم هو صورة النسك الخارجي[1]، الحسي، والجسدي. أما الانجيل الشريف (العهد الجديد)، فهو صورة اليقظة، أعني نقاوة القلب. العهد القديم لم يصنع الكمال، ولم يعلّم الانسان الداخلي التقوى الالهية. والرسول يقول: «فموسى بعدما تلا على مسامع الشعب جميع الوصايا كما هي في الشريعة، اخذ دم العجول والتيوس، ومعه ماء وصوف قرمزي وزوفى.. وما من مغفرة بغير إراقة دم» (عب ٩: ١٩ - ٢١). العهد القديم كان يمنع الخطايا الضخمة فقط، اما قطع الأفكار والذكريات الشريرة من القلب، فقد أُنيطت بالانجيل، الذي هو أعظم - من جهة نقاوة النفس - من معاملة القريب على أساس العين بالعين، والسن بالسن. ما يحدث في الفضيلة الجسدية والنسك هو الصوم والامساك وافتراش الأرض والتهجّد مع السهر، وسائر الممارسات النسكية العادية (الجسدية) التي تجعل اهواء الجسد تهدأ من جهة ارتكاب الخطايا بالفعل. وكما قلت، فالعهد القديم حسن، وله طابع تربوي من جهة انساننا الخارجي، ويحمينا من الأهواء بالفعل. الاّ انه لا يحمي ضد الخطايا التي بالذهن. بكلام آخر، لا يستطيع العهد القديم ان يعتقنا (من أجل الله)، من الحسد والغضب وسواها. فإذا تيّقظ انساننا الداخلي، حسب (تعليم) الآباء، يمكنه ان يحمي الخارجي أيضاً. نحن مع الشياطين الأشرار، نرتكب الخطيئتين معاً. الشياطين تشكل الخطيئة في ذهننا،

(١) الكاتب لا يحتقر القديم. فالناموس عند بولس كان مؤدبنا الى المسيح. كيف نحتقر من يقود خطانا الى المسيح؟ الاّ ان العهد القديم ناقص بدون المسيح، (ما جئت لأنقض بل لأتمم). العهد الجديد اكمل. انه الكمال، فهو الذي يقودنا الى ملء قامة المسيح. العهدان متلاحمان. الأول بداية الثاني، والثاني كمال الأول. لهذا فالكتاب المقدس هو العهدان معاً Bible، فهو ينطوي على الوعود وتحقيقها.

بالصور الخيالية. نحن نرتكب الخطايا، داخلياً بالأفكار، وخارجياً بالأعمال. (ليس للشياطين كثافة جسدية، لهذا فإن عملها هو مع الأفكار فقط (dialogismos). انها بالخبث والخداع تسبّب لها ولنا الجحيم. لو كان للشياطين الخبثاء جسد مادي (هيولي)، لكانت اخطأت بالأعمال أيضاً. ان استعدادها ونيّتها هما نحو عدم التقوى (اللاتقوى). وصلاة الرب يسوع «أيها الرب يسوع المسيح ارحمني»، تسحق خداع الشياطين. فعندما ندعو يسوع، الله، ابن الله، على الدوام، بدون اهمال أو كسل، فإنه لا يسمح لها ببدء الهجوم، ولا بغرس اي شكل (أو صورة) في الذهن، ولا بهمس أي شيء للقلب. عندما لا يدخل شكل شيطاني الى القلب، يفرغ من الأفكار. الشياطين اعتادت ان تهمس للنفس ملقّنة اياها الخبث والشرور، بالأفكار. وهكذا فلنتمسّك جيداً بالصلاة والتواضع، لأنهما يتسلّحان باليقظة ضد الشياطين. وفي الواقع اذا كنا نعيش هكذا، فمن الممكن ان نعيّد قلبياً وميستيكياً كل يوم وكل ساعة. وكما يتعذّر علينا ان نطارد فريسة مجنّحة، في الهواء، كوننا بشراً، أو نطير مثلها، فالطيران ليس من خواص طبيعتنا، هكذا يستحيل ان نغلب الأفكار الشيطانية غير المادية، بدون الصلاة القلبية. الاّ اننا سنفوز عليها عندما يسبح ذهننا في الله، والاّ فلن نرى غير الأرض. «توكّل على الرب من كل قلبك، وعلى فهمك لا تعتمد» (أمثال ٣: ٥)، لئلا يقول النبي فينا: «أنت يا رب قريب من فمهم، وبعيد من كلامهم» (ارميا ١٢: ٢). لا أحد غير يسوع سيجعل سلاماً ثابتاً في قلبك بإزاء الاهواء. «المسيح سلامنا وقد جعل اليهود وغير اليهود شعباً...» (أفسس ٢: ١٤). عندما نتنفّس يسوع المسيح على الدوام، قوة الله وحكمة الآب، فإننا سنعيش ابداً بمقتضى قول داوود: «علّمنا فنؤتي قلب حكمة» (مزمور ٩٠: ١٢). واذا تراخينا وتقاعسنا في عمل الصلاة الداخلي - لسبب من الأسباب - فلنشدّ احقاء اذهاننا جيداً في الصباح التالي متمسكين جيداً بهذا العمل وعالمين انه لن نُعذر بعد ان عرفنا الخير، لكننا لم نعمل به. في انفك وتنفّسك اجمع اليقظة واسم يسوع أو ذكر الموت المعصوم مع التواضع، فهما يعودان عليك بالنفع الجزيل. الرب قال: «من اتضع.. فهو الأعظم في ملكوت السموات» (متى ١٨:

٤) و(متى ٢٣ : ١٢). وأيضاً: «تعلّموا مني . . .». الا ترى ان التعلّم هو التواضع؟ و«أنا أعرف ان وصيتك حياة أبدية. فالكلام الذي أقوله، أقوله كما قاله لي الآب» (يو ١٢ : ٥٠). هذا هو التواضع. غير المتواضع ينزلق ويقع في نقيضها، وأعني الموت.

٩٦ مغبوط هو من لصق، صلاة الرب يسوع، بذهنه، وناداه بدون انقطاع متحداً به قلبياً كاتحاد الهواء بالأجساد، والشمعة باللهب. عندما تطلع الشمس، يولد النهار. واسم يسوع الرب المكرّم والمقدس، عندما يسطع في الذهن على الدوام، سيولّد شموساً منيرة لا تعد ولا تحصى. بانقشاع السحب، يصفى الجو. عندما تتبدّد خيالات الأهواء بقوة شمس العدل يسوع المسيح، من البديهي أن تولّد في القلب صوراً تتلألأ كالنجوم وتسطع كالقمر، فمجال القلب قد اناره يسوع. ويقول كتاب الجامعة: «المتوكلون على الرب يجدون الحق، والامناء في المحبة . . .» (جامعة ٣ : ٩).

٩٧ وكما ان القوات الملائكية لا تنشغل بمال أو حقول، هكذا هو حال الذي نقّوا عيون نفوسهم، وكسبوا العيش في الفضيلة، فإنهم لا يبالون لما تعمله الأرواح الشريرة. وكما انه واضح للقوات الملائكية غنى التقدم نحو الله، هكذا بالنسبة لأولئك واضح هو عشق الله ومحبته، والتحديق والارتقاء نحو الالهي. فعندما يتقدمون صعوداً، بالعشق والتذوق الالهي والشوق المحبوب، فإنهم لن يتوقفوا حتى يبلغوا السارافيم. ولن يكلّوا ويتعبوا من يقظة الذهن وارتقائه العشقي، حتى يصبحوا ملائكة «في المسيح يسوع ربنا».

الفصل الثاني عشر

للبار نيكيفورس المتوحد

عاش البار المتوحّد نيكيفوروس حوالي السنة ١٣٤٠[١]. نسك في الجبل المقدس آثوس، وصار معلماً للفسلفة النسكية، وقد تتلمذ عليه القدس غريغوريوس بالاماس اسقف سالونيك[٢]، كما يقول هو نفسه عنه. عاش متحداً ومتصلاً بما هو خارج حدود الكون، وقد امتلك في قلبه استنارة النعمة وتألّه في يسوع المسيح، تاركاً لنا «في اليقظة وحفظ القلب»[٣] وفيه هو أولاً، يدخل المنهج السيستماتيكي الطبيعي للتنّفس، من أجل تركيز الذهن في القلب، ومن أجل صلاة القلب النقية السامية. وصار بذلك مهندساً للروح، وبسليعيل جديد[٤].

ان القسم الأكبر من مقالته، قد تُرجم، وهو يؤلف وجبة دسمة جداً في وليمة هذا الأب، وأعني اليقظة والصلاة.

«انتم الذين تتلظّون لتنالوا الظهور النوراني العظيم والالهي بمخلصنا يسوع المسيح؛ انتم الذين تريدون ان تقبضوا بصورة محسوسة في قلبكم، على النار الأكثر من سماوية؛ انتم الذين تجتهدون ان تنالوا الخبرة المحسوسة

(١) المعاصرون يجعلونه من رجالات القرن (١٣). وهو ايطالي لاتيني صار ارثوذكسياً.
(٢) بالاماس ذكر عن نفسه انه تلميذ تيؤلبتوس (theoleptos) (الدفاع عن الهادئين). وهذا ما أخذ به يوحنا ميندورف في المدخل الى دراسة بالاماس. ثيؤلبتوس هو قائده الى الرب.
(٣) الفيلوكاليا الجزء الرابع صفحة (١٨ - ٢٨).
(٤) (٢ عذرا ١٠ : ٣٠)

(الخاصة) بعفو الله؛ انتم الذين تركتم كل خيرات هذه الدنيا، لتكتشفوا وتمتلكوا الكنز المطمور في حقل قلبكم؛ انتم الذين تريدون منذ الحياة على هذه الأرض، أن تضرموا لكم مشاعل النفس، ولأجل هذا، زهدتم في كل الأشياء الحاضرة؛ انتم الذين تريدون ان تعرفوا بمعرفة تجريبية، ملكوت الله الحاضر في داخلكم، تعالوا اعرض عليكم طريقة الحياة الأبدية، بالأحرى السماوية، التي تُدخل - بدون تعب أو عرق - من يمارسها، الى ميناء عدم الهوى. فليس عليها ان تخشى الاغراء أو الذعر الواردين عليها من الشياطين. هذا السقوط لا يهدّد الاّ مَن انقاد بعيداً عن الحياة التي أعرضها لكم، كما جرى لآدم. فآدم احتقر الوصية الالهية، وارتبط بالحية، ووثق بها، وتركها تُسكره بالثمرة الخداعة. سقط بصورة يرثى لها، هو وذريته معه، في هاوية الموت والظلمات والفساد. ونحن نمتلك ملكوت السموات في داخلنا (لو ١٧ : ٢١)، الاّ اننا لا نلج اليه. ان حياة الرهبان الفريدة، سُميتْ «فن الفنون، وعلم العلوم». لأن هذه الحياة الطاهرة ليست سبب الأمور الفاسدة بالنسبة لنا، الا اذا تمرّغ عقلنا بها بعد ان جعلناه مشاركاً في الأمور السماوية. وبالعكس، فإن خيرات غريبة وسرّية قد وُعدنا بها: «ما لم تره عين، ولم تسمع به اذن، ولا خطر على بال بشر» (١ كور ٢ : ٩). ومن هنا، «فإن حربنا ليست ضد لحم ودم، بل ضد الرئاسات، ضد السلاطين. . .» (أفسس ٦ : ١٢).

فإذا كان الدهر الحاضر ظلمة، فلنتركه ولنهرب بذهننا ما دام ليس من امر مشترك بيننا وبين عدو الله. فمن يريد ان يتصالح مع ابليس، يصير عدواً لله. ومن صار عدواً لله، من يقدر على مساعدته؟ لذا فلنقتدِ بآبائنا، ونبغِ كنز قلوبنا الموجود فينا. واذا وجدناه، فلنحتفظ به بكل قوانا، عاملين بمقتضاه، لأننا لهذا ضللنا في البدء.

واذا ما ظهر نيقوديموس آخر وقال لنا: «كيف يقدر الانسان ان يدخل الى قلبه ويعمل به ويقيم فيه؟ كيف يقدر المرء ان يدخل الى جوف أمه من جديد ليولد وهو شيخ؟» فإن مثل هذا الانسان سيسمع: «الروح يهب حيث يشاء. . .» (يوحنا ٣ : ٨).

وإذا كنا في الأمور العملية نشك ونرتاب، فكيف تأتينا خيرات الحياة التأملية (الثيوريا)؟ الارتقاء في الثيوريا، هو الحياة العملية ذاتها. لأنه يستحيل ان يستفيد من كان يشك ببراهين من الكتب المقدسة. هلمّ بسير القديسين وكل ما جاء فيها. هلمّ لنجعله في هذا الباب، حتى اننا اذا استفدنا منه، نطرح كل شك وارتياب.

وبادىء ذي بدء، اذا شرعنا بالكلام انطلاقاً من أبينا العظيم نيكيفوروس، فإننا سوف نقارن لاحقاً، وضمن الممكن، أقوال الآباء وأفعالهم التي جمعناها من هنا وهناك.

١ - من سيرة أبينا البار أنطونيوس الكبير:

جاء مرة الى الأب انطونيوس اخوان. وبينما كانا في الطريق، نفد منهما الماء، فمات الواحد، بينما بقي الآخر ينتظر الموت. ولما عجز عن متابعة السير، جلس على الأرض ينتظر اجله. وكان القديس انطونيوس على الجبل، فنادى راهبين، حدث ان كانا هناك، فقال لهما بلهجة الطلب: «خذا ماء وأسرعا في الطريق الى مصر، لأن هناك انسانين، الواحد مات والثاني يحتضر. واذا لم تسرعا، فإن الثاني موشك ان يموت. هذا ما أعلن لي وأنا أصلي.

ولما مضى الراهبان، وجدا الاول ميتاً، فطمراه. أما الثاني فأسعفاه (بالماء) وحملاه الى الأب انطونيوس، وكانت مسافة الطريق يوماً كاملاً. واذا سأل أحد: لماذا لم يتكلم انطونيوس قبل أن يموت الرجل؟ ان سؤالاً كهذا غير صحيح. فالقرار بموته لم يكن بيد انطونيوس، انما بيد الله الذي قضى هكذا فكشف لأنطونيوس عن الثاني. ان هذه العجيبة كانت لأنطونيوس فقط، بينما كان في الجبل وقلبه ساهر مع الرب الذي اعلن له الأمور البعيدة.

ترى هل بسبب يقظة القلب صار انطونيوس مشاهداً لله ونبياً؟ في الحقيقة إن الله يظهر في القلب وفي الذهن أولاً كما يقول القديس يوحنا

السلمي؛ كنارٍ، ليطهّر محبيه. وبعد ذلك، عندما يضيء الذهن، يصير المرء الهياً. لكن فلنتابع كلامنا عبر آباء قديسين آخرين.

٢ ـ من سيرة القديس ثيوذوسيوس رئيس دير الشركة:

لقد انجرح البار ثيوذوسيوس بسهم المحبة الالهية وبالطاعة لها، حتى انه كان يتمم القول: «أحبب الرب الهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قوتك...» (تثنية ٦: ٥)، الأمر الذي لن يختلف البتة اذا كانت قوى النفس الطبيعية غير مسمّرة في أمر من أمور الدهر الحاضر، الاّ بمحبة الخالق وحسب. وأتكلم عن هذه القوى العقلية في النفس. وعندما كان يعزّي، كان في العديد مزعجاً. وعندما كان يشتهي، كان في الباقي حلواً ومعشوقاً. من يقدر ان يكون نافعاً بهذا المقدار، حتى انه عندما يعاشر الكثيرين، يجمع احاسيسه ويخضعها للانسان الداخلي، فيجعل ما يتحرك في الضوضاء، حياً في الهدوء؟ وفي الوقت نفسه يقدر ان يعيش في الجماعة ومعها، ويبقى هادئاً. ها هو الأب ثيوذوسيوس قد جمع احساسيه وجعلها في داخله، فصار لقمة للمحبة، من أجل خالقنا.

٣ ـ من سيرة القديس ارسانيوس:

الأمر العجيب هذا، حفظه ارسانيوس دون ان يطلب براهين من الكتاب المقدس، ودون ان يتردد البتة. ليس لأنه كان يستحيل عليه، اذ كيف يعسر الكتاب على من ينطقه جيداً؟ انه لأمر سهل، كما ان الكلام بالنسبة للناس سهل. انما اعتياد ارسانيوس على الصمت، ونفوره من حب الظهور، كانا السبب وراء ما قيل. لأجل هذا، فإن اهتمام الأول ما كان في الكنائس ولا في الاجتماعات، بل في أن لا يرى احداً (مواجهة)، ولا يراه أحد. كان همه ان يقف وراء أحد الأعمدة، أو وراء أي شيء أمامه، وأن يخفي نفسه ويحتجب كي يتحاشى لقاء الآخرين.

وقد عمل هذا لأنه اراد الانتباه الى نفسه والسهر عليها، كي يجمع

ذهنه في داخله، فيرتفع بيسر نحو الله. وأيضاً فإن هذا الانسان الالهي، الملاك الأرضي، كان يجمع ذهنه كي يرتفع من هنا الى الله، بسهولة.

٤ ـ من سيرة القديس بولس الذي في لاترو:

أمضى بولس هذا حياته في الجبال والقفار. فكان يواجه الوحوش الضارية كما لو كانت جاراً له أو ضيفاً عليه. وأحياناً كان ينزل حتى اللافرا ليرى الاخوة. فكان يرشدهم ويعلمهم ان لا يجبنوا أو يتكاسلوا في أعمال الفضيلة المتعبة والمؤلمة، انما ان يعيشوا بيقظة وتمييز كما يريد الانجيل، وان يجاهدوا بضراوة وشجاعة ضد الأرواح الشريرة. اضافة الى ذلك، أعطاهم منهجاً به يتمكنون من تمييز الحركات الشهوانية، ومعرفة بذار الأهواء كي يتحاشوها.

يا لها من حقيقة! كيف يعلّم هذا الأب الالهي تلاميذه منهجاً لا يعرفونه، سيتمكنون به ان يطردوا ويردوا هجمات الأهواء. ما هو هذا المنهج؟ انه تحصين الذهن. لأن اعمال الذهن ترتبط بالتحصين وليس بسواه. فلنتابع الكلام عبر آباء آخرين.

٥ ـ من سيرة الأب اغاثون (صالح):

سأل أحد الأخوة الأب اغاثون قائلاً: «قل لي يا أبتِ، ما الأعظم؟ التعب الجسدي ام تحصين عالمنا الداخلي؟ فقال له: الانسان يشبه شجرة، والتعب الجسدي هو الأوراق. اما تحصين الداخل (الانسان الداخلي)، فهو الثمر. إذاً بحسب الكتاب المقدس «كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً، تقطع وتلقى في النار» (متى ٣: ١٠). ومن الواضح انه من اجل الثمر، يصير كل الجهاد، أعني من أجل تحصين الذهن. لكننا بحاجة الى غطاء، الى تزيين، هو الأوراق التي هي التعب الجسدي.

انه لمدعاة للعجب حقاً، كيف ان هذا الأب القديس تكلم عن كل

الذين لا يحصّنون اذهانهم قائلاً للمفتخرين بما هو عملي فقط «كل شجرة لا تأتي بثمر، بل فقط فيها اوراق، تقطع وتلقى في النار». ان قرارك رهيب يا أبتِ.

٦ ـ من الأب مرقس الى نيقولاوس:

اذا كنت يا ولدي تريد ان تكتسب لك مصباحاً عقلياً للمعرفة الروحية، وذلك لكي تسلك في ليل هذا الدهر الحالك السواد، ولكي تستقيم خطواتك بالرب (مزمور ١١١ : ١)، ولكي تسلك بقوة في طريق الانجيل، وفقاً لقول النبي (١١١ : ١)، أي لكي تصير مشتركاً ومشاركاً في أقوال الرب الشريفة، بايمان ملتهب بالصلاة والشوق، فأنا اكشف لك منهجاً روحياً، أو تصميماً لطريقة روحية، لا يحتاج الى تعب جسدي وجهاد، بل انما يحتاج الى تعب روحي وذهن تدعمه المحبة ومخافة الله. بهذا التصميم تتمكن من قهر جحافل الأعداء. واذا كنت ترغب في ان تسود الأهواء بعد ان تجمع نفسك بالصلاة ومعونة الله، اضرب العمالقة الثلاثة: (النسيان، الاهمال، والجهل). لأن هذه أساسية للجهاد، ومن خلالها تفعل سائر الأهواء، فتحيا في نفوس محبي اللذة. وهكذا، فبالسهر ومراقبة الذهن بفضل المعونة الالهية ـ وبعد ان تجد ما يجلهه الكثيرون ـ سوف تتمكن من الانعتاق من العمالقة الأشرار.

وبالمعرفة الحقيقية، وتذكّر كلام الرب، وانسجام الارادة، والنعمة المنسكبة في القلب، يختفي كل أثر للنسيان والجهل والاهمال. هل ترى الاتفاق الحاصل في الكلمات الروحية؟ هل ترى كيف تظهر المعنى الحقيقي، اليقظة؟

فانظر الى ما هو مدوّن أدناه.

٧ ـ للأب أشعيا:

عندما ينفصل الانسان عما هو من جهة اليسار (اي الأهواء)، عندها سيعرف كل الخطايا التي ارتكبها ضد الله. فالانسان لا يمكن ان يرى خطاياه، الا اذا انفصل عنها بالقوة. والذين بلغوا الى هذه القامة، يجدون البكاء والتضرع والخجل امام الله، فيتذكرون صداقة الأهواء الشريرة.

فلنجاهد يا اخوتي قدر المستطاع، والله يعضدنا بحسب كثرة رحمته. واذا لم نحفظ قلوبنا كما فعل أباؤنا، على الأقل فلنحرص ان نعمل بذلك قدر المستطاع؛ وان نحفظ أجسادنا كما يريد الرب، أعني بدون خطيئة. ونؤمن انه سيرحمنا وقت الشدة والجوع كما فعل مع قديسيه قبلنا. وهنا، فإن الأب العظيم هذا، يعزي الضعفاء روحياً، بقوله: «وان لم نحفظ قلوبنا كما فعل أباؤنا، فلنحرص ان نحفظ أجسادنا بدون خطيئة كما يطلب الله منا، فيصنع معنا الرحمة.

٨ ـ عن مكاريوس الكبير:

ان أهم عمل يقوم به الرياضي بالروح هو التالي: ان يدخل الى قلبه ويمقت الشيطان ويحاربه. وعندما يواجه أفكاره، أن يحاربها. واذا حفظ المرء جسده خارجياً من الزنى والفساد، الا انه يزني من الداخل، ويزني بأفكاره، فلا ينتفع شيئاً وان كان جسده عفيفاً، لأنه قد كتب: «من نظر الى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه...» (متى ٥ : ٢٨).

في الحقيقة هناك زنى في الجسد، وزنى في النفس، عندما تتوطّد علاقة النفس بالشيطان.

ويبدو وكأن الأب العظيم هذا، يعارض كلام الأب أشعيا الذي سبق ذكره. فذاك يطالبنا ان نحفظ اجسادنا كما يطلب الرب منا، ويطالبنا ليس فقط بنقاوة الأجساد، بل بنقاوة القلب أيضاً. فمن الانجيل نلاحظ، ان الأب اشعيا يقوّل الأمور نفسها.

٩ ـ عن البار ذياذوخوس:

ان من يقيم في قلبه، يرحل بالكلية عن جمالات هذه الحياة. واذا كان يعيش في حصن الفضائل، فإن الفضائل نفسها تحرسه، وبالتالي فإن حيل العدو تظل عديمة الفعل والتأثير عليه.

بالصواب نطق الأب القديس عندما قال ان حيل العدو تبقى عديمة الفعل والتأثير. فعندما يعيش المرء في قلبه، فإن حيل العدو تضعف باطّراد، ويضعف تأثيرها علينا. وكلما طالت الاقامة في القلب، ضَعُفَت افعال العدو وحيله. واعرف ان الوقت يمر سريعاً بينما أنا أهم في ترتيب اقوال الآباء في الرواية الحاضرة. لهذا، فإني سوف انتهي، بعد ان اذكر واحداً أو اثنين أيضاً.

١٠ ـ عن اسحق السرياني:

جاهد كي تدخل الى مخدعك حيث تجد الخدر السماوي، فالاثنان ـ (المخدع، والخدر) ـ واحد، وفي مدخل واحد ترى الاثنين معاً.

ان السلّم المصعدة الى الملكوت، مخبّأة في داخلك، أي في نفسك. فاغسل نفسك من الخطيئة، فتجد المراقي التي عليها تصعد.

١١ ـ عن القديس يوحنا الكرباثي:

لكي نبلغ الهدوء، نحتاج الى جهاد وتعب في صلواتنا كي نجد حالة الذهن الخالي من الانزعاج. وهدوء الذهن هو الفردوس الآخر، حيث ـ بحسب كلام الرسول ـ يسكن الرب: «أم ألستم تعرفون أنفسكم ان يسوع المسيح فيكم ان لم تكونوا مرفوضين» (٢ كور ١٣: ٥).

١٢ ـ عن القديس سمعان اللاهوتي الجديد:

بعد أن أبعد ابليسُ الانسانَ عن الله، نال سلطاناً أن يثير أفكار كل انسان في الليل والنهار، للواحد كثيراً، وللآخر قليلاً، ولآخر أكثر. ولا يمكن لأفكارنا ان تقوى وتصمد، الاّ بذكر الله على الدوام.

بقوة الصليب، فليطبع في القلب ذكر الله، فهذا الذكر يقوّي الأفكار ويشدّدها ويثبتها. الى هذا الهدف يتجه الجهاد المسيحي، حتى بلوغ قامة الايمان بالمسيح. وبدون هذا الهدف، عبثاً يجاهد كل واحد. والجهاد هذا متنوع عند المسيحيين الذين يمقتون الشر حباً بالرب، أي ان يحيي المرء احشاء الخير ليختم في عقلنا وحياتنا المسيح، كما يقول الرسول: «يا أولادي الذين أتمخض بهم ثانية حتى يتصوّر فيهم المسيح» (غلا ٤: ١٩).

سؤال: من هذا المقطع ندرك ما عمله الذين ارضوا الرب، وأن هناك عملاً يحرر النفس من الأهواء ويقرنها بمحبة الله، وهذا العمل ضروري لكل من تجنّد للمسيح. فهذا العمل لم نشك به، انما اقتنعنا بعمق. لكن ما هي اليقظة وكيف يستأهل المرء لها. فهذا ما نرجو ان نعرفه، لاننا في هذا الأمر جهّال بالكلية (مبتدئون).

جواب: باسم ربنا يسوع المسيح الذي قال: «بدوني لا تقدرون أن تعمُلوا شيئاً (يو ١٥: ٥). ونحن اذ ندعوه ليعيننا ويعضدنا، سوف احاول ان اقول ما هي اليقظة وكيف يمكن اقتناؤها.

للأب نيكيفوروس نفسه:

بعض الآباء القديسين يسمّون اليقظة (حفظ الذهن). والبعض الآخر يسمونها (الحصن القلبي). وآخرون يسمّونها (اليقظة). وآخرون (الهدوء العقلي او القلبي). الاّ ان الجميع متفقون. كأن يقول المرء: خبزة، أو قطعة خبز. الأمر نفسه يصح في اليقظة.

ما هي اليقظة وما هي سماتها؟ تعلّمها بدقة. اليقظة هي معرفة التوبة الحقيقية. انها ارتقاء النفس الى حالتها الاولى التي خلقها الله فيها. انها مقت لخطيئة العالم، وارتقاء نحو الله. انها استرجاع الفضيلة ونبذ المآثم. اليقظة هي المعرفة اليقينية بمساحة خطايانا. انها بداية الثيوريا، أو بالأحرى هي شرطها. الله المحتجب، باليقظة ينكشف للذهن (النوس).

اليقظة هي هدوء الذهن، أو بالأحرى هي وقفة النفس تُمنح لها كجائزة مع رحمة الله. انها تنقية الأفكار - من جهة - وبيت تذكّر الله ومستودع الصبر من أجل الالام النازلة. اليقظة هي العاملة مع الايمان والرجاء والمحبة. بدون الايمان، لا يستطيع المرء ان يقبل المحزنات الآتية من خارج. من لا يقبل المحزنات بفرح وشكر، لن يستطيع ان يقول للرب: «ناصري أنت وملجأي» (مزمور ٩٠: ٢). وبدون الملجأ السامي، سوف لن يشعر في صدره بمحبة الله.

ان هذا الانجاز العظيم، يصبح ملك الكثيرين، (لا ملك الجميع)، بالتعليم. ويندر عدد الذين اخذوا من الله قوة هذا العمل وحرارة الايمان، بدون تعليم. والنادر ليس مقياساً وقاعدة. لهذا علينا ان نفتش عن دليل غير مخدوع، نتعلم بنصحه وارشاده، ونطبع في ذهننا على يده، كل ما ينزل علينا في خطايا اليمين واليسار وأعني المبالغات[1] التي تحصل بعمل اليقظة فتنسل الى الداخل بفعل ابليس، يضاف اليها ما حصل للرب نفسه «الذي تألم بالتجربة...» (عبر ٢: ١٨)، فهو يعلنها لنا بدون شك، فيرينا هذا الدرب العقلي، فنتمكن بسهولة ان نسلكه. واذا تعذّر وجود الدليل، فعلينا ان نفتش عنه بتعب. وفي النهاية ان لم تجده بعد الدعاء الى الله بانسحاق روح ودموع وتواضع، فاعمل بما اقول لك:

(١) هنا ينبّه الكاتب الى ان الغلو في التركيز على الخطايا، يؤذي المبتدئين novice، فيقعون في تجارب اليمين واليسار التي سبق الكلام عنها. الشيطان يستغل قلة الخبرة لمصلحته الخبيثة، فيؤذينا بحيل ظاهرها طاهر (تجارب اليمين)، وأخرى ظاهرها وباطنها شرير (تجارب اليسار).

أنت تعرف ان النفس الذي نتنفّسه هو الهواء الذي نتشّقه من اجل القلب. فالقلب هو اداة الحياة ومنه حرارة الجسم. انه يجتذب اليه الهواء (الشهيق)، ليدفع الى الخارج حرارته مع الهواء (الزفير)، وهكذا يقدم لذاته حالة هادئة لطيفة. والرئة هي الأداة لمثل هذه المهمة، فقد خلقها الله صغيرة كمنفاخ يختزن محتواه ويطرحه بدون جهد أو تعب. هكذا، فالقلب الذي يجتذب، البارد مع الشهيق، ويطرح الحرارة مع الزفير، يحفظ النظام غير منتهك من أجل استمرار الجسم الحي وبقائه.

وأنت اذا كنت تجلس وتجمع ذهنك، اجعله في طريق الانف، من حيث يدخل الهواء الى القلب، وأرغمه ان ينزل مع الهواء المتنفّس، الى القلب. وعندما يدخل الى هناك، تكون في سرور وفرح. انما كرجل مسافر عن بيته، عندما يعود، فلن يعرف ما سيفعله لشدة الفرح، فقد استأهل ان يقابل اولاده وزوجته. هكذا الذهن، فعندما يتّحد بالنفس، يمتلىء لذة وفرحاً لا يوصفان.

اذاً عوّد ذهنك يا أخي ان لا يخرج من هناك على عجل، ففي البداية يحل به التراخي نتيجة للحبس والتضييق عليه داخل القلب. لكن عندما يألف ذلك، لا يعود يطلب التجوّل خارجاً «لأن ملكوت الله في قلوبكم» (لو ١٧: ٢١). فالملكوت نراه هناك ونطلبه بصلاة نقية، اما ما هو خارج، فيستحق المقت والكراهية.

لكن اذا ولجتَ الى قلبك كما قيل، من البداية، وكما كشفت لك، فأنت مديون بالشكر لله. فسبّح وابتهج وقم بهذا العمل على الدوام. وهذا العمل من شأنه أن يعلمك ما لا تعرفه.

لكن عليك ان تتعلم أيضاً انه عندما يكون ذهنك في القلب الاّ يصمت والا يقف خمولاً، بل يهذ على الدوام «أيها الرب يسوع المسيح، ابن الله، ارحمني...» فلا يتوقف عن ذلك البتة.

وعندما تمسك الصلاة بالذهن وتمنعه من التنقل هنا وهناك، فإنها

تجعله معافى ولا يقهر عند هجمات العدو، فترفعه يوماً بعد يوم الى المحبة والشوق الالهيين.

لكن اذا تعبت كثيراً يا أخي، وعجزت عن ولوج رحاب القلب، كما أوعزت لك، فاعمل كما اقول لك، فتجد بمعونة الله مبتغاك. وتعرف ان القسم العقلي من النفس، في الانسان، هو في الصدر. فعندما تتوقف الشفاه (تصمت)، فإننا من الصدر، من هناك نتكلم ونفكر ونرفع الصلوات والمزامير وسواها... فإذا ما جمعت من القسم العقلي، كل فكر آخر، فإنك تستطيع اذا اردت، ان تقول «يا ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني».

أرغمه على المناداة من الداخل بهذه الصلاة بدل أي أمر آخر. وعندما يدوم ذلك زماناً طويلاً، سينفتح بهذا مدخل قلبك، كما سبق وقلت لك وبدون أي شك، الأمر الذي عرفناه نحن من خبرتنا.

وهكذا يأتي اليك مع اليقظة الحارة والمشوقة جداً، كل طغمة الفضائل: المحبة والفرح والسلام وسواها... (غلا ٥: ٢٢)، والتي بها ومعها ستحضر كل مطاليبك الى ربنا يسوع المسيح الذي مع ابيه وروحه القدوس له المجد والعزة والاكرام والسجود الآن وكل اوان والى دهر الداهرين آمين.

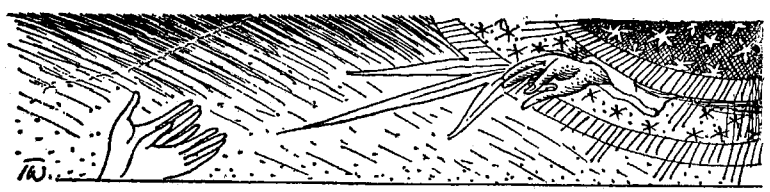

الفصل الثالث عشر

للقديس غريغوريوس بالاماس

عاش القديس غريغوريوس بالاماس في عهد الأمبراطور اندرونيكوس الثاني الباليولوغ. مسقط رأسه القسطنطينية. جرحه العشق الالهي منذ نعومة أظفاره، فهجر العالم وما فيه لينسك في الجبل المقدس (آثوس)، حيث صار بالعمل والثيوريا اناء الهياً للروح القدس، وذهناً يعاين الله ساطعاً بالأنوار الالهية وقوى الثالوث القدوس غير المخلوقة.

بالاماس اب كبير من آباء كنيستنا. جندي لا ينهزم للروح الرسولية الشرقية المستقيمة الرأي والابائية. شارك الآباء في المواهب وفي خبرات الروح القدس، فدافع عن الهدوئيين (hesychasts) وعن اليقظة والصلاة القلبية. كان كاروزاً للنعمة. من يطّلع على كتاباته اللاهوتية العميقة، عن كثب، ويقف على سيرته الالهية المقدسة، لا بد ان يدرك من هو القديس غريغوريوس بالاماس[1].

(١) كتب عن القديس بالاماس الراهب ثيوكليتس من دير القديس ديونيسوس في جبل آثوس - سالونيك ١٩٧٦.
كذلك لمع في كشفه في العالم الارثوذكسي الأب يوحنا ميندورف والاستاذ جورج مندزريذس، وسبقهما اليه اللاهوتي الكبير لوسكي.
فللأول كتاب يعتبر طليعياً، بل فتحاً لم يتجاوزه احد الى الآن، وضعه للتعريف بالقديس وفكره ولاهوته (دراسة عن بالاماس). كذلك وضع كتاباً آخر لا يقل عن الأول قيمة (الروحانية الارثوذكسية). وجَمَعَ له ثالثاً هو (الثالوثيات) اما الكتاب الثاني، فقد أطلق بالاماس في دنيا اليونانية بكتابين حتى الآن:
١ - (بالاماسيات)
٢ - (تأليه الانسان) وهو من وحي لاهوت بالاماس، وقد نقل الى الانكليزية (المعرّب)

هنا نقدّم للقارىء باقة صغيرة، مقالة صغيرة وضعها بالاماس هي بعنوان: (الصلاة ونقاوة القلب)، موجودة في الفيلوكاليا، المجلد الرابع، ص (١٣٢ - ١٣٣).

«لما كان الالهي صلاحاً قائماً في ذاته، ورحمة قائمة في ذاتها، ومحبة لا يُسبر غورها، تسمو على كل اسم، وعلى كل ما هو موجود على الأرض، فالانسان لا يخلص الاّ باتحاده بالالهي. والانسان يتّحد بالالهي - على قدر المستطاع - عبر الاشتراك في الفضائل المتماثلة بين الله والانسان. ويكون الاتحاد بالالهي، عبر الصلاة والتضرع الى الله. الاّ ان الفضائل التي بها يتّحد الانسان بالله، من شأنها، بفضل مماثلتها لفضائل الله، ان تجعل الانسان الفاضل أهلاً لاقتبال الالهي. وكفضائل، فهي لا تقدر ان توحّد الانسان بالله. الاّ ان قوة الصلاة تعمل على نحو مقدس على تحقيق ارتقاء الانسان نحو الاتحاد بالالهي. الصلاة جسر يربط بين الكائنات العاقلة والله. لكن عندما تصاحب الصلاة ندامةٌ حارة وانسحاق يخرق الاهواء، عندها تتجلى الصلاة متسامية على قوى الأهواء وسائر الأفكار، لأنه يستحيل الاتحاد بين الله، والعقل الشهواني. وما دام العقل (النوس) شهوانياً، فهو وان صلّى، لا يمكن ان ينال الرحمة الالهية. النوس يأتي الى النوح (penthos)، بحسب التجاوز المتدرّج للأفكار الشهوانية. كذلك فإنه يشترك في الرحمة الالهية والتعزية، بمقتضى درجة النوح فيه. اذا طال مكوث النوس في النوح، وفي التعزية المقرونة بالتواضع، يتحوّل القسم الشهواني في النفس - (الغضبي والاشتهائي)، - الى الفضيلة. وعندما تصبح وحدة الذهن ثلاثاً، رغم بقاء الوحدة (أعني الذهن، العقل والارادة)، يتّحد النوس بالثالوث الأقدس، فيحكم الطوق على كل خداع شيطاني، ويحلّق الذهن فوق قوى الجسد والعالم وابليس. وبتحرّره من هذه المؤثرات الثلاث، يتّحد بنفسه وبالله. وكلما طال مكوثه في هذا الالتحام الميستيكي، يتذوق الأفراح الروحية المتدفقة من عمق النفس. ان وحدة الذهن (النوس) تصبح ثلاثة (قوامها ثلاثة)، بينما الذهن واحد. ان هذا يحصل بعودة الذهن الى ذاته، ليرتقي من خلالها الى الله. عودة الذهن

الى ذاته، هي ضرب من اليقظة. ارتقاؤه الى الله، يصير في البداية بالصلاة، أعني صلاة الرب يسوع، الأكثر تعباً وجهداً، والتي هي تارة موجزة، وطوراً مطوّلة. واذا بقي المرء في هذا الانجذاب والتجاذب بين الذهن وتشوّقه الى الالهي، وظل يجاهد كي لا تعبر الأفكار (logismos)، عندها يدنو المرء من الله قلبياً فيشعر بقوى يتعذر وصفها، ويتذوق شيئاً من حالة الدهر الآتي، ويتيقّن بحسٍ قلبي ان الرب طيب في الحقيقة، وصالح حسب قول المرنم: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» (مز ٣٩: ٩). ولكي يجد الذهن وحدته المثلثة، وأعني تحقيق الرقابة الذاتية والصلاة الدائمة، فهذا ليس على الأرجح امراً عسيراً. اما ان يبقى صابراً زماناً طويلاً في هذه الحالة المولّدة خبرات لا توصف، فهو - بكل تأكيد - الأمر الأصعب. التعب من أجل أية فضيلة، مهما كانت، قليل وهو محمول. اما الذين ينكرون التعب الناجم عن فضيلة الصلاة - وهم كثيرون، وينكرون ضيق الصلاة - فإنهم سيخسرون سعة المواهب الالهية. المجاهدون في الصلاة بصبرٍ، ينالون من الله عطايا ونعماً عظيمة تشدّدهم وتعينهم للمضي قدماً بشكرٍ وراحة، الى الساميات. وعليه، فالعون الالهي يجعل الجهاد الصعب، سهلاً. ونقدر ان نقول بأننا ننال قوة ملائكية تشدّد طبيعتنا الضعيفة كي ترتقي الى أصعدة فوق طبيعية حسب قول النبي: «اما الذين ينتظرون الرب فيجدون قوة ويرفعون اجنحة كالنسور. يركضون فلا يتعبون. يمشون فلا يعيون (أشعيا ٤٠: ٣١).

ما هو الذهن؟ انه قوة الذهن المؤلّف من أفكار وصور. الذهن هو القوة التي تحرّك الأفكار والصور. الذهن، في لغة الكتاب، هو «القلب». ولما كان للذهن اسمى قوة بين قوى طبيعتنا، كانت نفسنا عاقلة. ويمكن اعادة بناء (restoration) قوة الذهن في الذين يحيون في الهدوء منشغلين بالصلاة لا سيما القلبية منها (صلاة الرب يسوع). لكن القوة المولّدة لهذه القوة، يتعذّر تنقيّها، بدون تنقّي قوى النفس كافة. النفس جوهر كثير القوى، ينحلّ وينفسد بالخطيئة التي اذ تفعل في واحدة من قوى النفس، تؤدي الى تلوّث سائر القوى الأخرى، وفسادها. النفس واحدة رغم تعدّد

قواها. ولما كانت قوى النفس متعددة، كان من الممكن لأية قوة منها، ان تتنقى الى زمنٍ، بفعل جهاد ما، الاّ ان هذا لا يعني ان قوة الطاقة (power of energy)، الذهن مثلاً، تصبح نقية. فهذه متصلة بالقوى الأخرى وهي أكثر فساداً، وغير نقية. لا يظن من نقى قوة الذهن وطهّرها - بفعل المواظبة على الصلاة القلبية، فاستنار نوعاً ما بنور المعرفة الروحية - انه طاهر، لئلا ينخدع ويداس، وبغروره يفتح على نفسه باباً كبيراً فينخدع على الدوام دون ان يدري. اما اذا عاد المرء وأدرك نجاسة قلبه، لا يعود يتبجّج بهذه النقاوة المحدودة، انما بمعونتها يرى نجاسة قواه النفسية الأخرى، على نحو أفضل، فيتقدّم في التواضع مضيفاً نوحاً آخر (penthos). وفي النهاية يعمد الى وسائل[1] مناسبة تشفى بها سائر قوى النفس. وهكذا فإنه يداوي القسم العملي في النفس ويشفيه، بوسائل عملية، والقسم المعرفي، بوسائل معرفية، والنظري، بالصلاة.

بهذه الوسائل يصل (المرء) الى النقاوة الحقيقية الكاملة، الأكثر رسوخاً في الذهن والقلب. ويتعذّر على اي انسان بلوغ هذه النقاوة، بدون دقة في النسك العملي، وتدرّب نسكي مستديم، ومشاهدات (ثيوريا) روحية، وصلاة تعلن المشاهدات (بحسب درجة التقبّل)، وأعني الثيوريا التي يمنحها الله.

(١) هذا لا يعني ان الشفاء يقوم على مجرد تقنيات. فعمل النعمة عظيم في فعله كما يعلمنا جميع الآباء. الشفاء المنشود لا يقوم على الارادة فقط، انه ثمرة تعاضد بين الانسان والله. الأول عاجز والثاني قدير. الأول يطلب والثاني يفعل ويحقق.

الفصل الرابع عشر

القديس نيقوديم الآثوسي

كان البار نيقوديم الآثوسي راهباً عالماً وحكيماً عاش في الفترة الأخيرة من الأمبراطورية العثمانية. تعتبر أعماله ذات قيمة كبيرة في مجالي اليقظة والروحانية الارثوذكسية، وتربو في العدد على المئة ونيف، وقد طبعت مرات عدة منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن.

كان البار نيقوديم مدافعاً عن الصلاة القلبية المعرفة باسم صلاة الرب يسوع، والتي تحوي في طياتها كل فضيلة، وهي السبيل الى مواهب الروح القدس.

وقد اخترنا مقطعاً من أعماله (سجن الحواس الخمس) - ص ١٢٦ - فولوس - ١٩٦٩. وربما يكون هذا المقطع الزهرة الأكثر عطراً وشذى في جنائن مقالات هذا الآب. وقد جعلناه في خاتمة الكتاب بحكم كون نيقوديم قديساً معاصراً. وهكذا، فإن مقالته التي هي بوق اليقظة، تردد صدى خبرة الأبرار القدماء من الآباء القديسين، وتقع على مسامعنا وقعاً أشد وأقوى، ينهضنا.

«ليكن يسوع الهذيذ العذب لقلبك، ليكن بهجة لسانك، والشغل الدائم لذهنك. بكلام آخر، ليكن يسوع كالتنفس بالنسبة اليك. لا تتعب وأنت تدعوه، فإنك بهذا الذكر الدائم الكلي الحلاوة (يسوع) تغرس وتنمي الفضائل الالهية العظيمة المثلثة فتصبح اشجاراً باسقة في قلبك، وأعني: الايمان والرجاء والمحبة.

اعلم انه عندما يكون العاشق بعيداً عن محبوبه، فهو لا يتعزى في غيابه، الا بترداد اسمه كل حين. لهذا قال اللاهوتي غريغوريوس: «ان محبة المحبوب ترتبط بترداد اسمه». ونقرأ في التاريخ كيف ان ام الملك لاون الحكيم عندما أبعد ابنها عن القسطنطينية، ما كانت تتعزى في غيابه الا بذكر اسمه. فكانت في خروجها ودخولها، في قيامها وقعودها تردد: «لاوني، لاوني، يا بني». فكانت تردد هذه الكلمات لدرجة ان الببغاء الذي كان يسمعها، الف التلفظ بها. هكذا هي النفس التي تحب يسوع الذي في السموات[1]، والغائب (عن العين)، فلا تتعزى - بمحبتها له - الا بذكر اسمه القدوس كل حين، صارخة اليه بمحبة ودموع، بتوجع من القلب: (يا يسوع، يا يسوع، يا حبيبي).

ما هو أكثر غبطة؟ ما هو أكثر بهجة وسروراً؟ ما هو أكثر عذوبة وحلاوة؟ هل هناك غير الهذيذ على الدوام باسم يسوع المسيح الممجّد والمشوق اليه جداً؟ انه الاسم الذي به ينال الانسان كل ما يطلبه من الآب: «مهما طلبتم باسمي تنالونه...».

واذا كنت تعبت قليلاً في البداية، الّا انك ستألف هذا الاسم وتستعذبه فتجني راحة عظيمة. الجسم يهدأ في مركزه. انه كالحيوانات ذات الغطاء، ترتاح في اصدافها. والاخطبوطات في جحورها وذوات الأربع والزحافات، في مرابضها. والعصافير، في أعشاشها. هكذا الذهن أيضاً، فمن سماته (الطبيعية) ان يهدأ ويرتاح بدخوله الى القلب، الى الانسان الداخلي. للذهن أيضاً جسده وغطاؤه. القلب هو مركز الذهن. انه عرينه وراحته.

وكما ان الحيوانات تسرع الى أوكارها، لتنجو، - عندما تضطرب - هكذا الذهن الذي ينزعج بداعي هجمات الأفكار الشريرة أو أى امر آخر

(١) لا ينسى الكاتب حتماً ان يسوع حاضر في كل مكان. الا انه هنا يعالج مسألة احتجابه عن العين الحسية ليس الا.

خارجياً كان أم داخلياً. الذهن يسرع الى القلب وهو يصرخ: «يسوعي أعني. يا يسوعي انقذني»، فينعتق.

ولنفترض انك لن تجني خيراً ونفعاً من هذه الصلاة، الّا انك ستكتسب معرفة خطاياك وضعفك، وبفعل ذلك تتضع وتتوب. بدون يقظة الذهن والقلب، يستحيل على المرء ان يعرف متى يخطىء بالكلام، ومتى بالأفكار...

... واذ تغوص (تنقب) في الصلاة الداخلية، فإنك تستخرج التراب من قلبك مع رماد الأهواء ومع الأفكار الشريرة والخرافات. في أعماقك شرارة نعمة الله. في قلبك ستجد الشرارة التي جاء المسيح ليجعلها فيه. وهكذا تفرح فرحاً عظيماً اذ تجدها. ومن شدة فرحتك، تذرف دموعاً شديدة الحلاوة.

بعدها تجعل في الشرارة حطباً وعشباً وأعني حفظ وصايا الرب المحيية، مع فضائل أخرى مكتسبة. وعندما تنفخ بنيّةٍ حارة ومحبة متقدة، فإنك ستضرم ناراً عجيبة في قلبك. وبالأحرى، فإن يسوع الذي تهذّ به، هو يشعلها فيك. ومن شأن هذه النار وحرارتها، ان تحرقا الأهواء فيك، ملتهمة الشياطين التي تحاربك. وهكذا تطرد الأفكار وهجماتها، فيتحلّى كل ميل داخلي في قلبك بفعل هذه النار التي تهبك الفرح والسلام مع المحبة لله والقريب. ان ضياء هذه النار سينير ذهنك، مانحاً اياك المعرفة والتمييز.

وبفعل هذا العمل[1] (الصلاة)، فإنك ستجعل انسانك الداخلي

(١) القديس نيقوديم يسمي الصلاة القلبية عملاً. وهي بالفعل هكذا. انها تخصّص القلب في شأن الخلاص وتقنية البناء الروحي. ما من عمل يؤديه صاحبه بأصالة الا ويتطلّب عمقاً وجذوراً مع تعب وتخصص. كيف لا والآباء اعتبروا الصلاة على مختلف تسمياتها، «فن الفنون»، «مهنة المهن». والمسيحية الحقة تقوم على اتقان هذا الفن الرائع والجميل.

هيكلاً ومسكناً للروح القدس. وقلبك، مذبحاً شريفاً ومائدة مقدسة. وذهنك، كاهناً. وارادتك ونيتك، ذبيحة. والصلاة المرفوعة الى الله من أعماق قلبك، عطراً زكياً:

«أيها الرب يسوع المسيح، يا ابن الله ارحمني».